مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد الثاني والخمسون

بغـــداد ١١٧

١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥م

شروط النشر وضوابطه

١. تنشر المجلة البحوث العلمية ذات السمة الفكرية والشمولية وبما يسهم في تحقيق أهداف المجمع .

٢. لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعي الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣. يشترط في البحث أن لا يكون قد نشر أو قدم للنشر في مجلة أخرى .

٤. تعرض البحوث المقدمة للنشر في المجلة على محكمين ذوي الاختصاص لبيان مدى أصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥. هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث إلى أصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦. يرسل البحث إلى المجلة بالمواصفات التالية :

أ ـ أن يكون البحث مطبوعاً على الآلة الكاتبة أو مكتوباً باليد بخط واضح وجيد على وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسم الكاتب وعنوانه كاملاً باللغة العربية .

جـ ـ يجب أن لا تزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لا يتجاوز (٧٥٠٠) سبعة آلاف وخمسمائة كلمة .

د ـ أن يكون مستوفياً للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقاً تاماً حسب الأصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من أشكال أو صور أو رسوم أو خرائط أو بيانات توضيحية أخرى ، على أن يوضع على كل ورقة مكانها من البحث ويشار إلى المصدر إذا كانت مقتبسة .

و ـ أن تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

ز ـ يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والإنكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

ح ـ تكتب الكلمات الدالة باللغة الإنكليزية .

٧. يعطى صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثلاث نسخ من المجلة مع عشرة مستلات من بحثه .

البحوث لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

ـ توجه البحــوث والمراسلات الى : رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي المجمــع العلمــي ـ ص. ب. (٤٠٢٣) بغــداد ـ جمهــورية العراق

هــاتــف : (٤٢٢٤٢٠٢) فــاكــس : (٤٢٢٢٠٦٦ / ١ ـ ٩٦٤)

البــريد الإلكتــروني: iraqacademy@yahoo.com

ـ الاشتراكات : داخل العراق (٤٠٠٠) دينار سنوياً .

خارج العراق (٥٠) دولار أمريكي سنوياً وتضاف أجرة البريد .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الجامعة المعاصرة بين الرغبة في الاستقلال والضغوط الاجتماعية

ا.د. داخل حسن جريو

رئيس المجمع العلمي

الملخص:

لم تعد الجامعات ابراجاً عاجية، ولم يعد التعليم الجامعي ترفاً فكرياً، بل اصبح ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة، واداة من ادوات التغيير الاجتماعي والاقتصادي في اي بلد من البلدان، ومن هنا فقد اهتمت الحكومات بالتعليم الجامعي بانواعه المختلفة بعد ان ادركت فوائده ومزاياه، اذ انه بدون منظومة تعليم راقية ومتطورة ومدركة لابعاد التنمية، فانه لايمكن تحقيق نهضة شاملة في اي من مجالات الحياة المختلفة، لذا ازداد تدخل الحكومات حتى في البلدان المتقدمة في شؤون الجامعات الى الحد الذي عده البعض انتهاكا لاستقلالية الجامعة المتعارف عليها سنين طوال، وانتقاصاً للحريات الاكاديمية، تتناول هذه الدراسة بحث مفاهيم مفردات الحياة الجامعية واستقلالية الجامعة وعلاقاتها بالمجتمع وحدود كل منها.

المقدمة:

تواجه الجامعات في الوقت الحاضر ضغوطا شتى من جهات كثيرة ولاسباب متعددة، لعل أبرزها محاولات الأحزاب والتجمعات السياسية والدينية وما بات يعرف بمنظمات المجتمع المدني، التدخل في شوؤنها والتأثير في قرارتها ومحاولة تسييرها على وفق أهواءها وبما يخدم أغراضها وتوجهاتها تحت ذرائع ومسميات شتى تارة بدعاوى الإصلاح وتارة معالجة أخطاء سابقة وهي تسعى لفرض إدارات معينة لتحقيق أغراضها بصرف النظر عن مؤهلات وقدرات هذه الإدارات، إنما الشيء المهم ولاءها لهذه الجهة أو تلك واستعدادها لمسايرة توجهاتها. وهو أمر يتطلّب أن تعيه قيادات التعليم الجامعي وتعالجه بموضوعية وشفافية عالية وبما يخدم أهداف التعليم العالي التي هي بالأساس أهداف عموم المجتمع وتحقيق نهضته ورقيه بوتائر تقدم عالية.

كما يواجه التعليم الجامعي ضغطاً شديداً بسبب زيادة تكاليف التعليم العالي من جهة وقلّة تخصيصاته المالية من جهة أخرى، وهو أمر يتطلّب إيجاد منافذ تمويلية مساندة للتخصيص المالي الحكومي، وإعتماد أساليب تعليمية جديدة بالإفادة من تقانات المعلومات والإتصالات التي إعتمدتها دول كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها. وكذلك التفكير الجدي بإستحداث جامعات خاصة أو أهلية لا تتحمل الدولة أي من نفقاتها، وعلى أن تخضع هذه الجامعات لمعايير التعليم العالي في بلادنا، وبما لا يتعارض مع قيم أمتنا وثوابتها الأخلاقية والدينية بأية حال من الأحوال.

ولكي ينهض التعليم العالي في بلادنا الى مصاف مثيلاته في الدول المتقدمة لابد أن تشهد الجامعات والمؤسسات التعليمية المزيد من أجواء الحريات الأكاديمية ، وإعتماد أساليب الحوار الديمقراطي المثمر والبناء وتفعيل صيغ العمل المؤسسي الجامعي في جميع مفاصل العملية التعليمية والتربوية والأكاديمية بعيداً عن أية مداخلات أو تأثيرات خارجية، وإنتقاء الإدارات الجامعية على وفق معايير واضحة ومحددة، أساسها الكفاية والمقدرة والتمييز العلمي والنزاهة والقدرة على إتخاذ القرارات، لا سيما في الظروف الصعبة والمعقدة التي تمر بها بلادنا في الظروف الراهنة التي بات يختلط فيها الشأن الخاص بالشأن العام، ويزداد الحديث عن الفساد الإداري في جميع مفاصل الحياة دون أن يحرك أحد ساكناً على الرغم من إستحداث مؤسسات التفتيش في كل وزارة ومؤسسة النزاهة العامة المستقلة عن المؤسسات الحكومية، هذا فضلا عن ديوان الرقابة المالية الذي أسس منذ سنين طوال، ولا عجب في ذلك طالما أن بلادنا تشهد حالة أمنية غير مستقرة.

لذا فإن الحفاظ على المؤسسات التعليمية وفي مقدمتها الجامعات تصبح مسألة خطيرة وفي غاية الأهمية، ينبغي أن تتضافر الجهود الخيرة لحمايتها من كل مفسد وعابث، إذ أن إنهيارها لا سامح الله، إنما يعني انهيار القيم والمبادئ الإنسانية والحضارية في بلادنا التي نأمل إزدهاراها وتقدمها في كل الظروف والأحوال، ذلك إن بلادنا بلاد علم وأدب وحضارة إنسانية راقية قدمت للإنسانية الكثير من العلوم والمعارف وستبقى كذلك بعون الله متجاوزة كل المحن والصعاب.

فالعراق كما هو معروف مهد الحضارة الإنسانية، وإليه يعود الفضل في إختراع الكتابة في مدينة الوركاء السومرية، وما تلاها من

إنجازات علمية رائعة في شتى المجالات وعلى مدى الحضارات العراقية القديمة في بابل سومر وأكد وبابل وآشور، وما أعقبتها من حضارات عربية وإسلامية راقية في بلادنا ما زالت آثارها شاخصة حتى يومنا هذا.

البيئة الجامعية:

تختلف البيئة الجامعية عن أية بيئة عمل أخرى بأمور كثيرة منها: أن البيئة الجامعية تتطلب قدراً عالياً من الهدوء كي ينصرف العلماء والباحثون الى التفكير والتأمل بصفاء ذهن متقد لا تشغله الهواجس والهموم، كما تتطلب البيئة الجامعية أن تسودها روح التسامح والمودّة والرحمة بين جميع أفرادها، فالأستاذ الجامعي عالم ومربّ لابد أن يرعى طلبته ومن في معيته رعاية إنسانية خاصة وأن يغرس في نفوسهم الأخلاق السامية وحب العمل والإخلاص للوطن وبناء قدراتهم العلمية، وإكتشاف الموهوبين والمبدعين منهم ورعايتهم وإعدادهم قادة علميين للمستقبل.

وتتطلب البيئة الجامعية أن تسودها لغة الحوار العلمي البنّاء بعيداً عن أي تعصّب أو مغالاة، وأن يكون دافع العمل العلمي حب المعرفة وسبر أغوارها لإكتشاف أسرارها وتوظيف معطيات العلم لخدمة مجتمعاتها بتحويل المعرفة العلمية الى تقانات تشارك بتصنيع منتجات نافعة.

وينبغي أن لا تكون البيئة الجامعية مسرحاً للصراعات السياسية أو الإجتهادات الدينية أو الاختلافات العرقية، وإنما يجب أن تكون حرماً آمنا لجميع أفرادها ينعمون فيه بالحرية والأمان بروح من المحبة والتآخي، مع حفاظ كل منهم على خصوصياته ومعتقداته.

وبذلك تزدهر البيئة الجامعية إزدهاراً حقيقياً وتتفجر فيها جميع الطاقات الجامعية المبدعة والخلاّقة لصالح مجتمعاتها، وتكون الجامعة بحق مصدر خلق المعرفة وإنمائها وإثرائها ونشرها في مجتمعاتها لخدمة أهدافها في التنمية. فالجامعات كما هو معروف باتت تمثل اليوم أهم أدوات التغيير الإجتماعي والإقتصادي في جميع بلدان العالم، إذ أن الشعوب المتعلّمة أقدر من سواها بالتصدّي لحل مشكلاتها ومعضلاتها الإقتصادية والإجتماعية وغيرها، اذ دلت الوقائع والتجارب المختلفة أن الدول التي حققت نمواً إقتصادياً عالياً، إنما يعود الفضل في ذلك بالدرجة الأساس الى جودة نظمها التعليمية ورقي مؤسساتها الجامعية وإعتمادها العلم منهجاً وحيداً في التفكير والحوار. لذا بات لزاماً على جميع المعنيين بشؤون التعليم العالي وصناع القرار العمل بجد على خلق البيئة الجامعية السليمة و الخالية من اية شوائب.

إستقلالية الجامعة:

يثار في الوسط الجامعي بين الحين والاخر موضوع استقلال الجامعة، وكأن المقصود بذلك انفصال الجامعة عن محيطها الاجتماعي او فصم ارتباطها بالدولة الممول الرئيس لها، ان لم يكن الممول الوحيد لانشطتها وبرامجها التعليمية والبحثية في معظم الاقطار العربية، وهي المستفيدة من نتاجها بصورة ملاكات علمية مؤهلة للتأثير في عملية التنمية وادارة وتشغيل مؤسسات المجتمع المختلفة، او بحوث ودراسات علمية للمشاركة بحل الكثير من المعضلات التقنية والعلمية والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجهها وغيرها.

ولايختلف حال الجامعات الخاصة او الاهلية، فهي الاخرى لايمكن فصلها عن مصالح الجهات الممولة لبرامجها او انشطتها العلمية

او التعليمية، اذ انه من المعروف جيدا ان من يملك المال، انما يملك في الواقع اهم مصادر القوة والنفوذ والهيمنة في اي وسط من الاوساط جامعيا كان ام غيره. وازاء احوال كهذه، هل يمكن ان تكون الجامعة مستقلة حقا عن تأثيرمموليها الاساسيين وعن سوق العمل المستفيد من خريجيها ؟!

فماذا يقصد اذن، بأستقلال الجامعات؟. ان الجامعة مؤسسة من مؤسسات المجتمع ذات وظائف واضحة ومحددة ممثلة بأعداد الملاكات العلمية والتقنية التي يحتاجها المجتمع، واجراء البحوث العلمية بهدف اثراء المعرفة الانسانية والمشاركة بحل المعضلات التقنية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، فضلا عن خدمة المجتمع ونشر الثقافة والمعرفة.

ولكي تؤدي الجامعة وظائفها على الوجه المطلوب لابد ان تنظم عملها مجموعة قوانين وانظمة وتعليمات، وان تكون لها هياكل علمية وادارية ممثلة بالاقسام العلمية والكليات والمعاهد والهيئات ومراكز البحوث والمديريات الادراية الساندة، وتوصيف وظائف كل منها في ضوء قوانين الجامعة ونظمها الدراسية والادارية وتحديد صلاحيات مجالسها على مستوى الجامعة والكلية والقسم العلمي ومراكز البحث، وكذا الحال بالنسبة لرئيس الجامعة وعميد الكلية ورئيس القسم ومدير المركز ومدير القسم الاداري. وبذلك تتمكن الوحدات العلمية والادارية اداء هذه الوظائف بصورة واضحة ومحددة.

وبذلك لاتختلف الجامعة عن اية مؤسسة صناعية او اقتصادية او ثقافية اذ لكل منها منهجها في العمل لتحقيق اهدافها، وهي دون شك خاضعة لاجراءات الرقابة وتقويم الاداء من قبل مموليها والجهات المستفيدة من خدماتها، وفي حالة الجامعة أن الجهة الممولة عادة ما

تكون الحكومات والمؤسسات الصناعية الكبرى، والجهات المستفيدة هي المجتمع بأسره الذي يحق له مساءلة الجامعة وتقويم ادائها بالاتجاهات العامة ومدى قدرتها على تلبية حاجاته، وهو امر طبيعي تمارسه منظمات المجتمع المدني ومؤسساته المختلفة. ان المسألة هنا لاتعني التدخل بتفصيلات عمل الجامعة اليومي او مقاضاة المسوؤلين فيها امام المحاكم فيما يتعلق بعملهم الا بعد رفع الحصانة عن اي منهم بموافقة مجلس الجامعة حصرا. والذي ينبغي ان لا يحصل ذلك الا في اضيق الحدود وفي حالات الضرورة القصوى وفي حالات التلبس بجناية.

ومن ذلك يمكن القول انه اذا ما احسنت الجامعة اداءها لوظائفها ومارس المسؤولون صلاحياتهم كل من موقعه واشيع مفهوم العمل المؤسسي من خلال تفعيل تأثير المجالس المختلفة في الجامعة، فأنه يمكن ضمان عدم التدخل في شؤونها من اية جهة كانت الى ابعد الحدود، وبذلك تكون الجامعة قد صانت حرمها وامنت سير اعمالها بكل حرية وامان وابعدت عنها الشبهات بأنها برج عاجي لاتعي مشكلات مجتمعاتها ولاتلبي حاجاتها وتعيش ترفا فكريا لايمت بصلة الى واقع الحياة المعاصرة وايقاعاتها المتسارعة في التطور العلمي في شتى المجالات.

فجامعات اليوم هي غير جامعات الامس، اذ اضحت جميع وظائفها شأناً عاماً وهما من هموم المجتمع، اذ لايمكن اعداد الملاكات العلمية بمعزل عن سوق العمل وفهم الياته ومعرفة احتياجاته، والا تكون الجامعة تشارك بتخريج ملاكات لايمكن الافادة من مؤهلاتها، الامر الذي يعني هدراً في المال العام من جهة، وتعطيل حركة تقدم المجتمع من جهة اخرى، فضلا عن تفاقم ما بات يعرف ببطالة

الخريجين في الكثير من المجتمعات اذ تصل نسبة هذه البطالة الى اكثر من ٤٠% من مجموع الخريجيين في الكثير من الاقطار العربية، فضلا بالبطالة المقنعة اي توظيف ملاكات علمية بدون عمل حقيقي.

ومن هنا اصبح لزاماً التنسيق بين الجامعات وحقل العمل لتأمين تخريج ملاكات علمية يمكن الافادة منها في سوق العمل، ويتطلب ذلك التشاور المستمر بين الملاكات التدريسية الجامعية والمسؤولين في المؤسسات المختلفة في مجالات اعداد المناهج الدراسية واساليب التدريس والتدريب والتاهيل اثناء الدراسة وبعدها وتحديد اتجاهات سوق العمل وتوصيف حاجات الوظائف المختلفة.

وفي مجال البحوث دعت الحاجة الى اقامة شراكة حقيقية بين الجامعات وحقل العمل تمثلت بتبني مشاريع الحاضنات التقنية ومشاريع المدن العلمية واقامة الشركات العلمية التي تعتمد التقانات المتقدمة[١]، اذ لم يعد جائزاً اجراء البحوث لمجرد الرغبة بسبر غور الحقيقة واثراء المعرفة الانسانية، على ما لذلك من اهمية بالغة، اذ اصبحت البحوث مشاريع جامعية لايمكن تنفيذها بمجرد الاعتماد على جدواها العلمية فقط، بل بات ضرورياً التاكد من جدواها الاقتصادية في جهود التنمية لاي بلد من البلدان، والجامعة اليوم مصدر المعرفة العلمية، والمعرفة العلمية باتت تمثل الركيزة الاساسية لاي تقدم اقتصادي في اي بلد من البلدان، وهذه المعرفة لايمكن اكتسابها وانمائها الا بمنظومة تعليمية شاملة وراقية بدءاً برياض الاطفال وانتهاء بالجامعات لذا اصبح التفاعل بين الجامعات ومؤسسات المجتمع المختلفة امراً ملحاً وضرورياً ويعود بالمنفعة على جميع الاطـــراف[٢]، ولايمثل تدخلاً في شؤون الجامعة ولايحد من حريتها في تصريف شؤونـها.

وربما يتصور البعض ان الجامعة على وفق هذا المنظور قد تحولت الى مجرد مصنع للملاكات العلمية التي يحتاجها المجتمع، وان هذه الملاكات اصبحت مجرد سلعة تخضع لقوانين السوق في العرض والطلب شأنها بذلك شأن اية سلعة اخرى. وبذلك تكون الجامعة قد فقدت جزءاً من هالتها وهيبتها العلمية التي توارثتها خلال السنين في اطار فهم ضيق لوظيفة الجامعة التي يراها البعض تنحصر بأنماء المعرفة ونشرها بصرف النظر عن الافادة منها من عدمها، اذ يترك امر ذلك للخريجيين انفسهم ولمؤسسات المجتمع.

من ذلك نخلص الى ان الجامعة مؤسسة من مؤسسات المجتمع لايمكن فصلها عن المجتمع باي حال من الاحوال، وانما العكس هو الصحيح اذ يجب ان تندمج الجامعة اكثر فاكثر مع مجتمعاتها المحلية والوطنية وتتفاعل مع بيئتها تفاعلاً مبدعاً وخلاقاً، وان تعي حاجات بلدانها بكل وضوح ودقة، وان تسعى بكل الوسائل لتستجيب لتلبية هذه الحاجات بكفاية عالية، واذا كان هذا هو حال الجامعة المعاصرة، فلماذا، اذن، يستمر الحديث عن استقلال الجامعة، وعن اي استقلال يقصدون بهذا الحديث.

ان المقصود باستقلال الجامعة كما نرى هو ابعاد الجامعة عن تاثير الاحزاب السياسية والجماعات الدينية المختلفة واصحاب المصالح الفئوية الضيقة، اي ان لا تكون الجامعات ميداناً للصراعات السياسية او الصراعات الدينية او الصراعات العرقية، او اقحام الجامعات في امور لاعلاقة لها بها وان لاتنعكس هذه الصراعات في سياسة الجامعة في مفردات عملها في مجالات المناهج الدراسية وقبول الطلبة وسبل اعدادهم، او في مجالات البحث، فالجامعة هي لعموم المجتمع وخدمة

جميع افراده، وهي تسعى الى اكتشاف الحقائق العلمية والافادة منها لخدمة مجتمعاتها.

وهنا لابد من التمييز بين الجامعة كمؤسسة ينبغي عليها ان لاتخوض في الصراعات المختلفة، وحق منتسبيها من الطلبة واعضاء الهيئة التدريسية والموظفين باعتناق مايشاؤون من مبادىء وافكار سياسية او دينية او غيرها بشرط عدم المساس او مصادرة حرية الاخرين او الحاق الاذى باي منهم بسبب اختلافهم في معتقداتهم، ذلك ان الجامعة انما هي حرم آمن تتفتح فيه جميع الافكار والمعتقدات بكل حرية وامان، كما ان ذلك لايمنع من انتماء منتسبي الجامعة الى الاحزاب والمنظمات

والجمعيات المختلفة بشرط عدم زج جامعاتهم او توظيفها لخدمة مصالح تلك الاحزاب والمنظمات من خلال مواقعهم الوظيفية في الجامعة.

وعلى الجامعة مقاومة كل الاغراءات التي تقدم لها او الضغوط التي قد تتعرض اليها لحرفها عن مسارها العلمي السليم من اية جهة كانت وتحت اي تبرير او لاي سبب من الاسباب، والتي غالباً ما تتستر باقنعة براقة من العلمية والموضوعية لادخال مشاريعها الى الوسط الجامعي.

وبذلك تضمن الجامعة حرية عملها واستقلالها الاكاديمي وحسن ادائها لمهامها العلمية والتربوية على وفق قوانينها وانظمتها بعيداً عن اية تاثيرات خارجية غير موضوعية وذات دوافع لا صلة لها بوظائف الجامعة.

وخلاصة القول ان الجامعة ميدان حر للتفكير العلمي دون اية قيود في جميع التخصصات علمية كانت أم انسانية وفي جميع الاتجاهات وبما يتوافق مع الحقائق العلمية باعتماد اساليب البحث العلمي وطرائقه ومناهجه، والجامعة بما تزخر به من طاقات علمية خلاقة، وبيئة علمية متفتحة، انما تمثل المكان الصحيح لتلاقح الافكار وحوار الثقافات الانسانية المختلفة من منظور حوار الحضارات وانماء الفكر الانساني الذي يمثل جهود اممية مشتركة، بعيداً عن المغالاة والتعصب، وبروح بناءة وبشفافية عالية، وبما يعود بالمنفعة على جميع بني البشر دون تمييز بسبب اللون او العرق او الجنس او المعتقدات، اذ ينبغي ان يكون العلم حقاً مشاعاً لعموم الناس، وان توظف معطياته ونتائج بحوثه العلمية لمصلحة الجنس البشري حاضراً ومستقبلاً، ولابد ان تسعى الجامعة الى احياء تراث امتها الحضاري وبعث ثقافتها من منظور عصري، وان تسعى الى الحفاظ على هويتها الوطنية كي تاخذ امتها دورها اللائق بين امم وشعوب العالم، اي ان تكون امة منتجة للعلم والثقافة والتقانة، لا ان تعيش على هامش نتاج الامم الاخر.

الحرية الأكاديمية:

يتداول الجامعيون بأستمرار مصطلح الحرية الاكاديمية في اروقة الجامعة وخارجها. وهم يقصدون بذلك ان لا تتدخل الاحزاب السياسية والمؤسسات الدينية وسواها في الشؤون الجامعية ومحاولة تسييرها على وفق اهوائها ورغباتها وتوجهاتها السياسية بصرف النظر عن ماهية هذه التوجهات وطبيعتها ومدى صوابها او خطأها، وانما يعطى للجامعة الحرية الكاملة في تصريف شؤونها العلمية والاكاديمية والتربوية من خلال مؤسساتها المختلفة وبما يتوافق مع قوانينها

ونظمها التعليمية والدراسية وينسجم مع القيم والاعراف الجامعية المتعارف عليها قطريا وعالميا والاخذ بنظر الاعتبار الموروث الحضاري والانساني للامة والانفتاح على حضارات وثقافات الامم الاخر من منطلق حوار الحضارات بعيداً عن المغالاة والتعصب.

وبذلك تكون الجامعات منابر حرة مفتوحة للفكر العلمي والانساني بجوانبه المختلفة دون خوف او وجل، وان تبحث بكل حرية وامان في العلوم المختلفة، وان تسعى لتوظيفها بما يعود بالفائدة على مجتمعاتها، وخلق الاجواء العلمية التي تتفجر فيها الطاقات ويتجلى فيها الابداع بارقى صوره، ذلك ان الجامعات احدى اهم مصادر الخلق والابداع في عامنا المعاصر.

ولكي تتمتع الجامعة بحريتها الاكاديمية، فانه في المقابل يتوقع منها ان تؤدي وظائفها بصورة صحيحة وبما يعود بالنفع على مجتماتيا وان تمد جسور التعاون مع مؤسسات المجتمع المختلفة لبلورة فهم واضح ومشترك لمفهوم الحريات الاكاديمية كي لايكون ذلك ساتراً لتغطية اخفاقات الادارات الجامعية او تبديد ثراوتها في مشاريع علمية فاشلة، او سبباً لمنع مساءلتها في هذه القضية او تلك، اي ان لا يترك الحبل على الغارب كما يقال شعبياً، اي باختصار ان تكون الحريات الاكاديمية حريات موضوعية وعلمية مسؤولة ومدركة لطبيعة العمل الجامعي وابعادها وانعكاساتها على المجتمع باسره.

ولكي تزدهر الحريات الاكاديمية لابد ان تزدهر البيئة الجامعية اولاً وان يؤدي الجامعيون وظائفهم على افضل وجه، وبذلك تضمن الجامعة مساندة فئات المجتمع المختلفة ومؤسساته لمطالبها بتعزيز حصانتها العلمية، اذ تسعى جهات كثيرة للتدخل في شؤون الجامعة

بدعاوى شتى والتي قد يؤدي البعض منها الى وأد الحريات الاكاديمية. وقد اخذت بعض الاصوات ترتفع عالياً في الدول الصناعية الكبرى مطالبة الجامعات توضيح سياستها العلمية ومدى نجاح برامجها العلمية وبيان فاعليتها بالتصدي لحل مشكلات المجتمع والمشاركة بتطوره وتقدمه.

وتواجه الجامعات تحديات جسيمة في عالم سريع التغيير والتطور تهدد الكثير من القيم الجامعية المتوارثة خلال سنين طوال، فهي من جهة تسعى الى الاحتفاظ بهذه القيم وصيانة حرية عملها وضمان استقلاليتها باكبر قدر ممكن، ومن جهة اخرى هي بامس الحاجة الى اسناد المجتمع وتفهمه لمهام الجامعة ووظائفها والعمل على توفير مستلزماتها التي بدونها يصعب عمل الجامعة كثيراً. فهي مهمة مزدوجة لا بل انها تبدو متناقضة، احياناً بين طلب الاستقلالية من جهة وطلب الاسناد بدون شروط من جهة اخرى.

فالبحوث العلمية الممولة من جهات معينة لايمكن اجراؤها الا وفق شروط تلك الجهات الممولة وبصيغـــة عقود في معظم الاحيان، وهو امر يتناقض حتماً مع حرية الجامعة باجراء البحوث على وفق رغباتها في الاتجاهات التي تراها مناسبة. وفي ضوء تزايد نفقات التعليم الجامعي وتزايد تكلفة البحوث العلمية، فان الجامعة ترى نفسها مضطرة لاجراء البحوث الممولة طبقاً لرغبات وحاجات مموليها، وباتت هذه البحوث تشكل نسبة عالية من حجم البحوث المنجزة في الجامعات المتقدمة، مما يعني فقدان الجامعة جزءاً كبيراً من استقلاليتها قياساً لما كان عليه حالها في العقود السابقة.

ولم تعد الجامعة برجاً عاجياً ينصرف فيه العلماء لانجاز بحوثهم على وفق اهواءهم ورغباتهم دون اية مداخلة من اي جهة كانت، كما كان حال العلماء في العصور المختلفة في الصين واليونان والهند وبلاد الرافدين ووادي النيل واوربا والبلاد العربية والاسلامية.

ولعل من المفيد أن نشيرعلى سبيل المثال ما تعرضت أليه جامعة ستانفورد الأمريكية من تحقيقات قام بها مجلس الشيوخ الأمريكي بشأن سوء استعمال المال العام في الجامعة بشراء اثاث ومواد ترفيهية وأعمال صيانة مختلفة، وجميعها تبدو امورا اعتيادية بسيطة في مقر رئاسة الجامعة، وقد تناولتها وسائل الأعلام بصورة واسعة ملحقة اضرارا جسيمة بسمعة الجامعة وقد تبين أن بعضها كان بسبب سوء تنفيذ التعليمات او سوء فهمها بصورة صحيحة، وأن البعض الاخر منها كان مبالغا فيه من وسائل الأعلام بهدف الأثارة. وتؤشر هذه الحالة رغم بساطتها مقدار التدخل في شؤون جامعة رصينة في أكثر دول العالم تقدماً، وهو دون شك يمثل خرقاً لما يعرف بإستقلالية الجامعة.

إن إستقلالية الجامعة مصانة بحدود قوانين المجتمع الذي يمول أنشطتها وفعالياتها، إذا كان هذا حال جامعة رصينة في بلد متقدّم، فكيف يكون الحال في جامعات بلدان ما يعرف بالعالم الثالث أو عالم الجنوب كما يعرف الآن الذي يسود الكثير من بلدانه فساد إداري ومالي يكاد يكون مزمناً، كما انها تفتقر الى أبسط مقومات الحرية والحقوق الإنسانية، وتحكم شعوبها نظم شمولية مستبدة لا تقيم وزناً لأية معايير إنسانية تتيح لمواطنيها قدراً معقولاً من الحرية والحوار وإبداء الرأي في الشؤون العامة أو الخاصة.

وفي أحوال كهذه، يبرز التساؤل المشروع، هل أن بالإمكان حقاً أن تمارس الجامعة قدراً معقولاً من الإستقلالية بتصريف شؤونها العلمية والأكاديمية، وأن تمارس فيها الحريات الأكاديمية في الوقت الذي تنتهك فيه أبسط حقوق الإنسان في مجتمعاتها، فضلاً عن جواسيسها ورجال أمنها ومخابراتها في جميع مرافق الجامعة.

والجامعة جزء من مجتمعها وإن كانت طليعة من طلائعه وفصيل علمي وثقافي وحضاري متقدم من فصائله، إلاّ أنها تتأثر حتماً بما يتعرّض إليه مجتمعها من إستبداد وإنتهاك للحقوق والحريات شأنها بذلك شأن المؤسسات العلمية والثقافية الاخر، وربما بدرجة أكبر من سواها لما لها من تأثير هام وتأثير بالغ في مجتمعاتها بوصفها مركز إشعاع علمي وحضاري لا حدود له.

بناء القيم الجامعية:

لكي تتمكن الجامعات من أداء وظائفها العلمية والتربوية وبما يعود بالمنفعة على مجتمعاتها ويعمق العلاقات الإيجابية بينها ومجتمعاتها، ويؤمن مساندتها وتأمين إحتياجاتها للإرتقاء بوظائفها، لابد أن تحدد كل جامعة أهدافها ووظائفها بكل دقة ووضوح وأن تكون لها رسالة جامعية، وليس مجرد مؤسسة تعليمية لتخريج الطلبة ودفعهم الى سوق العمل حسب، أي أن تبلور فلسفتها الخاصة بقضايا العلم والتقانة بمناهجها الواسعة في إطار حركة تطورها في أقطار العالم المختلفة، وأن لا تكون مجرد آلة ناسخة لتلك التجارب، وأن تسعى لتفهم حاجات بلدانها بحسب مراحل تطورها، اخذة بالإعتبار خصوصيات بلدانها، والحفاظ على هويتها الوطنية ، وأن تندمج مع مجتمعاتها إندماجا تاما دون أن يفقدها ذلك إستقلالها وحريتها الأكاديمية .

ولتحقيق هذا الغرض لابد أن تسعى الجامعة الى بناء قيم سليمة بأتخاذ إجراءات كثيرة منها:

١ـ ترسيخ القيم والأعراف الجامعية واخلاق المهنة الجامعية في مفاصل الحياة الجامعية العلمية والإدارية.

٢ـ إشاعة مفاهيم النزاهة والأمانة العلمية في جميع مفردات العمل الجامعي.

٣ـ إعتماد مبدأ التدرج العلمي والوظيفي في إشغال المواقع العلمية والإدارية ولاسيما المواقع القيادية.

٤ـ إعتماد معايير الكفاية والتمييز العلمي في إشغال المواقع الجامعية القيادية.

٥ـ توسيع المشاركة الجامعية الواسعة في مناقشة جميع القضايا الجامعية وعدم حصرها بفئات محددة لأي سبب من الأسباب ويفضل عقد مؤتمر سنوي مرة واحدة في الأقل لتقويم مسيرة الجامعة، يدعى إليه كل من له صلة بالجامعة من حقل العمل.

٦ـ تحديد مدد زمنية لأشغال المواقع القيادية الجامعية ولا يسمح بتمديدها إطلاقاً.

٧ـ تأمين الحريات الأكاديمية في الوسط الجامعي وعدم السماح بمسها تحت أي ظرف كان ولأي سبب من الأسباب.

٨ـ الجامعة حرم آمن ينبغي أن لا تسوده أية مظاهر مسلّحة تحت أي مسمى، وأن يكون بعيداً عن مظاهر العنف.

٩ـ إعتماد مبدأ الحوار العلمي وسياسة الباب المفتوح لسماع جميع الاراء والمقترحات لتطوير العمل الجامعي.

١٠ـ سيادة مبدأ القانون ولاشيء سواه في حل جميع القضايا الجامعية في جميع الاحوال .

١١ـ عدم فسح المجال لاية مداخلات خارجية في الشؤون الجامعية.

١٢ـ بناء تقاليد رصينة تكون قوتها بمستوى قوة القوانين في تصريف شؤون الجامعة .

الخاتمة:

الجامعة مؤسسة من مؤسسات المجتمع، وهي بذلك تتأثر سلباً أو ايجاباً بحسب تطور المجتمع ورقيه وتطوره وإنفتاحه فكرياً وثقافياً وحضارياً. ففي البلدان التي تعتمد نظم سياسية إستبدادية، يكون هامش الحرية المتاحة للجامعات ضيقاً ومحدوداً، وليس أمام الجامعة الاّ السير في فلك النظام السياسي السائد طبقاً لعقيدته السياسية ويكون النظام الجامعي في هذه الحالة نظاماً تعليمياً مغلقاً، تخنق فيه الحريات الى أبعد مدى، ويخضع بإستمرار الى إجراءات المراقبة والإشراف للتأكد من إنسجامه مع إتجاهات وتوجهات النظام الحاكم. أما في النظم التي تعتمد التعددية السياسية وأساليب الحياة الديمقراطية، فإن الحال يختلف تماماً إذ تتمتع الجامعات بحرية عمل واسعة في تسيير أمورها العلمية والتربوية وبما يتوافق مع نهج مجتمعاتها بعيداً عن مفاهيم الحزبية الضيقة والمغالاة والتعصب الأعمى وتأثيرات جهات الضغط المختلفة. وبرغم أجواء الحرية هذه الاّ أن ذلك لا يعني إنفصام الجامعة عن مجتمعها وبيئتها، بل العكس من ذلك، إذ تندمج الجامعة إندماجاً تاماً بهذه المجتمعات وتعي حاجاته وإهتماماته بدقة، وتسعى لتحقيقها، لاسيما وإنها تعتمد إعتماداً أساسياً على الحكومات والمؤسسات الصناعية بتمويل برامجها.

المصادر:

١. جريو، داخل حسن.

نحو شراكة حقيقية بين الجامعات وحقل العمل

مجلة الحكمة، العدد ٣٨، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٤.

٢. جريو، داخل حسن.

التعليم العالي في عالم متغير

مجلّة المجمع العلمي، الجزء الأول، المجلّد الثاني والخمسون، بغداد، ٢٠٠٥.

٣. Donald Kennedy

Academic Duty,

.Harvard University Press, U. S. A. 1998

عروبة أَلف ليلة وليلة

الدكتور احمد مطلوب
عضو المجمع العلمي
رئيس دائرة علوم اللغة العربية

الملخص

اشتهر كتاب (ألف ليلة وليلة) في العالم الغربي قبل أن يشتهر في العالم العربي والاسلامي ودُرِسَ دراسات كثيرة ، وكان كثير من تلك الدراسات بعيدا عن واقع الكتاب ..

وقد اتضح بعد التجرد من النزعة المتطرفة المغرضة أن الكتاب عربي في أَحداثه وشخصياته الواقعية ، وأنه يمثل الحياة العربية الاسلامية خير تمثيل ولا يسلبه هذه السمة ورود بعض الأخبار الأجنبية ، أو الخيالية ، لأن ذلك معروف في سرد القصص والروايات قديما وحديثا .

(١)

تمهيد :

كتاب ((ألف ليلة وليلة)) من أشهر كتب القصص العربية القديمة ، وقد اهتم به كثيرُ من المستشرقين والباحثين العرب ، ونشروا بحوثا عنه ، وألفوا كتبا ، وأداروا عليه قِصصا ومسرحيات كما فعل توفيق الحكيم ، والدكتور طه حسين ، وعلي أحمد باكثير ، وعزيز أباظة وغيرهم ، وقد قال الدكتور طه عنه : ((هذا الكتاب الذي خلب عقول الأجيال في الشرق والغرب قرونا طِوال ، والذي نظر الشرق اليه على أنه مُتْعة ولهو وتسلية ، ونظر الغرب اليه على أنه كذلك متعة ولهو وتسلية ولكن على أنه بعد ذلك خليق أنْ يكون موضوعاً صالحا للبحث المنتج والدرس الخصب))[١] .

وقد قيل : إنَّ الكتاب مترجم عن كتاب (هَزار أفسان) ، ولعلَّ أول إشارة اليه ظهرت في القرن الرابع للهجرة ، إذ قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ـ ٣٤٦ هـ) متحدثا عن بعض الأخبار القديمة : ((وقد ذهب كثيرٌ من الناس ممن له معرفة بأخبارهم الى أنَّ هذه الأخبار موضوعة مُزخرفة مصنوعة ، نظمها مَنْ تَقرَّبَ الى الملوك برواياتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها ، وأنَّ سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية مِثل كتاب (هَزار أفسان) ، وتفسير[٢] ذلك من الفارسية العربية (ألف خرافة) . والخرافة بالفارسية يقال لها (أفسانه) والناس يُسمون هذا الكتاب (ألف ليلة وليلة) ، وهو خبر الملك وابنته

---

[١] تقديمه كتاب (ألف ليلة وليلة) للدكتورة سهير القلماوي ص (ح) .

[٢] أي ترجمة ذلك ...

وجاريتيها ، وهما (شيرزاد) و (دنيازاد) ، ومثل كتاب (فَرْزَه وسيماس) وما فيه من أَخبار ملوك الهند والوزراء ، ومثل كتاب (السندباد) وغيرها من الكتب في هذا المعنى))[٣] .

يتضح في هذا النص :

أولا : أنَّ هناك كتابا باللغة الفارسية اسمه (هَزار أفسانه) ، وقد تُرجم الى العربية .

ثانيا : أنَّ الناس في حينه سَمَّوه (أَلف ليلة وليلة)[٤] .

ثالثا : أنَّ (دنيا زاد) جارية (شهرزاد) وليست أختها كما جاء في كتاب (ألف ليلة وليلة) العربيّ .

رابعا : أنَّ المسعودي لم يذكر اسم مترجم الكتاب وزمن ترجمته .

خامسا: أنَّ المسعودي لم يُشر الى أنَةَ رآه .

وقال محمد بن إسحاق بن النديم (ـ ٣٨٥ هـ) : ((أول مَن صنَّفَ الخرافات ، وجعل لها كتبا ، وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأُوَل ، ثم أَغرق في ذلك ملوك الأشغانية ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتَّسع في أَيام ملوك الساسانية ، ونقلته العرب الى اللغة العربية ، وتناوله البلغاء والفصحاء فهذبوه ، ونمقوه ، وصنفوا في معناه ما يشبهه . فأول كتاب عُمل في هذا المعنى كتاب (هَزار أَفسان) ومعناه (أَلف خرافة) . وكان السبب في ذلك أنَ ملكا من ملوكهم كان إذا تزوج امرأة وبات

---

[٣] مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٤٠٦ .

[٤] قال السباعي بيومي في كتابه (تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي) ص ٣٣ : ((ولعله حاد عن تسميته بألف خرافة كما هي ترجمة أصله (هَزار أفسانه) جريا على عادة العرب من تسمية الخرافة باسم (الليلة) إذ كان الليل عندهم موطن الخرافات والأسمار دون النهار)) ، وربما كان هذا صحيحا .

معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لهم عقل ودراية ، يُقال لها (شهرزاد) فلما حصلت معه ابتدأت تَخرفه[٥] ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ومسألتها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أنْ أتى عليها ألف ليلة ، وهو مع ذلك يطؤها الى أنْ رُزِقت منه ولدا أظهرته ، وأوقفته على حيلتها عليه ، فاستعقلها ، ومال اليها . وكان للملك قهرمانة[٦] يقال لها (دنيا زاد) فكانت موافقة لها على ذلك .

وقد قيل : إنَّ هذا الكتاب أُلّف لـ (حمانى)[٧] ابنة (بهمن) وجاءوا فيه بخبر غير هذا .

والصحيح ـ إنْ شاء الله ـ أنَّ أول مَنْ سَمَر بالليل (الاسكندر) وكان له قوم يضحكونه ، ويخرفونه ، لا يريد بذلك اللذة وإنما يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك كتاب (هَزار أفسان) يحتوي على ألف ليلة وليلة ، وعلى دون المائتي سمر ؛ لأَنَّ السمر حُدّث به في عدة ليال ، وقد رأيته بتماحه دفعات ، وهو بالحقيقة غثٌّ باردُ الحديث))[٨].

يتضح في هذا النص :

أولا : أن ملوك الفرس ليسوا أول مَنْ سمر بالليل ، وإنما الاسكندر .

ثانيا : أَنَّ الكتاب ربما وُضع لـ (حمانى) بنت (بهمن) .

---

[٥] أي تقص له الخرافات .

[٦] القهرمانة : مدبرة البيت ، المربية .

[٧] جاء في كتاب (تاريخ الأمم والملوك) للطبري ج ١ ص ٤٠٦ ، أنَّ حمانى ملكت بعد أبيها (بهمن) وكانت تلقب بـ (شهرزاد) .

[٨] الفهرست ص ٣٦٣ .

ثالثا : أنَّ التي تزوجها الملك كانت من أولاد الملوك ، وليست ابنة وزيره كما في (ألف ليلة وليلة) العربية .

رابعا : أنَّ اسم الزوجة (شهرزاد) ولم يرد اسم الملك (شهريار) .

خامسا : أنَّ (دنيا زاد) قهرمانة الملك وليست أخت (شهرزاد)

سادسا : أنَّ كتاب (هَزَار أفسان) لم يذكر سبب قتل المرأة بعد ليلة من زواجه بها كما ذكر كتاب (ألف ليلة وليلة) العربيّ .

سابعا : أنَّ مؤلِّف كتاب (ألف ليلة وليلة) أخذ عنوان كتابه من تفسير معنى (هَزار أَفسان) أي (ألف خرافة) الذي أصبح (ألف ليلة وليلة) والى ذلك أشار بقوله : ((فمن تلك العبر الحكايات التي تُسمى ((ألف ليلة وليلة)) .

ثامنا : أنَّ ابن النديم لم يذكر اسم مترجم الكتاب وزمن ترجمته .

تاسعا : أنَّ كتاب (هَزار أَفسان) الذي رآه ابن النديم غَثٌّ باردُ الحديث[٩] .

ولم يكن كتاب (ألف ليلة وليلة) العربيّ غثا باردَ الحديث ، وإنما هو كتابٌ أُلِّف لاتخاذ العبر والاطلاع على طبائع البشر ، وتقلب الأحوال ، ولو ((كتب ذلك بالإبر على آفاق البشر لكان عبرة لمن اعتبر)) . تقول الدكتورة سهير القلماوي ـ رحمها الله ـ : ((لم يُؤلَف لذاته وإنما أُلف لغاية خلقية خاصة))[١٠] . وقال الدكتور أحمد محمد

---

[٩] والى ذلك ذهب أبو حيان التوحيدي في كتابه (الامتاع والمؤانسة) ج ١ ص ٢٣) قال : ((ولفرط الحاجة الى الحديث ما وضع فيه الباطل وخلط بالمحال ، ووصل بما يعجب ويضحك ولا يؤول الى تحصيل وتحقيق (هَزار أفسان) وكل ما دخل في جنسه من ضروب الخرافات)) .

[١٠] ألف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوي ص ١٩٣ .

الشحاذ : ((لم يُكتب هذا الكتاب عبثا لمجرد التسلية ، ولكنه كتب بدافع سياسي توجيهي دفاعا عن الخلافة العباسية ، أو عن كل ما هو عربيّ إسلاميّ))[١١] إذْ فيه كلام على العروبة والإسلام ، والقيم الخلقية والاجتماعية ، والتعليمية ، والتأريخية ، وواقع المرأة ، مما تحدثت عنه الدكتورة القلماوي في كتابها (ألف ليلة وليلة) والسباعي البيومي في كتابه (تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي) والدكتور الشحاذ في كتابه (الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة)[١٢] .

وكان أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري (ـ ٣٣١ هـ) قد ابتدأ ((بتأليف كتاب اختار فيه ألف سَمَر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره ، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسنَ ما يَعْرفون ويُحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات ما حلا بنفسه ، وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك أربعمائةُ ليلة وثمانون ليلة ، كل ليلة سَمَرٌ تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه ألف سَمَر .

ورأيتُ من ذلك عدة أجزاء بخط أبي الطيب أخي الشافعي))[١٣] .

وأشار ابن النديم الى الذين كانوا يعملون الأسمار والخرافات

---

(١١) الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ص ٤٠١ .

(١٢) قال بالانثيا في كتابه (تأريخ الفكر الاندلسي) ص ٥٩٢ : إنَّ أقاصيص الليالي ((كتبت للعوام وغير المتعلمين)) ، وهذا الكلام غير دقيق .

(١٣) الفهرست ص ٣٦٣ ، وأبو الطيب هذا وراق الجهشياري (معجم الأدباء ج ١ ص ٨١) .

على ألسنة الناس والطير والبهائم ، ومنهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، وعلي بن داود كاتب زُبيدة . وذكر أسماءَ الفرس ، وأسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار والأحاديث ، وأسماء كتب الروم في الأسمار والتأريخ والخرافات[١٤] .

(٢)

هذا ما كان من أمر كتاب (هَزار أفسان) في القديم ، وهو ما دعا الباحثين الى أنْ يذهبوا الى أنَّ أصل كتاب (ألف ليلة وليلة) فارسيّ ، وقد فصّلت الدكتورة سهير القلماوي ـ رحمها الله ـ في هذه المسألة ، وذكرت المستشرقين الذين اهتموا بالكتاب ، وكان (انطوان جالان) الفرنسي قد أشار في ترجمة الليالي الى أنّ أصل القصص هنديّ ، ونشر فون هامر سنة ١٨٢٧م نَصَّ المسعودي ، وفيه أنّ الكتاب مُترجم عن الفارسية ، وعارضَ نصَّ المسعودي دوساسي وقال : إنّ رأيَ هامر في الأصل لا يؤيده هذا الروح الاسلاميّ القويّ الذي صبغ الكتاب كله . وشكَّ ليتمان في أنْ تكون هناك ترجمة كاملة لكتاب (هَزار أفسان) ، ويُرجح أنَّ الترجمة كانت المقدمة العربية ليس غير ، وأنَّ ما أُضيف بعد هذه المقدمة ـ وإنْ يكن من أُصول غير عربية ـ فإنّه قصص عربيّ له صبغة إسلامية .

---

[١٤] الفهرست ص ٣٦٤ . وقد شك الجاحظ بهذه الرسائل وقال في (البيان والتبيين) ج ٣ ص ٢٩ : ((ونحن لا نستطيع أن نعلم أنَّ هذه الرسائل التي بأيدي الناس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولّدة ، إذ كان مثل ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأبي عبيد الله ، وعبد الحميد ، وغيلان يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير)) والى ذلك ذهب التبريزي في (شرح ديوان أبي تمام) ج ٣ ص ٣٢١ .

لقد اختلف المستشرقون في أصل كتاب (ألف ليلة وليلة) ، أمّا الباحثون العرب فقد ذهب بعضهم الى أنّ أصل الكتاب عربيّ ، ومنهم الأب الصالحاني في مقدمة طبعه الكتاب الذي هذّبه وأصلحه ، وقال الدكتور صفاء خلوصي إنّ الكتاب في أساسه عربيّ فيه آثار أمم وأديان ومذاهب مختلفة[١٥] . وقال الدكتور عفيف نايف حاطوم إنّ ((أصل كتاب ألف ليلة وليلة عربيّ ، ومؤلفه مصريّ ، وهو عربيّ الوجه واللسان))[١٦]. وقال الدكتور عبد الملك مرتاض إنّ الكتاب يَرقَى الى صف الآداب الانسانية الكبرى ، وإنّه عربيّ ((وإلاّ كيف سكتَ الفرس ، وخرس الهنود ، وتجاهل الإغريق عن كل هذه الروائع ، وتركوا العرب وحدهم ينسجون حكاياتها ، ويروون أحداثها ... فمن العسير التصديق بأنّ ألف ليلة وليلة كانت نتاجا إنسانيا اشتركت فيه كل الأمم القديمة ، وتضافرت على إبداعه مجتمعة))[١٧] . وقال : ((إن ألف ليلة وليلة ثمرة من ثمرات الحضارة العربية الاسلامية ونتاج من نتاجها))[١٨].

وقال السباعي بيومي إن قصص الكتاب الأصلية هندية وصينية وفارسية ، وإنّ ما جاء من القصص العربية دخيل على الكتاب الأصيل ، أي أنه ((يُعتبر مُترجَما الى العربية في أصله الأوّل ، كما يُعتبر من وضع العرب أنفسهم فيما زيد فيه))[١٩]. وذكر ثلاثة آراء في أصله :

(١٥) الأدب المقارن في ضوء ألف ليلة وليلة ص ٩٠ .

(١٦) كتاب ألف ليلة وليلة (طبعة صادر) ج ١ ص ٢ ــ ٣ .

(١٧) ألف ليلة وليلة ــ دراسة سيميائية لحكاية حمال بغداد ص ٦ .

(١٨) المصدر نفسه ص ٩ .

(١٩) تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي ص ٣١ ــ ٣٢ .

الأول : أنَّ الحكايات الأصلية هندية ترجمت الى الفارسية .

الثاني : أنَّ الكتاب في أصله من الاسرائيليات القديمة وضعه إسرائيلي بلغة الفرس لأحد ملوك ساسان الذين عطفوا على اليهود متأثرا في ذلك بِقصة (أستير) اليهودية التي قدمها عمها (مردخاي) الى (أحشويرس) أحد ملوك الفرس على غير علم منه بهذه الصلة لتعمل في صد وزيره (هامان) على اضطهاد اليهود ، فنجحت في ذلك وتمكنت من أنْ يَقتل الملك وزيره ، ويحل عمها بعد علمه بالصلة محله مع اعتناق اليهودية معهما .

الثالث : أنَّ الكتاب كله عربيّ أُلِّفَ بالقاهرة في آخر عهد المماليك ، ولكنه صُبغ بهذه الألوان الأربعة التي تمثلها أنواع قصصه .

وجاء في (المعجم الكبير) الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة أنَّ أصل الليالي نواة من الأقاصيص الفارسية والهندية تُسمى (هَزار أفسانه) أي (ألف خرافة) بُنيت على حكاية الملك (شهريار) و (شهرزاد) ابنة الوزير وجاريتها (دنيا زاد) وقد تُرجمت من الفهلوية الى العربية في أواخر القرن الثالث من الهجرة بعنوان (ألف ليلة) ورآها المسعودي ، وانتقدها ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة فيما بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن العاشر للهجرة طبقتان : بغدادية صغيرة تألفت في مدى القرنين الرابع والخامس ، ومصرية كبيرة تجمعت فيما بين القرنين الخامس والعاشر ، وفوق هذه الطبقات الثلاث تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص والأقاصيص ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه[٢٠] .

---

[٢٠] المعجم الكبير ج ١ ص ٤١٨ .

إِنَّ الذي يقرأ كتاب (ألف ليلة وليلة) يتبين له أَنَّ الصبغة الأساسية له عربية إِسلامية ، وإِنْ دخلت فيه حكايات كانت شائعة بين الناس من أُصول غير عربية ، وهذا أَمر طبيعي ، لأَنَّ القاصَّ قد يُوظِّفُ الأَساطيرَ والخرافاتِ والأَقاصيصَ في بناء قصصه . ولعلَّ ما يُثبت عروبة الليالي وإِسلاميتها ، الكلام على بعض الجوانب الظاهرة للعيان ، وهي :

١ ــ البيئة العربية .

٢ ــ النزعة الاسلامية .

٣ ــ الأُسلوب .

(٣)

أَوضح مُؤلِّفُ (ألف ليلة وليلة) هدفه في مطلع الكتاب ، فقال بعد أن حَمَدَ الله ، وصلى على نبيه محمد ــ صلى الله عليه وآله وصحبه ــ صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين : ((وبعد فإِنَّ سِيَر الأَولين صارت عبرة للآخرين ، لكي يرى الانسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر ، ويطالع حديث الأُمم السالفة وما جرى لها فينزجر)) .

فالليالي من تلك العبر لما فيها من الغرائب والعجائب ، وهي تبدأ بحكاية الملك (شهريار) وأخيه الملك (شاه زمان) ، ولَدَيْ ملك من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين ، وما لقيا من خيانة زوجية ، وتُطل (شهرزاد) ابنة وزير (شهريار) لتخلص بنات المسلمين من الملك الذي كلما تزوج واحدة قتلها في الصباح . وقبل أنْ تبدأ حديثها مع (شهريار) روى لها والدها الوزير قصة الحمار والثور مع صاحب الزرع ، ثم تبدأ الليلة الأُولى بالتاجر والعفريت ، ولم يحدد مكان وقوع

القصة ومكانها ، وجاء مثل ذلك في حكاية الصياد والعفريت . وتمضي الليلة الأولى والملك مشتاق الى سماع الحكايات ، وتستمر (شـهرزاد) في القصص ألفَ ليلة وليلة ، وتسلم من القتل ، وتسلم بنات جنسها من القتل ــ أيضا ــ حيث كانت ((فداءً لبنات المسلمين وسببا لخلاصهِنّ)) من بين يدي الملك (شهريار) .

لم يذكر الكتاب مكان وقوع الأحداث في كثير من الأحيان ولكنه يذكر ثلاث بيئات عربية تدور فيها معظم الأحداث ، وهي :

١ ــ العراق حيث تدور كثير من الحكايات في عـهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وولديه الأمين والمأمون ، ويطوف المؤلف في بغداد ، والبصرة ، والمِربَد ، والكوفة ، والموصل ، وبابل ، وواسط ، ويذكر أنهار دجلة ، والفرات ، والأبلّة ، ومسجد زُبيدة ، وجامع الموصل . وقد تبدأ القصة في غير العراق مثل الشام ، أو مصر ، أو بلاد الروم ، وتنتهي في بغداد ، وكانت البصرة منطلق السندباد في رحلاته ثم العودة اليها ، وفي البصرة ــ اليوم ــ جزيرة باسم (جزيرة السندباد) ، واستوحى الشاعر العربيّ سليمان العيسى منها اسم أحد دواوينه وهو (أُغنية في جزيرة السندباد) .

٢ ــ بلاد الشام وفيها وقعت بعض الأحداث ودارت وقائعها في دمشق ، وحمص ، وحماة ، والقدس ، وذُكر الجامع الأموي ، وبحيرة طبرية ، ووُصفت بادية الشام وما يلاقي المسافر فيها من أهوال .

٣ ــ مصر ، وفيها تدور بعض الأحداث ، وتُذكر القاهرة التي تُسمى أحيانا (مدينة مصر) وتذكر الليالي باب النصر ، وبين القصرين ، وباب زويلة ، وباب الشعرية ، وباب الفتوح ، والجزيرة ، والأهرام ، والاسكندرية وأسواقها :

سوق العطارين ، وسوق الصرافين ، وسوق البلقية ، وسوق الفكهانية ، وسوق العطارين ، وتذكر الليالي القليوبية وبلبيس .

هذه هي البيئات الثلاث التي وقعت فيها معظم أحداث الليالي ، قال الدكتور حاطوم : ((ودليلنا على اقتراب هذا الكتاب من أصله المصريّ ، والعراقيّ ، والسوريّ ، وورود عبارات وألفاظ دارجة في المجتمعات العربية ، وأوصاف حيَّة ، وصف المؤلِّفُ فيها مدينة القاهرة ، وبغداد ، ودمشق ، والبصرة ، والموصل ، وفي أوصافه الحيَّة دليل على كونه قد زار هذه المدنَ ، وأقام بين ظهراني أهلها ، وتمشىَّ في أسواقها ، وسَمِعَ ــ إنْ بواسطة الوَهْم أو الحقيقة ــ أصوات وكلمات أكثر شخصيات حكاياته وقصصه ونوادره التي أوردها في كتابه هذا))[٢١] .

والى جانب هذه البيئات الثلاث ذكرت الليالي أماكن أُخرى وهي اليمن ، والحجاز ، والسودان ، والمغرب ، وفاس ، ومكناس ، والأندلس ، وجزر الخالدات ، كما ذكرت أماكن غير عربية وهي الهند ، والسند ، والصين ، وسمرقند ، وأصفهان ، وخُراسان ، وبُخارى ، وجنوه ، وعمورية ، وكابل ، وكشمير ، وسرنديب .

وفي الليالي أسماء الخلفاء الراشدين : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ــ رضي الله عنهم ــ وأسماء بعض الخلفاء الأُمويين : معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، وأسماء بعض خلفاء بني العباس : المنصور : وهارون الرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمتوكل ، والمنتصر بالله ، والمعتز بالله ، والمعتضد بالله ، كما ورد اسم الحاكم بأمر الله الفاطميّ .

---

[٢١] ألف ليلة وليلة (طبعة صادر) ج ١ ص ٦ .

وفي الليالي كثير من الأسماء العربية التي ارتبطت بـــالأحداث وهي : حاتم الطائي ، والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن العباس ، وأبو ذر الغفاريّ ، وعبد العزيز بن مروان ، وموســى بــن نصــير ، والحجاج ، والنظام ، والجاحظ ، والحسن البصري ، ومعن بن زائــدة ، والفضل بن خاقان ، وجعفر البرمكي ، ويحيى بــن خــالد الــبرمكي ، وإسحاق الموصلي ، والحسن بن سهل ، وخالد القسريّ ، والخصيــب ــ صاحب مصر ــ وأبو نؤاس ، وعلي بن طــاهر ، وبشــر الحــافي ، وشقيق البلخي ، وعبد القادر الجيلاني ، وأبو بكر بن الأنباري ، وجميل بُثينة ، وكُثير عَزَّة ، والأصمعي ، وحُسين الخليع .

وذكرت من النســاء عائشــة الصديقــة ، وفاطمــة الزهــراء ــ رضي الله عنهما ــ وزُبيدة زوجة الرشيد ، وأُم المعــتز بــالله ، وأُم المعتضد بالله .

وفي هذا دلالة على أنّ الشخصيات العربية كانت محور قصص (ألف ليلة وليلة) ، أما بعض الأســماء الأجنبيــة مثــل الاســكندر ، وأردشيو ، وافريدون ، فلم يكن لها دور واضح أو كبير في الليالي .

وفي الليالي غير هذا مما يخصّ البيئات العربية ، إذ جاءت فيها صفات تخص الجنس العربيّ ، ومن ذلك وصف العيون بالسواد ، ففــي حكاية الحمال مع البنات : ((إذ وقفت عليه امرأة مُلتفة بازار موصلــيّ من حرير مزركش بالذهب ، وحاشيتاه من قصب ، فرفعت قناعها فبــان من تحته عيون سوداء بأهداب وأجفــان ناعمــة الأطــراف ، كاملــة الأوصاف)) (ل ٩) . و ((زوجي الخفيف الروح ، صاحب العيــون السود ، والحواجب المقرونة)) (ل ٢٢) .

وفي الليالي ذكر للفواكه المعروفة في البيئة العربية مثل : التفاح للشاميّ ، والسفرجل العثمانيّ ، والخوخ العمانيّ ، وأبي فروة الدمشقيّ ،

والخيار النيليّ ، والليمون المصريّ ، وفيها ذكر للحلويات العربية ، كالكنافة ، والزلابية ، والبقلاوة (ل ٩) .

وفيها إشارة الى الدف الموصليّ ، والعود العراقي ، وعود إسحاق الموصليّ (ل ٥٠) ، وذكرٌ للخطوط العربية بأقلام الرقاع ، والثلث ، والمشق (ل ١٤) ، وللقماش البغداديّ والموصليّ والقباطي المصريّ (ل ٢٦ ، ٢٠٨) وفيها أسماء الشهور العربية كلها (ل ٢١٩) .

(٤)

لقد وقعت معظم أحداث (ألف ليلة وليلة) في الوطن العربيّ ، وهو بيئة إسلامية ، لذلك جاءت الليالي معبرة عن روح الاسلام ، وهذا يؤكد ابتعاد الليالي العربية عن (هَزار أفسان) .

وأول ما يبدو في الليالي كثرة استعمال البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)) : ((وبعد ذلك نزل البحر وقال : باسم الله)) ، ثم أنّه سمّى الله ورمى الشبكة)) (ل ٣) ، وكتب ((بسم الله الرحمن الرحيم)) (ل ٩٢٤) .

وذكرت الليالي بعض أركان الإسلام ، وأولها الشهادة : ((لا إله إلاّ الله)) (ل ٣) و ((أشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنّ محمدا رسول الله ـ ﷺ ـ)) (ل ٨ ، ١٨ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٩٨ ، ٨٨٢) ، ((ثم نطق بالشهادتين ، وشهق شهقة)) (ل ٤٧) .

وترددت الحوقلة في المواقف الصعبة والملمات : ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإنا لله وإنا اليه راجعون)) (ل ٨ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٤٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥، ٢٧١ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٣٢١ ، ٣٥٤ ، ٤٦٦ ، ٧٢٤ ، ٧٨٩) .

وذكرت عبارة التسبيح : ((سبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إِلَه إلا الله ، والله أكبرُ ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العليّ العظيـم)) (ل ٢٧١) وأسماء الله ((أخرج من إِصبعه خاتما منقوشا عليه أَسماءٌ من أسماءِ الله تعالى)) (ل ٦٩٨) .

وكان الكلام على الصلاة يتردد في مناسبات كثـــيرة ، ومنـــها صلاة الجمعة (ل ٣٣) ، ((أدركنا وقـــت الصـــلاة ، وجـاء وقـت الخطبة)) (ل ٣٥) ، ((وإذا بامرأة مُقْبِلَة الـــى صـــلاة الجمعـــة)) (ل ٤٢) .

وصلاة الصبـــح ((فإنّـــا نصلـــي الصبـــح ونتوجـــه الـــى بغـــداد)) (ل ٥١ ، ١٩١) ، والصلاة على الميت (ل ٥٢) ، وصلاة المغــرب والعِشاء (ل ٢٠٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢) .

ويأتي الأذان داعيا الى الصلاة (ل ١٤) ، وركن الحج مُؤْذِنـــا بالتهيؤ للسفر الى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج (ل ٩) والطواف حَوَل الكعبة المشرفة (ل ٤٥٨) ، والتهليل والتكبير عنـــد الطـــواف ، وإبداء الفرح عند النجاة من المصائب : ((رأيتُ جزائرَ السلامة ففرحتُ فرحاً عظيما ، ومن شدة فرحي ذكرتُ الله ، وَهَلَّلْتُ وكَبَّرْتُ)) (ل١٦)

وكان من حسن إيمان المسلم تعلـم مســائل الديــن الاســلامي ((من الطهارة ، وفرائض الوضـــوء ، والصــلاة ، وحفــظ القــرآن الكريم)) (ل ١٧) .

وكتبَ اللهُ الجهادَ ، ومن قُتِلَ فيه عُدَّ شهيدا ((إن والدي قُتِلَ فـي الجهادِ)) (ل ٨) ، وعُدَّ الغريق شهيدا)) ((فأمَّا الشاب فانه كـــان لا يُحسن العومَ فغرق ، وكتبه اللهُ من الشهداء)) (ل ١٨) .

والدعاء مُستَحَبٌ في الإِسلام : ((فرفع الملكُ رأسه الى الســماء وقال : يا مَنْ يُجيبُ دعوةَ المضطر إذا دعـــاه ، ويكشـف الســوء ،

انْصُرْني على عدوي ، واصْرِفه عني ، إنك على مـا تشـاء قديـر))
(ل ٥) .

والتوسل بآل النبي محمد ــ ﷺ ــ يفرج الكروب (ل ٨) :

صَبْرا لحكمك يا إلهُ وللقضـا أنا صابرٌ إنْ كان فيه لك الرضَى
قد ضِقْتُ بالأمْرِ الذي قد نالني فوسيلتـي آلُ النبـيِّ المرتضى

وفي الليالي كلام على الزواج بأربع نساء ((وكان والده عمـر النعمان له أربع نساء بالكتاب والسُّنَّة)) (ل ٦٠) ، ويتَّصل بـالزواج العقد والمهر (ل ٢٠ ، ٢٧) وكـان شـيخ الاسلام يحضـر العقـد (ل ٦٣٢) وبعده توزع الشربات (ل ٩٧٣) ، ولا بدَّ مـن حضـور الشهود (ل ٦٠) .

وقد ذكرت الليالي (المُحَلِّلَ) الذي يلجأ اليه النـاس لاسـتعادة المطلقة ، قال الله ــ تعالى ــ : ((فانْ طلقها . فلا تحِلُّ له من بعدُ حتى تنكحَ زَوْجا غيرَه)) (البقرة ٢٣٠) : ((فساق عليَّ جميع الناس أنـي أردها له ، فقلتُ له : هذا لا يصح إلاَّ بالمحلِّل . واتفقت معه علـى أنْ نجعل المحلِّلَ له واحدا غريبا لا يُعايره بهذا الأمر)) (ل ٢٩٣) .

وذكرت الليالي القضاة الأربعة ، وكان حضورهم معا ضروريا في القضايا المهمة كولاية العهد ، أو التنازل عـن الحكـم ، أو عتـق جارية ، أو امتحانها ، وقد يُدعى القاضي لتقديم مشورة أو إِبـداء رأي أوحلّ مشكلة (ل ١٨ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٧٦ ، ٣٣٥) .

وفي الليالي كثير من الآيات القرآنية ، وإشارات الى عدد سـور كتاب الله العزيز ، وآياته ، ومكية ومدنية (ل ٤٣٧) ، والتلاوة مـن صفات المسلم المؤمن ، ولا سيما التلاوة بصوت رخيم يـهزّ النفـس ، ويبدد القلق : ((قرأتُ شيئا من القرآن ، وأردتُ النـومَ فلـم أستطع

ولحقني القلق ، فلما انتَصف الليل سَمْعتُ تلاوةَ القرآن بصوت حسن رقيق)) (ل ١٧) .

وفي الكتاب إشارة الى القراءات السبع ، والعشر ، والأربع عشرة (ل ١٣ ، ٤٣٠) ، وكانت قراءة سورة (يس) تُزيل الهم وتفرج الكرب (ل ٢٩٣) ، وكان الناس يُقيمون الختمة ، ويقرؤونها على القبور (ل ٢٨ ، ٥٦) .

وتحدثت الليالي عن خلْق آدم وامتناع إبليس عن السجود وطرده ، وعن إخراج آدمَ من الجنة بعد أنْ أكل من الشجرة (ل ٤٨٠ ، ٥٢٥) وهو ما جاء في القرآن الكريم ، قال الله ــ تعالى ــ : ((وإذْ قلْنا للملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ إلاَّ إبليسَ أبى واستكْبَرَ وكان من الكافرين)) . (البقرة ٣٤) ، وقال ــ تعالى ــ : ((قال اهْبِطا منها جميعا)) (طه ١٢٣) .

وفيها إشارة الى الغرابين وقتْل أَحد أبناء آدم وحيرة أخيه ، قال ــ تعالى ــ ((فطوَّعَتْ له نفسُه قتْلَ أخيه فقتلَه فأصبحَ من النادمين . فبعثَ الله غرابا يبحثُ في الأرض ليريَه كيفَ يُواري سَوْءَةَ أخيه . قال : يا ويلتا أعجزتُ أنْ أكون مِثْلَ هذا الغراب فأُواريَ سَوْءَةَ أخي ، فأصبحَ من النادمين)) (المائدة ٣٠ ــ ٣١) . وفي الليالي : ((أنَّ الملك قمر الزمان بكى على فراق زوجته لما رأى الطائرين يبكيان على صاحبهما ، ثم أنَّ قمر الزمان رأى الطائرين حفرا حفرةً ودفنا الطائر المقتول)) (ل ٢٤٦) .

وذكر قومَ عادٍ ولوطٍ (ل ٧ ، ٢٤٩) وموسى وقصته مع شُعيب وزواجه إحدى بناته (ل ١٠١ ، ١٠٢) وهو ما تحدث عنه القرآن الكريم .

وجاء ذكر الخضر ولوقيا ((فأكل لوقيا ، ولما فرغ من الأكل حَمِدَ الله ـ تعالى ـ فاذا الخضرَ ـ عليه السلام ـ قد أقبل ، فقام اليه وسلم عليه)) (ل ٥٢٥) .

واهتمت الليالي بالنبي سُليمان ـ عليه السلام ـ وقد رأته الخارقة ، وتسخيره الجن ، وسجنهم في القماقم ، وسيطرته على الوحوش والطيور ، وقصته مع بلقيس ، والجن التي تغوص في البحار أو تمشي على الماء ، ببركة الأسماء المكتوبة على خاتم سُليمان (ل ٣ ، ٤ ، ٤٧٢ ، ٥٦٠ ، ٧٣٤) ، وهذا ما جاء في القرآن الكريم ، قال ـ تعالى ـ : ((يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنا منطق الطير ، وأُوتينا من كل شيءٍ ، إنَّ هذا لهو الفَضلُ المبين . وحُشِرَ لسليمان جنودُه من الجنِّ والإِنس والطير فهم يُوزعون)) (النمل ١٦ ـ ١٧) . وفَصَّلَتْ سورة (النمل) القول في مجيء بلقيس مع عرشها الى نبي الله سليمان ، وذكر القرآن الشياطين الذين يغوصون لسليمان ، قال ـ تعالى ـ : ((ومن الشياطين مَنْ يغوصون له ، ويعملونَ عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين)) (الأنبياء ٨٢) وقال ـ تعالى ـ : ((فَسخرنا له الريح تجري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب . والشياطينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاص . وآخرين مُقَرَّنينَ في الأصفاد)) (ص ٣٦ ـ ٣٨) .

وكانت شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تبدو كما يراها المسلم ، ويظهر الإيمان به منذ الصفحات الأُولى من الليالي ، ولا يَخص هذا الايمانُ الإِنس وحدهم ، وإنما امتدَّ الى الجن (ل ٢) ، وكان حبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيلا الى الرفق والعطاء (ل ٤٥) ، قد أتى بالمعجزات الباهرة ، والآيات الظاهرة (ل ٢٦٨) ولولاه ما خلق اللهُ المخلوقات ، ولا الجنة والنار ، ولا السماء والأرْض ، لقد خلق الله هذا كله من أجْله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقرن اسمه باسمه في كل مكان (ل ٤٧٠) ، وجاء اسمه في

التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان (ل ٣١١) ، وهو ما جاء في قوله ـ تعالى ـ : ((وإِذْ قال عيسى بنُ مَرْيَمَ يا بنـي إِسـرائيلَ إِنّـي رسولٌ اليكم مُصَدِّقًا لما بين يديٍّ من التوراة ، ومبشرا برسولٍ يأتي مـن بَعْدي اسمه أحمدُ)) (الصف ٦) .

ومحمد ـ ﷺ ـ خـير البشـر (ل ٦٨٦) ، يقسـم بحياتـه المسـلمون ، ويصلـون عليـه آنـاءَ الليـل وأطـرافَ النـهار . (ل ٣٤ ، ٤٨١ ، ٥٢٦) .

وتحدثت الليالي عن قبره ـ ﷺ ـ (ل ٩٤٢) ، وذكرت بعض الأَحاديث (ل ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٩) .

وذكرت بعض الائمـة كالشـافعي (ل ١٠٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣) وأَبي حنيفة (ل ٦١٣) وأَبي يوسـف (ل ٣٣٤ ، ٣٣٥) ، ومـالك (ل ٦١٣) .

وهناك معلومات كثيرة عن الاسلام ، منها ما جاء على لسـان الجارية التي امتحنت (ل ٧٧) ، وما جاء على لسان الجاريـة أمـام الخليفة هارون الرشيد (ل ٤٣٠ ، ٤٣٤) وغير ذلك من المعلومـات الدقيقة عن الاسلام والقرآن الكريم ، وما يجب على المسلم ، وهو ما لا يعرفه إِلا المسلم المثقف بالثقافة الاسلامية ، والملتزم بأُصول الاسلام .

(٥)

يتّسم أُسلوب الليالي بالسلاسة وسهولة التّعبير ، إِذْ ليس فيه أثر لأَسـاليب الكتاب المتقدمين كعبد الحميد الكاتب ، وابن المقفـع ، والجـاحظ ، أَو أَساليب الذين جاءوا بعدهم كأَبي حيان التوحيدي ، والصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وأَبي إِسحاق الصابي ، أَو أَساليب مَنْ بعدهـم كالقـاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وهي أساليب طغـت عليـها الصنعـة

والمحسنات البديعية ، كالسجع ، والجناس ، والتورية . لقد كان أُسلوبها مُرْسلا يكاد يكون قريبا مما يكتب الآن ، وينشر في وسائل الاعلام المختلفة ، وذلك لأنَّ مؤلِّف الكتاب أو محرره كان يُعنى بايصال المعنى والفكرة أكثر من عنايته بالتحسين اللفظي ، والى هذا ذهب السباعي بيومي فقال بعد أن انتقد أُسلوبَ الليالي : ((وبعد فمع ما تقدم من نقد يمكن أنْ نقولَ عن الأُسلوب بوجه عام إنَّه يمتاز بالوضوح والصدق والصراحة ، وإنَّه يتسم بجاذبية تستميل القارئ اليه ، وتستديمه على النظر فيه ، ذلك بأنَّ المعاني تسبق الألفاظ الى الذهن ، والصور تسبق الوصف الى الخاطر ، والخيال يحرك الشوق ويبعث الانْتباه))[٢٢] . وعلى الرغم من هذا ، ففي الليالي سجع يأتي في عبارات قصيرة عند الوصف ، ولا سيما وصف النساء (ل ١٠ ، ٥٥ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٧٥١ ، ٨٣٠ ، ٨٣٨ ، ٨٤٥) .

وازَّينت الليالي بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأمثال ، وكان للشعر حضور كبير فيها ، ويكاد يُكوّن ربع الليالي[٢٣]، وقد وظف المؤلف توظيفا دقيقا ، وجاء به ليعبر عن المواقف . ومعظم الشعر مجهول ، وربما كان من نظم المؤلِّف أو المحرر ، غير أنَّ هناك بعض الشعر الذي يمكن ردُّه الى زمن متقدم ، ومعرفة قائله ، وممن ينسب اليهم بعض ذلك الشعر : قس بن ساعدة الإيادي ، والنابغة الذبياني ، والأعشى ، وعلقمة بن عَبَدة ، والحطيئة ، ودوقلة المنبجي ، وجميل بُثينة ، وكُثير عَزَّة ، ومسكين الدارمي وأبو العتاهية وبشار بن

---

(٢٢) تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي ص ٤٠ .

(٢٣) أصدر عبد الصاحب العقابي (ديوان ألف ليلة وليلة) في ٥٧٨ صفحة وصنفه الى الغزل والنسيب ، والوعظ ، والمرح ، والفخر والهجاء ، والمراثي ، والوصف ، والخمر والأحاجي .

برد ، وأبو تمام أ وابن زيدون ، وابن زُريق البغداديّ ، والصاحب بن عباد ، والمتنبي ، وعلي بن فضالة ، وإسحاق الصابي ، والحريريّ ، وابن الفارض .

وهناك أبيات نُسبت الى هارون الرشيد ، وهي :

مَلَكَ الثلاثُ الغانياتُ عِناني   وَحَلَلْنَ من قلبي أعَزَّ مكانِ
مالي مُطاوعَ في البرية كُلِّها   وأُطيعهنَّ وهُنَّ في عصياني
ما ذاكَ إلاَّ أنَّ سُلطانَ الهوى   وبه غَلَبْنَ أعَزَّ من سُلطاني

ويبدو مما جاء في الليلة (٩٦٢) أنهَّا ليست للرشيد ، لأنهُ ذُكر بعد أنْ غنتها الجارية : ((فتعجب الخليفة من موافقة الشعر لحاله غاية العجب)) .

وهناك أَبيات ذكرها ابن حجة الحموي (ــ ٨٣٧ هــ) وعبد الغني النابلسي (ــ ١١٤٣ هــ) في فن التخيير ، ونسباها الى ديك الجن وهي :

قُولي لطيفكِ يَنْثَني   عن مضجعي وقْتَ المنام
كي أستريحَ وتنطفي   نارٌ تأججُ في العظام
دَنِفٌ تقلّبه الأكفُ   على بِساطٍ من سهامِ
أمَّا أنا فكما عَلِمْتِ   فهل لوصلِك من دَوام

وقد جاء الليلة (٦٣٥) أنَّ الأَبيات أنشدتها بنت عربية أمام هارون الرشيد ، وليتأكد أنَّها لها طلب منها أنْ تُغير القافية ، فتجعلها نونا ، ودالا ، وعينا ، وفعلت الفتاة ذلك .

وهذه القصة ــ في الغالب ــ من تصور المؤلف ، لأنَّ هارون الرشيد توفي سنة (١٩٣ هــ ــ ٨١٣ هــ) وتوفي ديك الجن (عبد السلام بن رغبان) سنة (٢٣٥ هــ ــ ٨٥٠ هــ) ، ويبدو أنَّ الأبيات متأخرة ولم تذكر إلاَّ في كتب البلاغة المتأخرة ، مثل (عروس

الأفراح) للسبكيّ (ــ ٧٧٣ هــ) ، و (خزانة الأدب) لابــن حجـة الحمويّ (ــ ٨٣٧ هــ) ، و (أنوار الربيع) لابن معصــوم المدنــي (ــ ١١١٧هــــ) و (نفحـات الأزهـار) لعبـد الغنـي النابلســيّ (ــ ١١٤٣ هــ) ، ولم ترد الأبيات في ديوان ديك الجن[٢٤] .

وفي الليالي أراجيز (ل ١٧٣) وشــعر يقـرب مـن شـعر المتأخرين ، حيث الاهتمام بالجناس كما في البيتين : (ل ٢٣٥) :

لا أُحبُ السِّواكَ من أجْل أنّي   إنْ ذكرتُ السِّواك قلْت :سواكا

وأُحبُ الأَراك من أجْلِ أنّي   إنْ ذكرتُ الأَراك قلْت : أَراكا

وفي البيتين : (ل ٢٣٥)

لقد راعني بَدْرُ الدجى بصدوده   ووكَّلَ أجفاني برعي كواكبــهِ

فيا كبدي مَهْلا عَساه يعودُ لي   ويا مُهْجتي صَبْرا على ماكَوا بهِ

وفيها قصائد مقطعية مما شاع في القرون المتـأخرة (ل ٢٣٨ ، ٣٦٧ ، ٨٧١ ، ٩٦٣) وفيه مــوال (ل ٧٧٢) وإشــارة الــى الموشـحات (ل ٢٩٤) .

لقد دلَّ الشعر الذي ذكرته الليالي على أنَّ مؤلِّفها أديب يتــذوق الشعر ، ويُحسن اختيار ما يوافق المناسبة أو الموقف ، وإنْ لــم يكُـنْ الشعر في مستوى واحد ، فمنه الرفيع الذي اقتبس من الشعراء الكبــار ، ومنه غير ذلك كالذي نظمه أو نقله من دواوين المتأخرين .

(٦)

حاول مُؤِّلف الليالي أنْ يكون أُسلوبها واضحا ليس فيه زخرفــة تُلْهي المتلقي عن التمتع بها ، وقد أكثر من العبارات القريبة الى الأذهان

---

(٢٤) للديوان طبعتان الأولى جمعه وشرحه عبد المعين الملوحـــي ومحيــي الديـن الدرويش وطبعاه في حمص سنة ١٩٦٠ ، وطبعة حققها الدكتور احمد مطلـوب والدكتور عبد الله الجبوري عن نسخة السماوي وصدر في بيروت سنة ١٩٦٦م.

التي تتردد في الكلام في ذلك العهد المتأخر من تأريخ العرب ولا سيما عهد المماليك في مصر ، ثم العهد العثماني فيها وفي الأمصار الأخرى.

ومن تلك العبارات التي لا يزال معظمها مُتداولا حتى هذه الأيام : ((راح يموت)) (المقدمة) ـ ((ما دينك إلاَّ دينٍ عظيم)) (ل ١) ـ ((روحي وصلَت الى قدمي)) (ل ٣) ـ ((لولْدِ الولِد)) (ل ٤) ـ ((من أول غزوته حَصَل كسر عصيته)) (ل ٦) ـ ((أطول بالي عليها)) (ل ٨) ـ ((أرنا عرْضَ اكتافك)) (ل ١٠) ـ ((ولا كل مَرَّة تسلم الجَّرة)) (ل ٢٠ ، ٨٦٨) ـ ((فهذا زَوجي الذي أخذ وجهي)) (ل ٢٢) ـ ((تروح بيتك بلا مطرود)) (ل ٢٢) ـ ((يا جماعة الخير)) (ل ٣٢) ـ ((بالصحة والعافية)) (ل ٣٨) ـ ((لا بدّ أن تمالحني)) (ل ٤٣) ـ ((اشْربْ هنيئا وصحة)) (ل ٤٣) ـ ((على الراس والعين)) (ل ٦٣) ـ ((فانك ضيفي ، وصار بينا وبينك خبز وملح ، وحديث ومؤانسة)) (ل ٦٤) ـ ((ليس فيها شيء يصلح لسعادتك)) (ل ١٣٥) ـ ((هل تحسب أنَّ دخول الحمام مثل خروجه)) (ل ١٥٠) ـ ((يا بركتك يا سيدتي نفيسة هذا وقتك)) (ل ٢٩٢) ـ ((يسرق الكحل من العين)) (ل ٣٠٢) ـ ((فدخل القاعة فوجد الجو قفرا والمزار بعيدا)) (ل ٣٥٤) ـ وقد نظمت هذه العبارة في البيتين : (ل ٨٦٧) :

سَرَى طيفُ سُعْدى طارقا فاستفزَّني سُحيرا وصَحْبي في الفَلاة رقودُ
فلما انتبهنا للخيالِ الذي سِرى أرى الجوَّ قَفْرا والمزارُ بعيدُ

((فقمت على حيلي وتمشيت في الجزيرة يمينا وشمالا)) (ل ٥٣٦) ((فقمت على حيلي ومشيت بين تلك الأشجار)) (ل ٥٥١) ـ ((ثم أنه قام على حيله)) (ل ٥٦٩) ـ ((قال : هل مات الآخر ؟

قال له : تعيش راسك)) (ل ٦١٢) ــ ((إِنْ كُنتِ خرساءَ فـاعلميني بالإِشارة حتى أَقطع العَشَم)) (ل ٦٨٩) ــ ((حكَّها فرآها ذهبا من عال العال)) (ل ٧٣٨) ــ ((فجاءته دقّة شغل فاشتغلها في بقية النهار)) (ل ٩٧٢) ــ ((وهو جاري الحيط في الحيط)) (ل ٩٨٦) .

والى جانب هذه العبارات التي لا تزال على أَلسنة الناس أَلفاظ تتردد في الكلام ، وأَكثرها يجري على أَلسنة عامة الناس مثل : قصادي ــ الحيط ــ العبّ ــ الطواشي ــ الحريم ــ النسوان ــ الحرامية ــ الليفة ــ اللزقة ــ العربان ــ السبحة ــ السيخ ــ الحيل ــ المصاغ ــ العيش (الخبز) ــ البقجة ــ الشاويش ــ الطربوش ــ السفرة (المائدة) ــ الفتلة ــ الكارة ــ السراي ــ الراجل (الرجل) ــ الدادة ، وغيرها كثير .

هذه الأَلفاظ والعبارات وليدة البيئة العربية والإِسلامية ، وقد قالت الدكتورة القلماوي : ((أَمَّا اللغة في الليالي فقد تأثرت بالإِسلام تأثرا قويا ، فكثرت أَلفاظ ومصطلحات وتعبيرات تختص بالإِسلام لا تكاد صفحة من الكتاب تخلو منها))[٢٥] .. ووصف الدكتور صفاء خلوصي أُسلوب الليالي بقول : ((إِنَّ قصص الليالي أَقرب ما تكون الى الروايات المسرحية منها الى القصص الاعتيادية لكثرة ما فيها من حركة وحوار ، وقلة ما فيها من تحليل وتشخيص ، ومن السهل جدا قَلْبُها الى مسرحيات وتمثيلها))[٢٦] .

---

[٢٥] أَلف ليلة وليلة للدكتورة القلماوي ص ٨٧ .

[٢٦] الأَدب المقارن في ضوء أَلف ليلة وليلة ص ٥٥ .

(٧)

أكّدت الروح الإسلامية والنزعة العربية في كتاب ((ألف ليلة وليلة)) أنّه عربيّ ، فضلا عن أسلوبه وعباراته وألفاظه التي تعبر عن اللغة العربية وواقعها في العهود المتأخرة كعهدي المماليك والعثمانين . وقد اختلف الباحثون في زمن تأليفه ، وكانت دراسة أستاذتي الدكتورة سهير القلماوي ــ رحمها الله ــ من أعمق الدراسات العربية التي بحثت في الليالي ، وفيها جاء أنّ أقدم مخطوطة للكتاب مخطوط (جالان) المحفوظ في المكتبة الأهلية في باريس ، وكان جزء منه قد قُرِئَ سنة ٩٥٥ هـ . أمّا طبعاته فقد طبع عدة مرات منها طبعه كلكتا الأولى سنة ١٨١٨ م ، والثانية سنة ١٨٣٢ ــ ١٨٤٢ م ، وطبعة برسلو سنة ١٨٢٤ م ، وطبعه بولاق الأولى سنة ١٢٥١ هـ ــ ١٨٣٥ م ، والثانية سنة ١٢٧٩ هـ ، وطبعة الأب الصالحاني سنة ١٨٨٨ ــ ١٨٩٠ م ، وطبعة عبد الحميد أحمد حنفي القاهرية ، وطبعة صادر الأولى بتصحيح الشيخ محمد قطة ، والثانية بتقديم الدكتور عفيف نايف حاطوم التي صدرت في سنة ١٩٩٩ م .

وكان المستشرقون قد اهتموا بكتاب الليالي وترجموه قبل أنْ يُطْبع ، وذكرت الدكتورة القلماوي أنّ إحدى الترجمات التركية ترجع الى سنة ١٦٣٦ م ، وأنّ إحدى الترجمات الفارسية ترجع الى سنة ١٢٢٩ هـ ــ ١٨١٤ م . وترجمها جالان الى الفرنسية سنة ١٧٠٤ ــ ١٧١٧ م ، ثم تُرجمت الى الانكليزية ، والايطالية ، والاسبانية ، والبرتغالية ، والالمانية ، والروسية ، وغيرها من اللغات العالمية : تقول الدكتورة القلماوي : ((يكفي أنْ نعرِف أنّ الليالي طُبعت أكثر من ثلاثين مرة مختلفة في فرنسا ، وانجلترا ، في القرن الثامن عشر

وحدها ، وأنها نُشرت نحو ثلثمائة مرة في لغات أوربة الغربية منذ ذلك الحينَ ، لنتصور الى أيّ حَدّ تغلغل هذا الأثرُ في نفوس هؤلاء القراء ، وخاصةً الأُدباء منهم))[٢٧] .

ولكن متى أُلِّفت الليالي ؟

يرى بعض الباحثين الأجانب أنّها كُتبت في فترات مختلفة ، وأنَّ ما طُبِعَ هو آخر نسخها التي وقع فيها بعض الاختلاف ، ويرى جرجي زيدان أنَّ الليالي تمّ تأليفها على الصورة التي وصلت الينا بعد القرن العاشر للهجرة في الأَرجح . ويرى لين أنَّ إخراج الصورة الأَخيرة لليالي أَواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر للميلاد . ويرى برتن أنَّ الكتابَ اتخذ شكله الحالي في القرن الثالث عشر للميلاد . ويرى اويسترب أنَّ أقدم تأريخ مذكور هو الإشارة التأريخية الى الحاكم بأمرِ الله سنة ٣٨٦ الى سنة ٤١١ للهجرة (٩٩٦ ــ ١٠٢١ للميلاد) وفي قصة (مزين بغداد) يقول المزين : ((نحن اليوم ١٨ صفر سنة ٦٥٣ هـ حسب نسخة برسلو ، ونحن اليوم ١٠ صفر سنة ٧٦٣ هـ حسب نسخة بولاق (ل ٣٣) . وفي مكان آخر من نسخة برسلو يقول : جئت بغداد زمن المستنصر بالله بن المرتضى بالله أي ١٢٢٦ الى سنة ١٢٤٢ للميلاد ، ولكن نسخة بولاق تقول زمن المنتصر أي سنة ٨٦١ الى سنة ٨٦٢ م (ل ٣٦) ، وينتهي اويسترب الى أن أجزاء من (ألف ليلة وليلة) أُخرِجت في صورتها النهائية في القرن الحادي عشر للميلاد .

هذا ما ذكرته الدكتورة القلماوي ، وانتهت الى ((أنَّ الكلام في تأريخ الليالي رَجْمٌ بالغيب في أكثر الأحيان))[٢٨] . ولكن مما ذكر في

---

[٢٧] ألف ليلة وليلة للدكتورة القلماوي ص ٦٥ .

[٢٨] المصدر نفسه ص ٤٢ .

الليالي من أسماء وألفاظ وأحداث يدل على أنَّ كتاب (ألف ليلة وليلة) أُلِّفَ في زمن متأخر قد يكون في آخر عهد المماليك البرجية وأوائل العهد العثماني ، ففيه كلمة (الطربوش) : ((وكان عليه الطربوش والعمامة)) (ل ٢٢) وقد قال دوزي إنَّ الكلمة ((لم تصل الى العرب إلاَّ في مطلع القرن السادس عشر ، ولم تكن إلاَّ تحريفا لكلمة (سربوش) الفارسية))[٢٩] .

وفي الليالي عدة إشارات الى القهوة : ((ولما أصبح الصبح صلَّى فرضه ، وشَرِب القهوة)) (ل ١٩١ ، وتنظر ٩٣٤ ، ٩٦٨) . وكانوا يرتادون مكان شرب القهوة ، وهو (المقهى) : ((وطلعتُ الى دكان شربات فشربتُ ما أردتُ ، ورأيتُ القهوة مفتوحة فدخلتها ، ورأيتُ فيها البكارج[٣٠] على النار ممتلئة بالقهوة وليس فيها أحد فشربتُ كفايتي وقلتُ : إنَّ هذا شيء عجيب)) ـ ((ففتش الدكان الذي قدام القهوة التي أنا مستخفٍ فيها)) (ل ٩٦٤) .

وفي الليالي إشارة الى (الدخان) : ((وبعد أن يتوجه صاحب الشيء الى حال سبيله ، يأخذ هو ذلك الشيء ، ويذهب الى السوق فيبيعه ويشتري بثمنه اللحم ، والخضار ، والدخان ، والفاكهة وما يحتاج اليه)) (ل ٩٢٩) .

القهوة والتدخين لم يشيعا إلاَّ في زمن متأخر ، واختلف الناس فيهما فمن محلل لها ومن محرم[٣١] . وكان التبغ قد دخل الى أوربة سنة ١٥٥٦ م[٣٢] ، ولم تنتشر عادة التدخين فيها حتى سنة ١٥٨٦ م ،

---

[٢٩] المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ص ٢١١ .

[٣٠] البكارج : البكرج : إبريق القهوة ، وهو الزكوة .

[٣١] لعبد الغني النابلسيّ (ـ ١١٤٣ هـ) رسالة في التتن والقهوة .

[٣٢] الموسوعة العربية ص ٤٨٩ .

وربما يُراد بكلمة (الدخان) البخور أو تبغ المضغ[٣٣] ، وإن استعملت الكلمة في مصر وتركية بمعنى التبغ المعروف[٣٤] .

أمّا القهوة المعمولة من ابن المحمص المطحون فقد صُنعت في بلاد العرب نحو القرن الخامس عشر ، وأصبحت مشروبا في معظم دول أوربة في القرن السابع عشر[٣٥] .

وجاء ذكرُ (الباب العالي) في الليالي : ((وإذا برجل أقبل عليه ، وقال له : يا معروف قُمْ واستَخْفِ ، فإنّ زوجَتك اشتكتك الى الباب العالي)) (ل ٩٨٤) والباب العالي ((مقر الصدر الأعظم رئيس الوزراء في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الأول (١٢٠٤ هـ ــ ١٧٨٠ م) ، وقد بقي علما على رياسة الوزارة الى أن انقرضت الدولة))[٣٦] ، وجاءت عبارة ((الوزير الأعظم)) (ل٩١٩) وهي في استعمالها من العهد العثماني ، وهي وعبارة (الباب العالي) تدلان على تأخر كتابة الليالي ، إذ فتح العثمانيون مصر سنة (٩٢٣ هـ ــ ١٥١٧ م) وقضوا على حكم المماليك البرجية ــ الجركية ــ والشكوى الى الباب العالي لا تكون إلاّ في ظل الحكم العثماني ، حيث كان صاحب القصة معروف الاسكافي يسكن مصر التي فتحها العثمانيون وأصبحت ولاية من ولايات دولتهم .

وذكرت كلمة (المدفع) (ل ٢٢) ، وقد استعملت الكلمة بالمعنى المعروف اليوم أول مرة في مصر سنة

---

(٣٣) تكملة المعاجم العربية ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٣٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢١ .

(٣٥) الموسوعة العربية ص ٤٠٦ .

(٣٦) المعجم الكبير ج ٢ ص ٦٥٣ .

(٧٩٢ هـ ــ ٣٨٣هـ)[٣٧] ، وكان العرب قد عرفوا البارود في القرن الرابع عشر[٣٨] .

وذكرت الليالي اسم (شجرة الــدر) ولا تريـد بـها الملكـة زوجة الملك الصالح أيوب التي تولّت الحكم في مصر وقتلت سنة ٦٥٥ هــ ــ ١٢٥٧ م ، ولكن يبدو أنَّ الاسم كان معروفا في مصر في عـهد تأليف الكتاب[٣٩] ، فأطلق صاحب الليالي الاسم علــى بعـض النســاء (ل ٥٥ ، ٩٥٥) .

ويتضح مما سبق أنَّ الصورة الأخيرة لكتاب (ألف ليلة وليلـة) متأخرة كثيرا عما ذهب اليه الباحثون ، أو الذين قالوا إنَّه مترجم عــن (هَزار أفسان) في أيام المنصور أو المأمون[٤٠] .

(٨)

لم يُذكر اسم مؤلِّف كتاب (ألف ليلة وليلة) ولا يزال مجـهولا حتى اليوم ، واختلفوا فيه أهو مُؤلِّف واحد أم عـــدة مُؤلفيــن ؟ تقــول الدكتورة القلماوي : ((ولكن ألف ليلة وليلة مجموعــة مــن القصـص تختلف عصورها وأُصولها ومواطنها ، لاشيء يحكم ربط أجزائها علــى هذا النحو ، ولا شيء يحدُّ من مادتها ، وكذلك لا نعرِف اســم مُؤلِّــفٍ واحد ممن ألِفوا قصصها أو قصّوها بأسلوبهم))[٤١] .

---

(٣٧) تكملة المعاجم العربية ج ١ ص ٧٩ .

(٣٨) الموسوعة العربية ص ٣٠٧ .

(٣٩) لأبي الطيب عبد الواحد بن علــي اللغــوي (ــ ٣٥١ هــــ) كتــاب باسـم (شجر الدر) ، وهو كتاب في تداخل الكلام بالمعاني المختلفة .

(٤٠) ينظر ألف ليلة وليلة للدكتورة القلماوي ص ١٤ .

(٤١) المصدر نفسه ص ١٤ .

وقال سلفستردي ساسي إنَّ عدة أفراد قاموا بتأليفه ، وإنَّه أُلِّــفَ في عهد متأخر جدا ، وليس فيه عناصر هندية وفارسية ، معارضا بذلك قول المسعودي صاحب كتاب (مروج الذهــب ومعــادن الجوهــر) .

وذكر لين أنّ المؤلِّف واحد ، وهو مصريّ وليس سوريا كمــا أشار الى ذلك ساسي الذي وجد على حاشية نســخة كلكتــا الثانيــة أنَّ المؤلِّفَ سوريّ ، وقد كُتب الكتاب بقصد تسهيل اللغة العربية لمن يريــد تعلمها .

وقال شوفان إنَّ المؤلِّف شخصان : مصــريّ وصــف الحيــاة الاجتماعية المصرية ، ويهودي أسلم ، وهذا ما يفســر كــثرة وجــود الإسرائيليات في (ألف ليلة وليلة) ، وهذا اليهودي هو إبراهيم ميمــون الذي عاش قبل سنة ١٥١٨ م ، وَرَدَّ او يســترب هــذا الزعــم ؛ لأنَّ الإسرائيليات موجودة في التراث العربي والاسلامي مــن قبــل هــذا الميموني ، ولا حاجة الى يهودي ليدخلها في (ألف ليلة وليلة) .

وقال برتن إنَّ المؤلِّف ((اتخذ شكله الحالي في القــرن الثــالث عشر ، وأما المؤلِّف فهو غير معروف ؛ لأنه لم يكن هناك مُؤلِّف واحد، وإنما كان هناك ناشرون ، ولا يمكن أنْ نتحدث عنــهم إلاّ إذا ظــهرت نسخ أكثر مما بين أيدينا من الكتاب))[٤٢] .

وقال السباعي بيومي : ((إنَّ مخترعي حكاياتــه وأقاصيصــه كثيرون جدا ، وبأن هذه الحكايات والأقاصيص لم تجتمع كلها بين دفتي كتاب واحد حتى منتصف القرن العاشر الهجري بعد نهاية حكم المماليك بمصر حين جمعها حينذاك جندي مجهول لم يشأ ذِكْرَ اسمه ــ أيضا ــ

---

[٤٢] المصدر نفسه ص ١٩ .

اقتداء بمترجم أصله ، وبمن انهالوا على الزيادة فيه من القصاصين بعد))[٤٣] .

وقال الدكتور مصطفى الشكعة : ((لم ينشئها أديب بعينه ، وإنما أنشأتها الأجيال المتتابعة حتى انتهت الى هذه الصورة الرائعة من الامتاع))[٤٤].

وقال الدكتور عفيف نايف حاطوم : ((فمؤلِّفه الحقيقي الذي ما زِلْنا حتى عصرنا هذا نجهل اسمه ، كما نجهل العصر الذي كان فيه يعيش هو مؤلِّف علاَّمة ، حافظ للقرآن الكريم ، مُتَفَقِّه في الدين الاسلامي الحنيف ، ومُصلح إجتماعي كبير ، وحافظ للأشعار التي كان يختار منها أجودها ، جاعلا منها مادة خَصبة ، مختارا من بينها ما كان معناه موافقا وملائما للموضوع الذي يضمن حكاية من حكايات كتابه أو قصة أو أُقصوصة أو نادرة من النوادر التي يغلب عليها في الظاهر سِمَةُ الهَزْل والإضحاك ، قاصدا بذلك التهذيب والإصلاح))[٤٥] . ثم قال : ((إنَّ مؤلِّفَ هذا الكتاب مصريّ المولد ، وهو مؤلف هذا الكتاب ، وقد اختار عنوانه من عنوان كتاب فارسي اسمه ((هَزار أفسانه))[٤٦].

وهذا صحيح ، فمؤلِّف الليالي ليس جاهلا ، وإنما كان عالما حَرَّرَ الكتاب بأسلوب مُرْسَل بعد أن جمع مادته العلمية ، والتأريخية ، والخيالية . ولا يمكن أنْ يخرج الكتاب بهذا الأُسلوب لو كان مؤلفه أكثر

---

(٤٣) تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي ص ٣٣ .

(٤٤) الأدب في موكب الحضارة الاسلامية ص ٦٢٣ ، نقلا من الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ص ٢٨ .

(٤٥) ألف ليلة وليلة (طبعة صادر) ج ١ ص ١ .

(٤٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٣ .

من واحد ، كما في الكتاب من وحدة التعبير ، والربط بين الحكايات ، وطريقة القصّ ، والاستشهاد بالقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والأمثال ، والأشعار التي بلغت ربع صفحات الكتاب .

(٩)

اتَّضح من دراسة كتاب (ألف ليلة وليلة) أنَّه عربيّ إسلاميّ بدليل :

أولا : أنَّ هدفَ الليالي هو العبرة والاتعاظ ، وليسَ التسلية وتزجية أوقات الفراغ ، لما فيه من معلومات غزيرة ، وحكايات واقعية وخيالية ترسم كثيرا من معالم الحياة .

ثانيا : أنَّ البيئة التي وقعت فيها أحداث الليالي عربية إِسلامية ــ في الغالب ــ وأنَّ ما وقع خارجها انطلق منها أو اتجه اليها .

ثالثا : ورودُ أسماء الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم ــ وبعض أسماء خلفاء بني أُمية ، (بني العباس والحاكم بأمر الله الفاطميّ ، وبعض الأسماء العربية التي كان لأصحابها دور في التأريخ العربيّ الإسلاميّ .

رابعا : كثرةُ ورود أسماء المدن العربية التي وقعت فيها الأحداث ، أو لها علاقة بالقصص والأحداث .

خامسا : الروحُ والثقافة الإسلامية التي تسود الليالي ، والكلام على القرآن الكريم وقراءاته ، وآياته ، وسوره المكية والمدنية ، وما يتصل بالعقيدة الإسلامية من أركان وفروض ، وذكر آراء الفقهاء في المسائل الدينية ونحو ذلك مِما له تعلق بالدين الإسلامي .

سادسا : ذِكْرُ بعض أخبار الأنبياء ، ولا سيما النبي محمد ــ ﷺ ــ الذي تحدثت الليالي عن كراماته وأخلاقه ، وماله من فضل

على العالم الذي لم يخلقه الله إلاّ لأجله ، وهذا ما جاء به القرآن الكريم ، وكتب السيرة المحمدية ، وتأريخ العرب والمسلمين .

سابعا : أُسلوبُ الليالي الذي لا يُشبه أساليب العصر الذي قيل إنها تُرجمت فيه ، وإنما أُسلوب الفترة المتأخرة من حياة اللغة العربية ـ فترة المماليك والعثمانيين ـ .

ثامنا : الاستشهادُ بآيات القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والأمثال والأشعار الكثيرة .

تاسعا : ثقافةُ مؤلِّفها العربية والإسلامية وسعتها ، وحسنُ توظيفه الألفاظ والعبارات التي كثرت في الفترة المتأخرة من حياة العرب والمسلمين .

عاشرا : تأخر كتابتها ، إذ أنها دُوِّنت ـ في الغالب ـ في نهاية حكم المماليك البرجية ، وبداية احتلال العثمانيين مصر .

هذا ما اتّضح في هذه الدراسة ، ولا يمنع أنْ يكونَ الاسم مطابقا لما جاء في الكلام على ترجمة (هَزار أفسان) إذْ ربما حلا الاسم للمؤلّف ، أو أراد أنْ يقول إنّ للعرب ليالي كما لغيرهم من الأُمم ، وإنها خير مما ذكر في (هَزار أفسان) لأنها حافلة بالعلم والثقافة الى جانب ما فيها من خيال .

إنّ بعض ما قاله العرب عن ترجمة الرسائل والكتب من الفهلوية أو الفارسية الحديثة ـ وهي لغة إسلامية ـ الى العربية ، غير صحيح ، حيث شَكَّ القدماء ببعضها وقالوا إنها موضوعة ، وضعها أمثال ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأبي عبيد الله ، وعبد الحميد ، وغيلان ، إذْ كانوا يستطيعون أنْ يولّدوا مثل تلك الرسائل

والكتـــب، ويصنعوا مثل تلك السِّيَر[٤٧].

وشَكَّ بعض المعاصرين في ترجمة الليالي ، ومنهم الدكتور عبد الملك مرتاض الذي قال : ((إنَّ ما استشهد به بعض المستشرقين مـــن وجود بعض الآثار لدى الفرس والهند تُشبه عنوان (ألف ليلة وليلـــة) فإنَّ هذه الأفكار مما يتفق فيه المبدعون ، وتتشابه من حوله الشـــعوب . ومهما يكن من أمر ، فإنّه لا ينبغي أنْ نستدل على شيء موجود بشـــيء معدوم ، فليرنا هؤلاء (ألف ليلة وليلة) الفرس والهند والإغريق ، فـإنْ ألفيناها (ألف ليلة وليلة) العرب رجعنا عن رأينا هذا ، غير أننا نحسب أنهم لن يُروناها أبدا فما فاقد الشيء بقادر على إعطائه))[٤٨].

وصفوة القول : أنَّ مَنْ يقرأ كتاب (ألف ليلة وليلـــة) بامعـــان يُؤيد ما قاله الدكتور مرتاض ؛ لأنَّ الليـــالي صـــورة للحيـــاة العربيـــة والإسلامية على ما فيه من خيال يجذب القارئ وينقله الى عـــالم مـــن التصور فسيح ، وهذا ما توصل اليـــه هـــذا البحـــث ، وقـــادت اليـــه الخطوات .

---

(٤٧) ينظر البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩ ، وشرح التبريزي لديون أبي تمام ج ٣ ص ٣٢١ .
وتجدر الإشارة هنا الى أنَّ الدكتور أمين عبد المجيد بدوي لـم يذكـر فـي كتابـــه (القصة فيالأدب الفارسي) كتاب (هَزار أفسان) مع العلم أنه ذكـر الآثـــار القصصية الفارسية القديمة الموجود منها والمفقود .(تنظر ص ٦١ ــ ٧٦) .

(٤٨) ألف ليلة وليلة للدكتور مرتاض ص ٨ .

المصـــادر

١ ــ الأدب في موكب الحضارة الاسلامية ــ الدكتور مصطفى الشكعة ــ القـــاهرة ١٩٦٨ م .

٢ ــ الأدب المقارن في ضوء ألف ليلة وليلة ــ الدكتور صفاء خلوصي ــ بغـــداد ١٤٠٦ هـــ ـــ ١٩٨٦ م .

٣ ــ ألف ليلة وليلة ــ طبعة عبد الحميد احمد حنفي (القاهرة) وطبعـــة صـادر (بيروت) ١٩٩٩ م .

٤ ــ ألف ليلة وليلة ــ الدكتورة سهير القلماوي ــ القاهرة ١٩٥٩ م .

٥ ــ ألف ليلة وليلة ــ دراسة سيميائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد ــ الدكتور عبد الملك مرتاض ــ بغداد ١٩٨٩ م .

٦ ــ الامتاع والمؤانسة ــ أبو حيان التوحيدي ــ تحقيق أحمد أمين وأحمد الزيـــن ــ القاهرة .

٧ ــ أنوار الربيع في أنواع البديع ــ علي صدر الدين بـــن معصـــوم المدنـــي ــ تحقيق شاكر هادي حسن ــ النجف الأشرف ١٣٨٨ هـــ ـــ ١٩٦٨ م ومـــا بعدها .

٨ ــ البيان والتبيين ــ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ــ تحقيق عبـــد الســـلام هارون القاهرة ١٣٦٧ هـــ ـــ ١٩٤٨ م .

٩ ــ تأريخ الأمم والملوك ــ محمد بن جرير الطبري ــ القـــاهرة ١٣٥٧ هـــ ـــ ١٩٣٩ م .

١٠ــ تأريخ الفكر الأندلسي ــ آنجل جنثالث بالنثيا ــ ترجمـــة الدكتـــور حســـين مؤنس ــ القاهرة ١٩٥٥ م .

١١ــ تأريخ القصة والنقد في الأدب العربي ــ السباعي بيومي ــ القاهرة ١٩٥٦م

١٢ــ تكملة المعاجم العربية ــ رينهارت دوزي ــ ترجمة الدكتور سليم النعيمي ــ بغداد ١٩٧٨ وما بعدها .

١٣ــ خزانة الأدب وغاية الادب ــ ابن حجة الحموي ــ القاهرة ١٣٠٤ هـــ .

١٤ــ ديوان ألف ليلة وليلة ــ عبد الصاحب العقابي ــ بغداد ١٩٨٠ م.

١٥ـ ديوان ديك الجن ـ جمع عبد المعين الملوحي ومحيي الدين الدرويش حمص ١٩٦٠ م ، وتحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتور عبد الله الجبوري ـ بيروت ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

١٦ـ شرح ديوان أبي تمام ـ الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

١٧ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكي (شروح التلخيص) القاهرة ١٩٣٧ م .

١٨ـ الفهرست ـ أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم ـ تحقيق رضا تجدد ـ طهران ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

١٩ـ القصة في الأدب الفارسي ـ الدكتور أمين عبد المجيد بدوي ـ القاهرة ١٩٦٤ م .

٢٠ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي ـ طبعة شارل بلا ـ بيروت ١٩٦٦ م .

٢١ـ معجم الأدباء ـ شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي ـ طبعة (د . س . مرجليوث) الثانية ـ القاهرة ١٩٢٣ م .

٢٢ـ المعجم الكبير ـ مجمع اللغة العربية (القاهرة) ج ١ سنة ١٩٧٠ م ، ج ٢ سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢٣ـ المعجم المفصّل بأسماء الملابس عند العرب ـ رينهارت دوزي ـ ترجمة الدكتور أكرم فاضل ـ بغداد ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م.

٢٤ـ الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ـ الدكتور أحمد محمد الشحاذ ـ بغداد ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٢٥ـ الموسوعة العربية الميَّسرة ـ القاهرة ١٩٦٥ م .

٢٦ـ نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار ـ عبد الغني النابلسي ـ بيروت (الطبعة الثالثة) ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

الأحوال الاقتصادية في تدمر

الدكتور جواد مطر الموسوي
كلية الآداب/ جامعة بغداد

الملخص:

إن للدراسات الاقتصادية في التاريخ أهمية واضحة ، لاسيما دراسة الاقتصاد العربي قبل الإسلام ، وبالذات تدمر ، لما لها من دور مؤثر في الحركة الاقتصادية آنذاك ، لذلك اتبع الباحث المنهج الوصفي في عرض مادته ، وفي ثلاث محاور مع مقدمة وخاتمة ، تناولت المقدمة الخلفية الجغرافية لدولة تدمر وأثر الموقع الجغرافي على الاقتصاد ، بينما كان المحور الأول قد تناول المياه والزراعة أما الصناعة فكانت في المحور الثاني ، وشمل المحور الأخير التجارة وختم البحث بمجموعة من النتائج المهمة أهمها:

١) إن لموقع تدمر الجغرافي أثراً واضحاً في أحوالها الاقتصادية ، وعلى وفرة المياه الصالحة للزراعة وإنبات الشجر.
٢) اهتم سكان تدمر بالقنوات والسدود لغرض السيطرة على المياه مما أدى إلى زراعة الحبوب وأنواع من الأشجار التي تعمر طويلاً.

٣) اهتمت تدمر بتربية الحيوانات وصناعة الجلود والمنسوجات وغيرها وكان لأصحاب الحرف نقابات خاصة بهم.

٤) التجارة هي عماد اقتصاد الدولة ، والتجار هم سادة المدينة ، وكانت هناك قوة عسكرية لحماية القوافل ، كما كانت لهم علاقات تجارية خارجية.

تمهيـــد :

البحث في تاريخ اقتصاد أي دولة لابد من اخـذ المامـه ولـو قصيرة عن الخلفية الجغرافية ، فتدمر ظهرت في قلب بلاد الشام بيـن غرب نهر الفرات وشرق نهر العاصي[١]، وهي راس المثلث الوهمـي المتساوي الاضلاع الذي يبـدأ ضلعـه الشـرقي مـن الحـيرة الـى تدمر ، وضلعه الغربي من البتراء الى تدمر ، اما قاعدته الجنوبية فتمر شمال نجد والحجاز عبر البادية من الجيرة الى البتراء في جنوب بـلاد الشام[٢]، وتقع في ارض خصبة حول عين ماء تسمى (افقا) قائمة عند خانق جبلي في منتصف المسافة تقريبا بين نهر الفرات من جهة وبيـن دمشق وحمص من جهة اخرى وتبعد نحو مائة وخمسين ميـلا عـن كل منهما[٣] .

---

[١] موسكاتي ، سبتينو ، الحضارات السامية القديمة ، ترجمـة : الدكتـور السـيد يعقوب بكر ، (القاهرة : دار الكتاب العربي ، ١٩٥٧م) ص٣٧ .

[٢] عبد الحميد ، سعد زغلول ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، (القـاهرة : ١٩٧٦م) ، ص١٥٠ .

[٣] الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسـلام ، (الموصـل : جامعة الموصل ، ١٩٩٤م) ، ص١٦٧ ، وهناك رأي أخر هو (ان حمص تبعد عن تدمر مسافة (٦٥كم) ودمشق (٣٣٠كم) (ستاركي ، جـان و المنجـد ، صلاح الدين ، تدمر عروس الصحراء ، (دمشق : مطبوعات مديريـة الاثـار العامة ، ١٩٤٧م) ، ص و) .

وجود هذا النبع خلق منها واحة خضراء فضلا عن سقوط الامطار في فصل الشتاء التي هي المصدر الرئيس والمهم للمياه في تدمر ، وقد ساعدت على نمو النبات الطبيعي ، وهذا يعني توفر مراعي مناسبة لظهور مهنة الرعي في منطقة تدمر ، كما وفرت مراعي مناسبة لحيوانات النقل التجاري القادمة الى تدمر[٤]، وتتراوح كمية الامطار نحو (٧٠ ــ ١٣٠ ملم) وقد تزداد وتصبح على هيئة سيول تجري في الاودية على شكل جداول ونهيرات صغيرة بصورة طبيعية او صناعية وصفها الكتاب الكلاسيك بانها انهار كما ذكر بطلميوس الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ((كان يسيل في وسط المدينة ــ يقصد تدمر ــ قرب المعابد نهر كبير بعرض نهر بردى))[٥]، وقد حاول التدمريون السيطرة على هذه السيول باقامة المشاريع الاروائية لحجزها وخزنها والمتبقي منها تمتصه الارض ليكون المياه الجوفيه .

اصبحت تدمر بصورة طبيعية مكان استراحة ، ومحطة للقوافل بين البحر المتوسط ونهر الفرات رابضة عند احد المعابر القليلة التي تجتاز جبال البادية ، فهي نقطة عبور اضطرارية للقوافل بين الخليج العربي وبلاد فارس والبحر المتوسط .[٦]

---

[٤] نقلاً عن : عبد السلام ، عادل ، البيئة الجغرافية الطبيعية للبادية ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج٤٢ ، (دمشق : ١٩٩٦م) ، ص٣٣.

[٥] المصدر نفسه ، ص٣٣ .

[٦] البني ، عدنان ، الفن التدمري ، سلسلة تاريخ الفن في سورية رقم (٣) ، (دمشق : مكتبة اطلس ، لا . ت) ، يصف احد الباحثين اهمية موقع تدمر الاستراتيجي بانه نجمة في قلب دائرة ، والدائرة يقصد بها الصحراء (علي ، ناصر الدين ، اذينة والزباء ، (بيروت : دار الحكمة ، لا . ت) ، ص٢٣) .

هذا الموقع الجيد كان ملائماً لقيام تجمع بشري فيه منذ اقدم الأزمنة ، وقد كشفت الحفريات التي أجريت في المنطقة على تجمع بشري حول هذه الواحة منذ العصر الحجري القديم ، حين عرف الانسان الزراعة ودجن القطعان وبدأ ببناء بعض المساكن البدائية ، غير اننا لم نحصل على معلومات كافية عن الحقبة السابقة بالقياس لمعلوماتنا من القرون الميلادية الثلاثة[٧]، التي شكلت فيها القبائل السورية أُسس دولة قوية واسرة حاكمة كان لها صدى واسع في منطقة الشرق وصلت سيطرتها الى مصر وساهمت بصورة فعالة مع الرمان في حروبهم مع الفرثيين[٨]، لا سيما بعد تصدع او نهاية دولة الانباط (البتراء) جنوبي البحر الميت في وادي موسى سنة (١٠٦م)[٩]، انتهت تدمر سنة (٢٧٣م) بعد ان دمرها الامبراطور الروماني (اورليان) (٢٥٣ــ٢٦٠م) .

وفر هذا الموقع مياه غزيرة صالحة للشرب ومياه كبريتية دافئة ، تنبع من مغارة (افقا) الذي يغذيه ثمانية ابار ، ولفظة (افقا) هي لفظة ارامية تدمرية تعطي معنى (العين او نبع الماء) وكانت هذه العين مقدسة عندهم وقد كرس لها الاله (يرحبول) الذي يوصف بـ

---

(٧) البني ، عدنان ، تدمر والتدمريون ، (دمشق : ١٩٧٨م) ، ص٧٦ ؛ خياطه ، محمد وحيد ، تدمر التجارة والدين ، مجلة (المعرفة) ، ع٣٧٢ ، (دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٤م) ، ص٢٠١ ــ ٢١٩ .

(٨) البني ، الفن التدمري ، ص٨ .

(٩) موسكاتي ، الحضارات السامية ، ص٢٣ .

(رب النبع المبارك) منذ سنة (٦٢ق.م) وكانت اخر اشارة اليه في النقوش ترجع الى سنة (٢٠٤م)[١٠].

وعين (افقا) تقع جنوب مدخل مدينة تدمر وتصب داخل اسوارها ، وتمتاز مياهها بانها مخلوطة بالمواد الكبريتية التي تشفى المرضى وتكون صالحة للشرب بعد تنقيتها ، لذلك اطلق عليها الرومان بـ (سورية الشافية) ، وتجري مياهها في بساتين الزيتون والنخيل بشكل منتظم[١١]، ويعتقد[١٢]ان الاستخدام الرئيس له هو لسقي البساتين ، بسبب الفائدة العالية للمواد الكبريتية في الزراعة ، ولاهمية مياه (افقا) كان يعين موظف للاشراف عليها وكانت وظيفة من الوظائف المهمة تتولاها العائلات الاولى وهذا اشار له النقش التدمري الموسوم (Rep. 126) والمؤرخ سنة (١٦٢م) فكان (بولانوس) الذي ينتسب الى عائلة الاشراف ، واخاه (اوغا) الذي اصبح قيم على النبع ، وكان في عهده يسمى بالنبع المبارك .[١٣]

وهناك ينابيع اخرى في تدمر منها : نبع السراي الذي يلتقي مع النبع الاخر الذي يسمى بـ (نبع ابي الفواس) الذي يقع على نحو

---

(١٠) ستاركي ، جان والحسني ، جعفر ، المذابح التدمرية المكتشفة قرب نبع افقا ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج٧ ، (دمشق : ١٩٥٧م) ، ص٢٤٥ ــ ٢٤٨ .

(١١) المصدر نفسه ، ص٢٤٨ ــ ٣٥١ .

(١٢) الخالدي ، شذر سالم ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، رسالة ماجستير غير منشورة باشراف الدكتورة سهيلة مرعي مرزوق ، (البصرة كلية الاداب ، ٢٠٠١م) ص٧٧ .

(١٣) ستاركي والحسني ، المذابح التدمرية ، ص٢٤٨ .

خمسة او سبعة كيلو مترات في جنوب غرب تدمــــر ، وكــان نبــع السراي يشرف عليه مشرف ، وكما هو الحال بالنسبة لنبع (افقا)[١٤] ، وهذا لا يستبعد بالنسبة لنبع ابي الفواس وكل العيون الاخرى .

ومياه تدمر تصلح للزراعة وانبات الاشجار[١٥]، لهذا يعتقــد ان اسم تدمر في اللغة العربية هو تدمر (تامار) (Tamar) ويعني مدينــة التمر او النخيل ، ومن هذه اللفظـــة ســميت بالمصــادر الكلاسـيكية (اليونانية) بالميرا (Palmyra) مشتقة من لفظـــة (بــالم) (Palm) ومعناه النخل .[١٦]

واهل تدمر اعاروا اهمية للمياه عندهم ، لذلك كشفت لنا الاثــار عن قنوات ضخمة تحت الارض وبقايا احواض لخزن المياه في ظــاهر المدينة ، مما يدل على ان تلك الارض تبدو اليوم جرداء مجدبة كــانت بفضل المنشــآت التــي اقامــها التدمريــون ارض خصبــة صالحــة للزراعة[١٧]، لا سيما بعد اقامة المنشآت الاروائية التي ادت الى انتعاش الزراعة ، لذلك قاموا بانشاء السدود للســيطرة علــى ميــاه الامطــار والسيول لتخزينها ، ولا يزال من اثارها سد يبلغ طوله نصف ميل بنــي

---

[١٤] المصدر نفسه ، ص٢٤٥ .

[١٥] البني ، الفن التدمري ، ص٦ .

[١٦] علي ، جواد ، المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام . (بيروت : دار العلــم للملايين وبغداد : مكتبة النهضة ، ١٩٦٩م) ، ج٣ ، ص٧٦ ــ ٧٩ .

[١٧] حتي ، فيليب وادوارد جرجي وجبرائيل جبــور ، تــاريخ العــرب المطــول (بيروت : ١٩٦٥م) ، ص١٠١ .

بين مرتفعين لحصر المياه التي تكفي للسقي[18]، كما عثرت البعثة البولونية التي نقبت في تدمر على قنوات مائية صناعية تحت سطح الارض في باطنها وانها مغطاة بحجارة مسطحة منها العثور على قناة باطنة في موقع السوق عثر عليها سنة (١٩٦٣م) واكتشفت قنوات اخرى في عام (١٩٦٦م) منها قناة تمر تحت معبد الأعلام ، وعثر على قناة محمولة في عام (١٩٧٢م) في وادي القبور باتجاه المعبد من الزاوية الغربية ، كما اشارت بعثة عام (١٩٦٧م) الى وجود حوض شبه منحرف ملتصق بمعبد الاعلام بطول نحو (١٣م) وعرض (٦م) وعثر على مجرى ماء يغذي الحوض من جهة الشمال[19]، ولاهمية المياه عندهم ، كانت العيون والابار تحرس من قوات عسكرية (شرطة) تابعة للدولة لغرض المحافظة عليها[20]، وليس هذا فقط بل كانت توضع

---

(١٨) العلي ، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (الموصل : جامعة الموصل ، لا . ت) ؛ ص٥٤ .

(١٩) للتفصيل عن تنقيبات البعثة البولونية ينظر : برنار ، ماري لوير ، اعمال بعثة التنقيب البولونية في تدمر عام ١٩٦٧م ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج ١٩، ج١ـ٢ ، (دمشق ١٩٦٩م) ؛ داشوسكي ، ف ، اعمال بعثة التنقيب البولونية في تدمر عام ١٩٦١م ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج٢٢ ، ج١ـ٢ ، (دمشق : ١٩٧٣م) ؛ ميخالوفسكي ، كازيمر ، حفائر البولونيين في تدمر لعام ١٩٦١م ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج١١ـ١٢ ، (دمشق : ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م) ؛ وحفائر البولونيين في تدمر لعام ١٩٦٥م ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج١٤ ، (دمشق : ١٩٦٤م) .

(٢٠) العزيز ، حسين قاسم ، موجز تاريخ العرب والاسلام ، (بيروت وبغداد مكتبة النهضة ، ١٩٧١م) ، ص٦٨ .

تحت حماية الالهة ، فقد عثر على منحوتات للالهة في الابار واماكن العيون تدل على ذلك.[٢١]

وفرة المياه وخصوبة التربة ادى الى ظهور الزراعة التي هي اصلاً موجودة منذ القدم في بوادي بلاد الشام ، لذلك يعتقد[٢٢]، ان المجتمع التدمري في بداياته الاولى كان مجتمع زراعياً وبقيت الزراعة ركناً مهماً الى جانب التجارة التي اصبحت بعد ذلك المهنة الرئيسة لسكان تدمر ، والدليل على ذلك هي المنزلة المتقدمة للاله (بعلشمين) اله الزرع على مكانة الاله (بعل = بل) في القرنين الثاني والثالث الميلاديين .[٢٣]

وبكل تأكيد فان التدمريين مثل غيرهم من اهل الشرق قاموا بحراثة الارض بعد تنظيفها من الادغال ثم نثرها بالبذور او زرع الاشجار وقد عرف عن اهل بلاد الرافدين وبلاد الشام دقة الاهتمام بالزراعة ولا بد انهم تاثروا كثيرا بحضارة وادي الرافدين ، وتشير النقوش التدمرية الى استثمار التدمريون لينابيع المياه الموجودة في مدينتهم عن طريق انشاء بعض البساتين التي تزرع فيها اشجار النخيل والزيتون والرمان والتفاح والاجاص ، كما انهم زرعوا الحنطة وهذا ما اشار له القانون المالي التدمري الذي يرجع تاريخه الى سنة (١٧م) ، ويدل على زراعتها في بعض المناطق في موسم سقوط الامطار[٢٤]،

---

[٢١] البني ، الفن التدمري ، ص٣٧ ــ ٣٨ .

[٢٢] الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص٧٦ .

[٢٣] جيبون ، ادورد ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية ، (القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٩م) ، ج١ ، ص٢٧٣ .

[٢٤] البني ، تدمر والتدمريون ، ص١١٩ ــ ١٢٠ .

ولاهمية الحبوب في الحياة اليومية فقد رمز للاله (بعلشمين) اله البرق والرعد والزرع بالسنابل ، وكذلك عثر على تمثال للالهة (اللات) وهي تحمل السنابل ، كما رسمت على النقود التدمرية[٢٥]وهذا يدل على اهمية الحبوب عندهم وكثرة استعمالها عند اهل تدمر بحيث نقشوها على نقودهم .

كما احتلت الاشجار التي تعمر طويلاً حيزاً من المزروعات التي اشتهرت بها تدمر ومنها النخيل ، التي كان لها اثر واضح في حياتهم ، فكانت الكثير من تماثيل الالهة تحمل السعفة رمز الخلود والانتصار على قوى الشر ، فدخلت في الشعائر والطقوس الدينية لذلك كانت لهم عادة وضع سعف النخيل في قبور الموتى وربما كانت الغاية منها لحماية وابعاد قوى الشر عنهم ، كما كان سعف النخيل يرفع في المواكب الدينية ، اذ كشفت التنقيبات الاثرية عن مشهد لموكب ديني تتقدمه النساء وهن يحملن سعف النخيل فضلاً عن المباخر والكؤوس ، وقد اهتم الفنان التدمري بالنخلة ورسم الكثير من تفاصيلها واجزائها الدقيقة[٢٦]. كذلك ظهرت النخلة على النقود[٢٧]، وهذا يدل على اهميتها الدينية والغذائية فضلاً عن اهميتها الاقتصادية ويبدو ان ثمارها (التمر) كان احد السلع التي يتاجر بها التدمريين لذلك لم يات من فراغ ربط اسم تدمر بالنخيل ، والنخلة هي ام الاشجار عند العرب وفي

---

(٢٥) المصدر نفسه ، ص١٢٨ ؛ البني ، الفن التدمري ، ص٥٢ .

(٢٦) البني ، تدمر والتدمريون ، ص٧٨ ؛ زهدي ، بشير ، النقود التدمرية ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج٢٣ ، ج١ ـ ٢ ، (دمشق : ١٩٧٣م) ، ص١٣٥ .

(٢٧) زهدي ، النقود التدمرية ، ص١٢٢ .

اشارة (لطفي عبد الوهاب يحيى) من ان جذر اللفظة هو (نَخَــل) أي خلاصة الاشجار جميعاً وان لفظة (تمر) هي نطق شعبي للفظــة (ثمر) وكأنه المقصود هو ان (الثمر) إذا ذكر وحدهُ فلا بد ان يكون تمرَ النخل واذا كان المقصود ثمراً اخراً فلا بد من ان يحدد نوعهُ .[٢٨]

واحتلت شجرة الزيتون وزيتها المرتبة الثانية بعد النخــل مــن حيث الاهمية فيعد الاله (جــد مشــحيا) خــاص بــها[٢٩]، والالــه (بعل = بل) حامي شجرة الزيتون وزيتــها ، واظــهرت التنقيبــات الاثرية عن تمثال لكاهن يحمل الزيت يعتقد انه زيت الزيتون[٣٠]، وربما يحمل فيه (النبيذ) المصنوع من العنب الذي كــان مــن المحــاصيل الرائجة في بلاد الشام وتدمر[٣١]، ويبدو ان له مكانة دينية والدليل علــى ذلك فان معظم افاريز الزخرفة على جدران معابد الاله (بعلشــمين) والاله (بعل = بل) رسم عليها شجرة العنب وعناقيدهــا المتدليــة ، ويبدو انهم يعتقدون ان شجرة العنب وعناقيدهــا تفيــد الحمايــة فــي ميثولوجيتهم الدينية لذلك نجد ان اغلب تماثيل النساء تــتزين بــاقراط عملت على شكل عناقيد الاعناب ، كما صورت مشاهد القبور للاطفــال وهم يحملون عناقيد الاعناب[٣٢]، لذلك يرجح ان اهمية الاعناب لا تقل

---

(٢٨) العرب في العصور القديمــة ، ط٢ ، (بــيروت : دار النهضــة العربيــة ، ١٩٧٩م) ص٣٠١ .

(٢٩) البني ، تدمر والتدمريون ، ص١٢٠ .

(٣٠) الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص٨٥ .

(٣١) جيبون ، اضمحلال الامبراطورية الرومانية ، ج١ ، ص٢٧١ .

(٣٢) زهدي بشير ؛ الفن الهللنستي والروماني في سوريا (دمشق : مطبعة الارشاد ، بلا) ، ص٥٦ ــ ٥٧ .

اهمية عن النخيل والزيتون عند التدمريين ، وقد اشار القانون المالي التدمري[٣٣] الى وجود النبيذ والخمور ، وكانت الخمور على انواع منها خمور خاصة للكهنة فقط .[٣٤]

كما استظهرت الصور الجدارية للمعابد وشواهد القبور عن وجود ثمار الرمان والتين والتفاح وربما الرقي وكذلك الزهور ونباتات الزينة والآس والبطم والسرو والصنوبر[٣٥]، فالآس من النباتات المقدسة عند الشرقيين ويستعمل بكثرة في الطقوس والممارسات الدينية في المعابد والقبور واحتفالات الافراح ومنها حفلات الزواج[٣٦]، وآثار هذا الاستعمال شائع في الوقت الحاضر ، والبطم هو الفستق[٣٧]، فقد كان موجوداً بكثرة في تدمر وقد عثر على اماكن لعصره لاستخراج الزيت منه[٣٨]، اما السرو فهو نبات يستخرج منه الصمغ العربي ، وعثر في تدمر على نحت بارز يمثل الاله (ملك ـ بل) يصافح الاله (عجل ـ بل) وبينهما نبات السرو ذو الخضرة الدائمة وهو رمز

---

[٣٣] ويسمى اللائحة القانونية للضرائب او التعريفة الكمركية التدمرية التي اكتشفها الامير الروسي (لازارف) سنة ١٨٨١م ونقلت الى بطرسبرك في سنة ١٩٠١م (البني ، تدمر والتدمريون ، ص١٦) .

[٣٤] الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص٨٦ .

[٣٥] زهدي ، الفن الهلنستي ، ص٥٠ ؛ البني ، تدمر والتدمريون ، ص ١٢٠ .

[٣٦] باقر ، طه ، دراسة النباتات في المصادر المسمارية ، مجلة (سومر) ، مج٨، بغداد : ١٩٥٣م) ، ص٢٣ .

[٣٧] المصدر نفسه ، ص٥٩ .

[٣٨] البني ، تدمر والتدمريون ص١٢٠ .

لاستمرار الحياة وخلودها[٣٩]، ويبـــدو ان لـــه مكانـــة مقدســـة فـــي الميثولوجيا التدمرية ، والحال ينطبق على شجر الصنوبر الذي يزرع في الجبال الواقعة شمال تدمر.[٤٠]

كما اهتم التدمريون بتربية الحيوانات وتدجينها مثـــل الجمـــال والمواشي منها الاغنام والماعز ، وهذا ما اشار لـــه القـــانون المـــالي التدمري ، وفرض بعض الرسوم الحقيقية على ســـمنها وجلودهـــا[٤١]، ولا بد ان القبائل العربية المتنقلة. بوادي تدمر المحيط بها قاموا بتربيـــة حيوانات اخرى ، لا سيما ان بعض هذه القبـــائل كـــانت تســـتقر فـــي الحواضر وعند الواحات ، وكان لرؤسائهم حق العضوية في المجلـــس القبلي (العشائري) ديمـــوس (Dimos)[٤٢] ، ولا بـــد ان الملكـــة (زنوبيا) كانت تمارس هواياتـــها بـــالصيد وركـــوب الخيـــل فـــي مناطقهم[٤٣]، فقد عثر على تمثال لحيوان الجاموس البري كتـــب علـــى قاعدته اهداء من محارب الى الصيد .[٤٤]

وكانت الصناعة مهمة في تدمر فعند الرجوع الـــى موســـوعة النقوش التدمرية الارامية (Palmyeehe Aramaic Texts) التـــي اعدها ودرسها ديلبرت هيبلـــرز (Delbert R.Hillers). والينـــورا

---

[٣٩] البني ، التدمريون في الدنيا الرحبة خلال القرنين الثاني والثـــالث الميـــلادي ، مجلة (دراسات تاريخية) العدد ٢ ، (جامعة دمشق : ١٩٨٠) ص٤٢ .

[٤٠] باقر ، دراسة النباتات ، ص١١ .

[٤١] البني ، تدمر والتدمريون ، ص١٢٠ .

[٤٢] العزيز ، موجز تاريخ العرب ، ص٦٩ .

[٤٣] العلي ، محاضرات ، ٤٨ .

[٤٤] زهيد ، الفن الهلنستي ، ص٧٢ .

كوسيني (Eleonra Cussini)[٤٥] نجد فـــي النقشـــين الموســـومين (C 4261) (Bis 4261) عبارة (حبل شعد ال بر زبدبـــول بـــر مقيمو أمنا ... ميت يوم ٣ بكنـــون شـــنة ٤و١٠٠ + ٨٠ + ٤)[٤٦] ، والنقش هو شاهد قبر اذ يبدأ بلفظة (حبل) التي تعطي معنى (الاســـف والتحسر والالم)[٤٧] ، على (سعد يل بن زبد بول بن مقيمو) الـــذي كان (أمنا) أي (Master Crafsman) (ســـيد او معلـــم الصنـــاع المهرة)[٤٨] ، ومن هذا يتبين لنا ان في تدمر صناعة مـــا دام هنـــاك (سيد للصناع المهرة) وكانت هذه الصناعة متنوعة مـــن اجـــل ســـد حاجات المجتمع التدمري ، فكان هناك اصحاب الدكاكين وهم يبيعـــون الصناعات المحلية في مجال الاغذية والاواني الفخاريـــة والزجاجيـــة وغيرها وظهر اصحاب صنائع وحرف كثيرون ، ذكـــرت النصـــوص اسماء بعضهم مثل : الاطباء والعطارين والنحاتين وصـــانعي الجلـــود والحدادين وصاغة الذهب والفضة ، لكن اكثر الصناعات شهرة عندهـــم هو اهتمامهم بصناعة النسيج كما هو ظاهر على المنحوتات التي نفسهم منها انواع الازياء الظاهرة ، وتفيد بوجود مصانع محلية كما ان طـــراز النقوش على الازياء والزخرفة النباتية تشير الى اصلـــها الســـوري ، ومن مميزات لباسهم عدم ثبات الطراز ويرجع ذلـــك الـــى اســـتمرار التطور والتأثير في الازياء الحديثة ، وهو نتيجة حتمية بسبب وقـــوع تدمر في محيط ثقافات متنوعة فضلاً عن الاقوام التي تعيـــش بحكـــم

---

(٤٥) The John Hopkins University Press, Baltimore and London, (1995).

(٤٦) Delbert R. Hillers, Palmylere, P.114.

(٤٧) Ibid, P.362.

(٤٨) Ibid, P.362.

مهنتها في تدمر وكذلك الفوارق الاجتماعية في المجتمع التدمري ، وكانت المواد الاولية في صناعة النسيج هي خيوط الحرير والكتان والصوف والقطن ، ويعتقد ان التدمريين يستوردون الحرير من الصين ويحضرونه في مصانعهم ويصدرونه الى مناطق اخرى معظمها في اوربا[٤٩]، وبسبب ارتفاع اسعار الحرير كانت مصانع الحياكة تخلط معه خيوط كتانية وقطنية بنسب قليلة ، ومن ذلك يمكن تميز اكثر نوع من الالبسة كما اشار (زهدي)[٥٠] منسوجات خاصة التصنيع وهي للطبقة الحاكمة والملوك والاغنياء ، وهي مصنعة من خيوط الحرير الكتان والقطن ومنسوجات كتانية او قطنية او من النوعين للطبقات الدنيا كما استعمل التدمريون الخيوط الذهبية على شكل شرائط صغيرة مصبوغة بالارجوان وتحاك باطراف الملابس الحريرية[٥١]. كما كانت الاقمشة الحريرية التدمرية تستعمل في تكفين الأموات ، وقد عثر على بعض اللفائف في القبور منها قبر (ايلابيل)[٥٢] ومن المواد الأولية التي تستعمل بصناعة المنسوجات ، الصبغ الارجواني الاحمر ويخلط معه صبغ النيلة والفوة[٥٣]، وهناك اكثر من شكل لنساء منحوتات يحملن المغزل والدرارة والخيوط الصوفية للغزل[٥٤]، وهذا

---

(٤٩) خياطه ، تدمر ، ص١٦٥ .

(٥٠) طريق الحرير وتدمر مدينة القوافل مجلة (الحوليات الاثرية) مج٤٢ (دمشق ١٩٩٦) ، ص١٣٣ .

(٥١) المصدر نفسه ، ص١٣٥ ؛ خياطه ، تدمر ، ص١٦٥ .

(٥٢) ستاركي والنجد ، تدمر عروس الصحراء ، ص٢٠ .

(٥٣) زهدي ، طريق الحرير ، ص١٣٥ ؛ خياطه ، تدمر ، ص١٦٥ .

(٥٤) الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص١١٦ .

يشير الى ان صناعة المنسوجات كانت شائعة عندهم وبين معظم طبقات المجتمع ، وربما هناك مشاغل شعبية عامة .

وجود صناعة المنسوجات من الطبيعي ان يؤدي الى ظهور خياطة الملابس بانواعها ، لا سيما ان النقوش تشير الى ان التدمري عندما يؤدي عمل معين عليه ان يرتدي الملابس المتميزة من حيث النوعية الجيدة والخياطة الدقيقة ، وهذا واضح في النقش المرسوم (Inv 1044 /7) .[٥٥]

توفر المنسوجات وتطور خياطة الملابس ادى الى اهتمام اهل تدمر بملابسهم وتميزها حسب الجنس والعمر والمهنة والمكانة الاجتماعية فقد كشفت المنحوتات عن وجود لباس خاص للالهة يمتاز بالبساطة ويغطي القسم الاسفل من الجسد ويلتف الى الاعلى ليثبت على الخصر[٥٦]، وكانت ملابس النساء تمتاز بالفضاضة[٥٧]، وهي على درجة عالية من الدقة ومهارة الصنعة ، ونعومة الملمس والحواشي المزخرفة بالرسوم[٥٨]. اما الملابس الرجالية فتتألف من سروال فضفاض فوق قميص له اكمام طويلة ويعلوه رداء له مشبك مستدير قرب الكتف او ثوب يتوسطه حزام وهناك امثلة كثيرة[٥٩]، كما كان للعسكريين ملابسهم الخاصة وهي ملابس مميزة على شكل ثوب

---

(٥٥) Delbert R. Hillers, Palmylere, P. 240-214.

(٥٦) خياطه ، تدمر ، ص١٦٣ .

(٥٧) زهدي ، الفن الهلنستي ، ص٤٩ .

(٥٨) المصدر نفسه ، ص٤٨ ــ ٥٧ ؛ خياطه ، تدمر ، ص١٦٥ .

(٥٩) زهدي ، المصدر نفسه ، ص٤٦ــ٤٧ ؛ ستاركي والنجد ، تدمر عروس الصحراء ، ص٢٥ .

فضفاض طويل يتوسطه حزام ضيق ربط به سيف له مقبض ، وهـــذا واضح في لوحة المحـــاربين التدمرييـــن المعروضـــة فـــي متحـــف اللوفر[٦٠]، وكان لباس التجار يمتاز بالاناقة على شكل ســـروال ورداء مزخرف بازهار (الاكانتوس) والاطراف محلاة بخطوط متموجة [٦١].

وبكل تأكيد ان الاهتمام بالاناقة وخياطة الملابس الجميلة ، لابد وان رافقها الاهتمام بالإكسســـوارات الشـــخصية لاغـــراض جماليـــة واعتقادية من اجل جلب حظ ربة السعادة (تيكا)[٦٢] ، وهذا ادى الـــى الابداع في صياغة الذهب ، وقد اشارت النقوش التدمريـــة الـــى هـــذه الصياغة في اكثر من نقش[٦٣]، وبلفظة (ذهـــب وذهبـــا) ، كمـــا ان هناك حياً خاصاً للصاغة يقع الى الشمال الغربي من تدمر يمارس فيـــه صناعة الذهب كما اشار رايت (wright)[٦٤] ، وهذا يؤكد اهمية هـــذه الصناعة عندهم وابداعهم فيها وانتشار منتوجات ذهبية الى خارج تدمر فقد وصلت الى روما ، وبشهرتها كان العرب يطلقون على الاذن التـــي فيها الاقراط الجميلة بالاذان التدمرية[٦٥]، وفعـــلاً كشـــفت المنحوتـــات التدمرية عن صناعة الاقراط بشكل عناقيد العنـــب او علـــى اشـــكال

---

[٦٠] زهدي ، المصدر نفسه ، ص٥٣ .

[٦١] خياطه ، تدمر ، ١٦٣ .

[٦٢] زهدي ، الفن الهلنستي ، ص٦٧ .

[٦٣] النقش الموسوم(C3945/4) والنقـــش الموســـوم (C3948/3) انظـــر : Delbert R. Hillers, Palmylere, P. 240-214.

[٦٤] نقلاً عن : الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص١٢١ .

[٦٥] زهدي ، الفن الهلنستي ، ص٥٣ ، ٤٨ ، ٦٧ .

الحيوانات مثل : الجمل والاسود ورؤوس الافاعي التي كانت توضع في اطراف الاساور كما صنعوا الخواتم [٦٦].

كما اهتم اهل تدمر بالصناعات الجلدية ، الذي شجع على ذلك موقع المدينة في وسط البادية اذ يحيط بها الرعاة وبذلك توفرت المادة الاولية ثم حاجة التجار لهذه الصناعة لغرض تجهيز حيوانات النقل والركوب بها ، يضاف الى ذلك صناعة الأوعية الحافظة (القرب) لغرض ملئها بالماء او الزيت وهذا ما يشير له القانون المالي التدمري .[٦٧]

وهناك اشارة لـ (سيريك) من ان اهل تدمر كانوا يصنعون (الاكلاك) وهي الطوافات التي تستعمل في نقل المنتوجات التجارية من تدمر عبر نهر الفرات الى منطقة ميسان (التي ظهرت في منطقة القرنة في الوقت الحاضر) وكانت هذه الاطواف بطول عشرة امتار وتصنع من جلود الماعز ثم تنفخ لتعوم في النهر ، لذلك وضعت تدمر محطات حماية على طول نهر الفرات على مناطق سيطرة مملكة ميسان ، ومنها محطة منطقة (عانة) .[٦٨]

ويبدو ان التدمريين شغوفين بالتجارة المالية في الوقت الذي كانوا يصنعوا (الاكلاك) لتسير بها الى ميسان ، كانت لهم دار لصناعة السفن على سواحل مملكة ميسان ، على ضفاف الخليج العربي ، وكانت هذه السفن تستعمل للتجارة البحرية ويؤجرونها الى

---

(٦٦) المصدر نفسه ، ص٥٦ ، ٦٧ .

(٦٧) البني ، تدمر والتدمريون ، ص١٢٠ .

(٦٨) يريك ، هنري ، ابناء الملك اذينة ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج١٣ ، (دمشق : ١٩٦٣م) ، ص٢٥٦ .

البحارة والتجار من اماكن اخرى ، وهذا لا يستبعد ان تكون لـهم دور اخرى لصناعة السفن على سواحل البحر المتوسط او البحر الاحمـر ، مستفيدين في ذلك من توفر المواد الاولية منها اخشاب الارز من لبنــان والقير في منطقة (عانة) يضاف الى ذلك استغلال خبرة الكنعـــانيون والميسانيون .(٦٩)

وكان لاصحاب هذه الحرف نقابات خاصة بهم ، ولهم تنظيمات تحمي حقوقهم وتدافع عن مصالحهم(٧٠)، ويبدو ان لكل مهنة نقابة ، فقد عثر على تمثال في الرواق الجنوبي من الشارع الطويل لتدمر تشـــير الكتابة المنقوشة عليها ، الى ان نقابة صناع الجلود والقرب اقاموه لسيد النقابة وهو سبتيموس حيران صاحب السمو في سنة (٥٦٩) الموافــق (٢٥٧ ــ ٢٥٨م)(٧١) ، ونجد هناك اشارة الى قيـــام صاغـــة الذهــب والفضة في سنة (٢٥٨م) باهداء تمثال لأذينة وابنه وهب اللات(٧٢)، كما كان لصناع السفن نقابة(٧٣)، كما تشير النصوص الى ان هذه النقابـــات كانت تخضع لحماية ورعاية الدولة ، فقد اشير الى ان اذينة وابنه كانـا

---

(٦٩) غافيكوفسكي ، تدمر وتجارتها التدمرية ، مجلة (الحوليات الاثرية السورية) ، مج٤٢ ، (دمشق : ١٩٩٦م) ، ص .

(٧٠) البكر ، مملكة ميسان ، مجلة (المورد) ، مج١٥ ، ع٣ ، (بغداد ١٩٨٦م) ، ص٢٥ ؛ بهيجة ، اسماعيل ، الكتابة ، موسوعة (حضارة العراق) (بغداد : دار الحرية للطباعة والنشر ، ١٩٨٥م) ، ص١٥٧ .

(٧١) سيريك ، ابناء الملك اذينة ، ص٢٥٦ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص٢٥٦ .

(٧٣) الخالدي ، تدمر ابان القرنين الثاني والثالث ، ص١٢١ .

من حماة النقابات الحرفية[٧٤]، وهذا يدل على اهمية وانتشار الصناعة بينهم وعلى التنظيم الدقيق للمجتمع المدني .

لكن مع ذلك فان شهرة تدمر جاءت من شهرتها في التجارة حتى وصفت بانها مدينة قوافل (Caravan City) ، فتركت اثراً واضحاً في بلدان الشرق والبحر المتوسط ، بل يكاد في كل مكان اثراً لتجارتهم[٧٥]، التي لم تقتصر على نقل البضائع وحمايتها وتزويد القوافل المارة بهم بما يحتاجونه ، بل انهم زاولوا التجارة ، ولهم وكلاء وجاليات في بابل وفولوكاسيا (وهي مدينة بالقرب من الكوفة) والكرخة عاصمة دولة ميسان وكانت لهم مصانع للحرير في الخليج العربي وفي مدن بلاد الشام ومصر وروما فكان لهم معبد خاص يقدمون فيه الذبائح ، وامتد نشاطهم الى داسيا (رومانيا في الوقت الحاضر) وكان لهم معبد هناك في حي الشرقيين (ترانستيفير) وكانت لهم علاقة مع بلاد الغال (فرنسا) وشبه جزيرة ايبرية (اسبانيا والبرتغال) ولهم علاقة تجارية مع الهند وهذا ما اشارت له الكتابات التدمرية القديمة ، وبالذات مع ممالك الساكا في شمال غربي الهند ، كما عثر في تدمر على اقمشة ذات خيوط حريرية ممزوجة بالخيوط الصوفية والمعروف ان الخيوط الحريرية كانت تجلب من الصين عبر طريق الحرير ، ويعتقد ان ذلك حدث في عهد اسرة خان الصينية (٢٠٥ ــ ٢٢٠م) وكان اهم حافز في تشجيع انتاج وتصنيع الحرير في منطقة الشرق ، كما عثر على امثلة من النسيج التدمري في اماكن

---

[٧٤] نبيه ، عاقل ، تاريخ العرب قبل الاسلام والعصور القديمة ، (بيروت : دار الفكر ، ١٩٧٥م) ص١٤٣ .

[٧٥] موسكاتي ، الحضارات السامية ، ص٢٠٤ .

متفرقة من اوربا ، وهذا يرجع الى المواصفات العالية من جودة التصنيع ودقته التي اشتهرت بها تدمر طيلة القرن الثاني الميلادي .

كما كان لتدمر علاقات مع مصر فقد عثر على نص يشير الى وجود التدمريين في مدينة (فقط) وهي مدينة في صعيد مصر[٧٦]، كما ارسلت زنوبيا حملة عسكرية للسيطرة على مصر بقيادة (زبدا) لغرض تأمين سيادتها على الشرق والسيطرة على تجارة شرق البحر المتوسط مستغلة ضعف سيطرة الرومان وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية .[٧٧]

ولا ريب ان العلاقات التجارية قد ساعدتهم على الاحتكاك بالاجانب ووسعت افق نظرهم ، كما ادت الى استعمال عدة لغات في بلادهم ، فانتشرت الارامية والاغريقية التي كتبت بها معظم وثائقهم[٧٨]. وهذا يدل على ان تدمر استطاعت ان توفر طرق آمنة بين بلدان الشرق لاسيما الطرق الداخلية .

وقد كشف القانون المالي التدمري اهم البضائع التي كانوا يتاجرون بها ومقدار ضرائب الكمارك المفروضة عليها التي تمر بتدمر ، منها الانسجة الصوفية وصبغ الارجوان والحرير والزجاج والعطور وزيت الزيتون والفاكهة المجففة كالتين والجوز والخمر[٧٩]، وكذلك الذهب والجزع والشب واللبن والصمغ والصبر زعود الند ،

---

[٧٦] ارسنت فيل ، تدمر وطريق الحرير ، مجلة (الحوليات الاثرية) مج٤٢ (دمشق : ١٩٩٦) ، ص٩٥ .

[٧٧] العلي ، محاضرات ، ص٤٩ .

[٧٨] المصدر نفسه ، ٥٠ ؛ خياطة ، تدمر ، ص٢١٠ ــ ٢١٢ .

[٧٩] العلي ، المصدر نفسه ، ص٥٥ .

واللآلئ والقرنفل والبهار والنيل والفولاذ والعاج والابنوس[٨٠]، والرخام والرقيق[٨١]، وهذا يعني ان سلعهم شملت منتوجات دول متعددة ، تدل على سعة اتصال التدمريين تقريبا مع معظم دول العالم القديم .

وكانت الطبقة الارستقراطية هي التي كانت تحتكر مزاولة التجارة والصيرفة ولها املاك واسعة[٨٢]، وعلى رأسها الاسرة الحاكمه[٨٣]، لذلك اهتمت الاسرة التدمرية الحاكمة بتنظيم التجارة والمال ، فعينت موظف للمالية يدعى (Procurator) وموظف مسؤول عن الاسواق (Agoranomos) ووظيفة تشبه وظيفة المحتسب في الاسلام .[٨٤]

ولان التجارة كانت هي عماد الحياة في المدينة ، فقد كان التجار هم سادة المدينة الحقيقيون ، منهم امراؤها وحكامها واعضاء مجلس الشيوخ فيها ، والمتولون للوظائف والقيادة العامة وكان التكريم في المدينة من نصيب الرجال الذين يقدمون افضل الخدمات للقوافل التجارية وحمايتها فكانت تنصب التماثيل لتخليد ذكراهم في الشوارع والساحات العامة ، ومن ابرز رجال القوافل الذين عرفتهم تدمر رجل شجاع يدعى (عجيل) الذي انقذ القوافل مراراً من خطر جسيم

---

(٨٠) زيدان ، جرجي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، (القاهرة: دار الهلال ، لا . ت)، ص١٠٨ .

(٨١) العزيز ، موجز تاريخ العرب ، ص٧١ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ص٦٨ .

(٨٣) عبد الحميد ، دراسات في تاريخ العرب ، ص١٢٦ .

(٨٤) العلي ، محاضرات ، ص٥٢ .

محقق ، فنصبت له عدة تماثيل في الاغوار باسم مجلس الشيوخ والقبائل .[٨٥]

كما كانت لهم قوة عسكرية (الشرطة) لحماية القوافل من غزوات البدو ، ومن الذين كانوا يهددونهم دائماً ، وهي مكونة من رماة النبال والخيالة والهجانة ، وتستند رئاستها عادة الى الزعماء والاغنياء ، ولا نعلم فيما اذا كانت هذه القوة العسكرية (شرطة) تجمع من اهل تدمر ام انها كانت تجمع من المتطوعة المأجورين ، كما انهم عقدوا معاهدات ومواثيق مع القبائل المقيمة على ضفاف الفرات ، واعطوا بعض شيوخهم الهدايا والاموال لتأمين مرور القوافل بسلام ، ولعل دولة المناذرة قامت في الاصل بتشجيعهم لحماية الطرق التجارية لاسيما بعد ضعف الفرثيين .[٨٦]

وكانت التجارة تحمل بين تدمر ودمشق على مركبات في طرق مرصوفة ، ولها محطات للراحة ، اما من جهة الفرات فلم يكن كذلك[٨٧]، ولا نعلم لماذا ؟ ويبدو ان الطريق الرئيس في تدمر الذي يفضي الى معبد (بعل) وطوله ١٢٤٠ ياردة وعلى جوانبه ٣٧٥ عمود طول كل منها ٥٥ قدم مصنوعة من المرمر الابيض والجرانيت وتتفرع منه الطرق الفرعية وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المفعمة بالبضائع .[٨٨]

---

(٨٥) البني ، تدمر والتدمريون ، ص١٩ ؛ الملاح ، الوسيط ، ص١٨٢ .

(٨٦) العلي ، محاضرات ، ص٥٣ ــ ٥٤ .

(٨٧) زيدان ، تاريخ العرب ، ص١٠٨ .

(٨٨) العلي ، محاضرات ، ص٥٣ ــ ٥٤ .

وكانت تدمر تفرض الضرائب على مختلف انواع السلع كما جاء في القانون المالي التدمري حتى على استعمال المياه والمومسات وغيرها[٨٩]، واصبح دخل المدينة وفيراً عندما اعفيت تدمر من ضريبة الارض والرؤوس في عهد الامبراطور الروماني سبتميوس ساويرس (١٩٣ ـ ٢١١م) .[٩٠]

وكانت هذه الضرائب تعطي قبالة ، ومن العجيب كما يقول (جونز)[٩١] ، ان المتقبل الوحيد للدخل التدمري ممن نعرفه كان رجلا اجنبيا اسمه (لوقيوس سبيدوس خريسانش) لكن ليس من المستبعد ان يكون مواطنا تدمريا اختار لنفسه اسم هيلينيا (لوقيس) ولكنه ينتمي الى اب وجد شرقيين هما (سويد بن حريش)[٩٢] ، او لعل اسمه (لوقي بن سبيد بن خريسان) .

وكانت نسبة الضريبة المفروضة على البضاعة عالية جداً ، فقد ذكر ان جباة الضرائب المتمركزين على الحدود كانوا يجبون رسوما على البضائع تعادل ربع قيمتها وثمة كتابات في الاغوار تنوه بذكر جباة الربع[٩٣]، ويبدو ان ضريبة الربع هذه كانت تجبى عند الحدود

---

[٨٩] جونز ، أ . هـ ، مدن بلاد الشام ، ترجمة : احسان عباس ، (عمان : دار الشروق للنشر والتوزيع ، ١٩٨٧م) ، ص٧٧ .

[٩٠] احسان عباس ، مترجم كتاب (جونز) مدن بلاد الشام ، ص٧٨ .

[٩١] مدن بلاد الشام ، ص٧٧ .

[٩٢] احسان عباس ، مترجم كتاب (جونز) مدن بلاد الشام ، ص٧٧ .

[٩٣] البني ، تدمر والتدمريون ، ص١١٥ .

لحساب الامبراطورية الرومانية ، وتدمر تجبى الضرائب عند دخولها او عند تصديرها مباشرة او تصنيعها واعادة تصديرها .[٩٤]

وقد توزعت اعمال سكان المدينة على تنظيم القوافل وخدمتها والنشاطات التي تتفرع عنها فكان هناك الممولون الكبار الذين يمتلكون جمال القافلة وآخرون يستثمرون اموالهم في البضائع التي تنقلها هذه القوافل وكان للقافلة شيخ يقودها (رب شيرا) وحراس يتولون حمايتها ، وخدم وعبيد يقومون بتحميل البضائع والقيام على شؤون ابل القوافل فضلا عن اصحاب الدكاكين والخانات والسماسرة وغيرهم الذين يتعاملون مع التجار والمسافرين وغير ذلك .[٩٥]

ولم يقتصر النشاط التجاري على التجارة البرية بل تعداه الى التجارة البحرية ، فقد عرف منهم من كان يقود السفن في المحيط الهندي[٩٦]، وثمة نصوص تذكر ان تجارا عادوا من بلاد السكيث وهو اسم (لممالك (الساكا) في شمال غربي الهند ، التي كانت تصلها السفن التدمرية التجارية من موانئ الخليج العربي بطريق مصب نهر السند ، وتذكر احدى الكتابات على سبيل المثال : (ان هذا التمثال الذي لماركوس او لبيوس يارهاري ، قدمه التجار الذين سافروا من بلاد السكيثيين في زورق (حنينو بن حادودان) لانه ساعدهم بكل الوسائل المختلفة في شهر اذار ١٩٥٧م ، كما ان هناك نص يشير الى وجود مركب لتاجر تدمري اسمه (بعلي) .[٩٧]

---

[٩٤] الملاح ، الوسيط ، ص١٨٣ .

[٩٥] المصدر نفسه ، ص١٨٢ .

[٩٦] ستاركي والمنجد ، تدمر عروس الصحراء ، ص ك .

[٩٧] البني ، تدمر والتدمريون ، ص١١١ ؛ خياطه ، تدمر ، ص٢٠٩ .

كما قامت تدمر بسك النقود على غرار النميسات الهيلينية ، عليها كتابة وصور وقد عثر على نقدان الاول لزنوبيا على الوجه صورة رأسها وكتفيها وحول الصورة اسمها بالاحرف اليونانية (سبتميا زنوبيا) وعلى الوجه الاخر صورة لها وهي واقفة ، والنقد الاخر عليه صورة رأس وهب اللات ابنها واسمه ولقبه[٩٨]، وكانت النقود التدمرية مصنوعة على الأغلب من البرونز وبعضها مطلية بطبقة رقيقة من الفضة وهي النقود التي سكت في انطاكيا .[٩٩]

من هذا كله يتبين لنا ، ان لموقع تدمر الجغرافي اثراً واضحاً في احوالها الاقتصادية فموقعها شرق نهر العاصي ونهر الفرات وعلى نبع (افقا) جعل منها واحة خضراء ، فاصبحت مكان استراحة ومحطة للقوافل ، وكان ملائم لاستقرار السكان من العصر الحجري القديم حتى العصور المتأخرة في العهد الميلادي ، وقد شكلت القبائل السورية في القرون الاولى الميلادية دولة قوية وسلالة حاكمة لاسيما بعد نهاية دولة الانباط (البتراء) سنة (١٠٦م) هذا الموقع وفر مياه غزيرة صالحة للزراعة وانبات الاشجار ، فقاموا بانشاء قنوات ضخمة تحت الارض واحواض لخزن المياه ، كما انشأوا السدود للسيطرة على مياه الامطار والسيول وتخزينها لوقت الحاجة ، ولا يزال هناك سد يبلغ طوله نصف ميل بني بين مرتفعين ، ولاهمية المياه عندهم كانت العيون والابار تحرس ، ويتولى حراستها شرطة الدولة كما عمدت بالالهة ، فقد عثر على منحوتات للالهة في ابار واماكن العيون تدل على ذلك

---

[٩٨] زيدان ، تاريخ العرب ، ص١٠٨ .

[٩٩] زهدي ، النقود التدمرية ، ص١٣٨ .

ولا بد انه كانت عندهم زراعة لتلبية احتياجاتهم من المواد الغذائيــة ، فكانوا يزرعون النخيل والزيتون والتين والرمان والتفاح والاجـــاص والحنطة ، كما اهتموا بتربيــة الحيوانــات وتدجينــها مثـل الجمـال والمواشي ، ومارسوا الصيد ، اما عن الصناعة فليس لدينا معلومــات كافية سواء انهم كانوا عطارين ونحاتين وصـــانعوا جلـود وحداديـن وصاغة وصناع منسوجات ، كان لاصحاب الحرف نقابـــات خاصــة بهم ، ولهم تنظيمات تحمي حقوقهم وتدافع عن مصالحهم .

لكن شهرة تدمر جاءت من شهرتها التجارية بصفتـــها مدينـة قوافل (Caravan City) فتركت اثاراً واضحة في الشـرق وبلـدان البحر المتوسط وكانت لها علاقات واسعة مع دول ومدن مهمة آنـذاك ، وقد كشف القانون المالي التدمري على معلومات تجارية ومالية مهمـة منها انواع البضائع التي يتاجرون بها ونسبة الضرائب عليها .

وبما ان التجارة هي عماد اقتصاد الدولة في تدمر ، فقد كـــان التجار هم سادة المدينة الحقيقيون فمنهم امراؤها وحكامـــها واعضـــاء مجالس الشيوخ والمتولون للوظائف والقيادة العامة ، وكانت هناك قــوة عسكرية (شرطة) لحماية القوافل والطـرق مـن غـزوات البـدو ، والذين كانوا يهددونها دائما وهي مكونة من رماة النبالـــة والخيالـة ، وعقدوا معاهدات ومواثيق مع قبائل الطرق لغرض تامين مرور القوافل بسلام ، وفرضوا الضرائب على البضائع وكانت تعطي قبالـــة ، كمـا وفروا مخازن في المدينة لخزن البضائع ولم يقتصر النشـــاط التجاري للتدمريين على البر بل شمل البحر ايضاً ، ولاستقلالية تدمـــر وقوتــها السياسية والاقتصادية فقد سكت النقود وعليها رسم الملكة زنوبيا وابنــها الملك وهب اللات .

الزراعة والري في كورة[1] الانبار في العصور الاسلامية

الاستاذ الدكتور
حمدان عبد المجيد الكبيسي
كلية الاداب / جامعة بغداد

الملخص :

شكلت الزراعة والانتاج الزراعي جانبا حيوياً من جوانب الحياة الاقتصادية في الدولة الاسلامية ، لانها رفدت بيت المال بموارد مالية كبيرة ومستمرة ، ولان عددا كبيرا من المواطنين إعتمدوا في حياتهم المعاشية على الزراعة والانتاج الزراعي .

وتوجد في منطقة الانبار أراضي زراعية واسعة وخصبة ، يخترقها نهر الفرات ، كما إن نهر عيسى يروي مساحات واسعة من أراضي منطقة الانبار ، فضلا عن إن مياه الامطار تسقي مساحات أُخر . وفي ضوء ذلك إزداد النشاط الزراعي في كورة الانبار في العصور الاسلامية .

[1] الكورة هي المصر في كلام العرب ، والكورة عادة تقام فيها الحدود ، ويقسم فيها الفيء والصدقات . والكورة هنا مدينة لها معنى اداري ومالي يراد به المصر . (ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (كورة) . ويقول (ياقوت ، البلدان ، ج١ ، ص٣٩) : ان لفظة كورة اجنبية استعارتها العرب وجعلتها اسماً للاستان . والكورة صقع يشتمل على عدة قرى ، ولابد لتلك القرى من قصبة ، او مدينة ، او نهر يجمع اسمها ، فنقول : كورة البصرة ، وكورة الكوفة ، وكورة الانبار ، وكورة نهر الملك .. الخ وهي نظير الاجناد في بلاد الشام ، والمخاليف عند اهل اليمن ، والطسايسج عند اهل الاحواز ، والرساتيق عند اهل الجبل . (ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج١ ، ص٣٩ و ج٤ ، ص٧٤٩ . المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص١٤٧) .

تمهيد :

شكلت الزراعة والانتاج الزراعي جانباً حيوياً من جوانب الحياة الاقتصادية ، لانها رفدت بيت المال بموارد مالية كبيرة ومستمرة ، ولان عدداً كبيراً من المواطنين اعتمد في حياته المعاشية بشكل مباشراً وغير مباشر على الزراعة والانتاج الزراعي .[٢]

ملكية الاراض الزراعية :

من المؤكد أن حيازة ملكية الاراضي الزراعية ذات اهمية كبرى من زاوية الانتاج والادارة والتوزيع لانها تؤثر في دوافع الانتاج والاساليب الفنية في الزراعة ، كما تؤثر في انماط الملكية والحيازة . وكان المسؤولون في الدولة قد حسموا منذ وقت مبكر مسألة ملكية الاراضي الزراعية التي انضوت تحت لواء الدولة عنوة وحرباً ، بحيث عدوا رقبة ملكية هذا النوع من الاراضي ضمن مصطلح الملكية العامة التي يجب عدم التفريط بها[٣] ، او جعل الاستفادة منها مقتصرة على فئة محدودة من الناس . وانما هي فيء يشترك به جميع المسلمين[٤] وبذلك لم يتم توزيع اربعة اخماسها على الجند الذين اسهموا في

---

[٢] ابو يوسف ، الخراج ، ص١١٤ . ابن زنجوية ، الاموال ، ج١ ، ص٢١٣ . اليعقوبي تاريخ ، ج٢ ، ص١٤١ و ٢٢١ . الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص١٧٥ .

[٣] ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٥ . ابن آدم ، الخراج ، ص٢٧ و ٤٨ . ابو عبيد ، الاموال ، ص٥٨ .

[٤] ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٥ . ابن آدم ، الخراج ، ص٤٨ .

تحريرها ، على اساس انها جزء من الغنيمة .[٥]

وهنا يتضح ان موقف اصحاب الاراضي الزراعية ، في الانبار وغيرهم من اقاليم الدولة العربية الاسلامية هو الذي حدد طبيعة ملكية الاراضي . فالاراضي التي انضوت تحت لواء الدولة بمجهود قتالي اصبحت ضمن مصطلح الملكية العامة ، إذ ظل زرّاعها السابقون يستثمرونها ويؤدون عنها ضريبة الخراج . فموقعهم والحال هذه موقع المزارع المنتفع من انتاج هذه الارض لاغير.[٦] في حين تصبح ملكية الاراضي التي ينضوي اهلها تحت لواء الدولة سلماً ، ملكية حيازة وانتفاع ، اذ يصبح هؤلاء يمتلكون رقبة ملكية الارض ، ولا تقع عليهم تبعات مالية للدولة عدا زكاة انتاجهم الزراعي منها عندما يبلغ النصاب .[٧]

واحسب ان بعض اراضي كورة الانبار الزراعية خضع للدولة العربية الاسلامية عنوة وحرباً ، وبذلك اصبحت ملكيتها للامة ، اذ اورد (خليفة بن خياط) رواية مقتضبة رفعها الى الشعبي مؤداها ان اهل

---

[٥] ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٤ و ١٤٠ . ابن آدم ، الخراج ، ص٢٧. ابو عبيد ، الاموال ص٨٣ . ابن زنجويه ، الاموال ، ج١ ، ص١٩٤ . قدامة ، الخراج ، ص٣٦٢ .

[٦] ابن آدم ، الخراج ، ص٤٨ . قدامة ، الخراج ، ص٣٦٢ .

[٧] ابو يوسف ، الخراج ، ص ص٥١ ـ ٥٢ و ٥٦ و ٧٠ . ابن آدم ، الخراج ، ص١١٣ و ١١٦ . ابن زنجويه ، الاموال ، ج٣ ، ص٣٩ ، الشافعي ، الام ، ج٢ ، ص٣٠ .

مدينة الانبار صالحوا القائد خالد بن الوليد على مبلغ من المال يؤدونه عن رؤوسهم وارضهم ، وذلك في اواخر سنة ١٢هـ/٦٣٣م.[٨]

واذا اخذنا برواية الشعبي التي أوردها (أبو يوسف) و(ابن آدم)، والتي مؤداها : انه لم يكن لاهل العراق عهد الا الحيرة ، وعين التمر ، واهل أليس[٩] وبانقيا[١٠] . اذن نستطيع ان نجزم ان الاراضي الزراعية المحيطة بمدينة الانبار تقع ضمن مصطلح الارا ضي الخراجية التي جعلت ملكيتها للامة ، وان مستثمريها لهم حق الانتفاع فقط ، دون حيازتها[١١]. ومما يعزز هذه الفرضية ويؤكدها ان (الطبري) قال : ان القائد خالد بن الوليد خرج من الحيرة في تعبئته وقصد الانبار وحاصرها وضيق عليها الحصار ، ورفض العرض الذي قدمه قائد الجيش الفارسي (شيرزاذ) ، واصر على شروط وضعها هو بنفسه ، وخاض قتالا مريراً مع اعدائه حيث طَمَر أضيق مكان في الخندق الذي كان يحيط بمدينة الانبار ، بجثث الابل الهزيلة التي أمر بنحرها والقائها في الخندق ، ثم اقتحم الخندق من فوق جثث الابل التي نُحرت الامر الذى اضطر قائد الجيش الساساني الى ان ينزل الى شروط القائد خالد

---

(٨) ابن خياط ، تاريخ ، ج١ ، ص٨٥ .

(٩) أليس : قرية عراقية تابعة للانبار متاخمة للبادية . (ينظر : الطبري ، تاريخ ، ج٣ ، ص٤٧٣) . وياقوت البلدان ، ج١ ، ص٣٢٨) .

(١٠) بانقيا : من مدن العراق الغربية . (ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج١ ، ص٣٣١) .

(١١) ينظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٨ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ .

بن الوليد يقبل بها مرغما[١٢]. والذي يعنينا من هذا الامـــر ونريـد أن نؤكده أن مدينة الانبار وما حولها خضعت للجيش الاسلامي بعد مجهود قتالي شديد الوطأة على الطرفين ، وان اهلـــها قبلـوا بـأن يسـتمروا باستثمار أراضيهم الزراعية على ان يدفعوا ضريبة الخراج عنـــها ، وصاروا ذمة .[١٣]

وتشير النصوص الى أن (حصيد)[١٤] خضعت للقائد القعقـاع بن عمرو التميمي عنوة وحربـــا ،[١٥] وان جيـش المسـلمين دخـل (الخنافس)[١٦] بسهولة ، إذ انهزم جيش العدو منها بمجـــرد سـماعه بتقدم الجيش الاسلامي الذي كان يقوده (ابو ليلى بـــن فَدكـــيّ)[١٧] ، وخضعت (الرُضاب) للقائد خالد بن الوليد بعد أن إنهزم الجيش الـذي

---

(١٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ و ٣٨٥. ابن الاثير ، الكامل ج٢ ، ص٢٦٩ .

(١٣) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٧٥ . ابـــن الاثـير ، الكـامل ، ج٢ ، ص٢٦٩ .

(١٤) حصيد : موضع في اطراف العراق من جهة الجزيرة . (ينظـــر : يـاقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص٢٦٦ .

(١٥) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٨٠ . ابن الاثير ، الكـامل ، ج٢ ، ص ص٢٧١ ــ ٢٧٢ .

(١٦) الخنافس : ارض للعرب في اطراف العراق قرب الانبار . (ينظر يـــاقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص٣٩١) .

(١٧) الطبري : تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٨٠ . ابـن الاثـير ، الكـامل ، ج٢ ، ص٢٧٢ .

كان يقاوم بها[١٨] . وخضعت (الفراض) لجيش المسلمين الذي كان يقوده خالد بن الوليد بعد مجهود قتالي شديد [١٩] .وذكر (الطبري) أن أهل هيت استجابوا لقائد جيش المسلمين الحارث بن يزيد العامري[٢٠] . وبذلك تكون كورة الانبار قد انضوت تحت لواء الدولة العربية الاسلامية عنوة وحرباً الامر الذي جعل رقبة ملكية اراضيها الزراعية للامة ، على وفق النهج الذي سارت عليه الدولة .

ومع ذلك توجد أماكن أُخر من كورة الانبار دخلت حضيرة الدولة على وفق مصطلح (الصلح) الذي نص فيه عقد الصلح على أن ملكية رقبة الاراضي الزراعية للمسلمين (للامة) كما نص على مقدار معين من المال جزية على رؤوس الذميين ، ووضع مقدارا آخر من المال خراجا على أرضهم التي تسمح لهم ان يستمروا باستثمارها . وقال الفقهاء : إن أصحاب هذا النوع من الاراضي تنازلوا عن ملكيتها للمسلمين بموجب عقد الصلح . وبذلك فهم لا يملكون رقبتها ، ولكن لهم الافضلية في استثمارها إن رغبوا في ذلك ، إذ هم أحق بها من غيرهم .[٢١]

---

(١٨) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٨٣ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٢ ، ص٢٧٤ .

(١٩) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٨٤ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٢ ، ص٢٧٢ .

ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج٤ ، ص ص٢٤٣ ــ ٢٤٤) .

(٢٠) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٨٤ .

(ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج٥ ، ص٤٢١) .

(٢١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص١٣٧ و ١٤٧ .

وبجانب ذلك اشارت النصوص الى وجود أراضي في كـــورة الانبار ضمت للدولة هي واهلها سلماً[٢٢] ، وبذلك أصبح هؤلاء يمتلكون رقبة أراضيهم الزراعية ، ويستثمرونها ويؤدون عشر انتاجها . وهـــو مقدار الضريبة التي فرضت عليها . وان هذا المقدار كانت له علاقـــة وطيدة ومباشرة بمواقف اهل تلـــك الاراضـــي مـــن الدولـــة العربيـــة الاسلامية ، وكيفية انضوائهم تحت لوائها .[٢٣]

ويشير (الطبري) الى أن أهل الانبار وما حولها ما لبثـــوا أنْ نقضوا بنود الصلح التي عقدوها مع القائد خالد بن الوليد ، ما خلا أهـلـ البوازيج فانهم ثبتوا على عهدهم ، كما ثبت أهل بانقيا[٢٤] وأُليـــس[٢٥] . وذكر (الطبري) أنَّ القائد سعد بن ابي وقاص كتب الى الخليفة عمـــر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائلا : (... وان جميـــع مـــن صـــالح المسلمين من أهل السواد قبلي أَلْبٌ لاهل فارس قد خفـــوا لـــهم ، فـــهم يحاولون انفاصنا واقحامنـــا)[٢٦] . وفـــي روايـــة أخـــرى أوردهـــا (الطبري) مؤداها انه لم يفِ من أهل الســـواد بعـــهودهم (الا أهـــل بانقيا ، وبَسْما ، وأهل أُلَّيس)[٢٧] . وكان أهل الســـواد قـــد ادعـــوا أنَّ

---

(٢٢) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٧٥ .

(٢٣) ابو يوسف ، الخراج ، ص٦٩ .

(٢٤) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٣٧٥ . ابـــن الاثـــير ، الكـــامل ، ج٢ ، ص٢٦٩ .

(٢٥) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٤٧٣ .

(٢٦) ن.م ، ج٣ ، ص٤٩٢ .

(٢٧) ن.م ، ج٣ ، ص٥٨٤ .

الفرس اكرهوهم وحشروهم وأجبروهم على محاربة المسلمين[٢٨]. وكان المسلمون قد اتبعوا مبدأ اساسياً في هذا الشأن مؤداة أنه : من تم على عهده من أهل السواد ولم يعين لهم بشيء فلهم الذمة ، وعليهم الجزية [٢٩]. فهؤلاء صاروا ذمة ، وصارت أرضهم لهم[٣٠] . اما الذين كرهوا ذلك المبدأ فقد خول الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائد الجيش أنْ يعد أرضهم جزءاً من الغنائم التي يجب أنْ تُقسم أربعة اخماسها بين الجند الذين اسهموا في الحصول عليها ، ويؤول الخمس الباقي لبيت مال المسلمين[٣١] . وقد طبق هذا المبدأ على المزارعين وملاك الاراضي الزراعية من أهل السواد عامة ، وأهل الانبار خاصة .[٣٢]

تنوع المحاصيل الزراعية :

من المفيد أن نذكر أن كورة الانبار تتبعها قصبات وقرى عديدة ، نذكر منها الفلوجة[٣٣] ، وقرنجل[٣٤]. قال ابن رستة[٣٥] : إنَّ

---

(٢٨) ن.م .

(٢٩) ن.م ، ج٣ ، ص٥٨٥ .

(٣٠) ن.م ، ج٣ ، ص٥٨٧ .

(٣١) ن.م ، ج٣ ، ص٥٨٦ .

(٣٢) ينظرأبو يوسف ، الخراج ، ص٢٥ و ٣٥ . ابن آدم ، الخراج ، ص٤٨ . أبو عبيد ، الاموال ، ص٥٨ .

(٣٣) ينظر : ابن الاثير ، اللباب في تهذيب الانساب ، ج٣ ، ص٥٢ . ياقوت ، البلدان ، ج٤ ، ص٢٧٥ .

(٣٤) ابن الاثير ، اللباب ، ج٣ ، ص٢٩ .

(٣٥) الاعلاق النفيسة ، ص١٠٧ . (ينظر ابن حوقل ، صورة الارض ، ص١٣).

هيت وعانات داخل حدود السواد ، وتعدان من طسوج[٣٦] الانبار . وتميزت كورة الانبار بخصوبة تربتها ، ووفرة مياهها ، وملاءمة مناخها لانتاج محاصيل زراعية متنوعة ذات قيمة اقتصادية كبيرة . فضلا عن وجود الانسان الذي استطاع ان يستثمر هذه المميزات على الوجه الامثل ، فحقق نهضة زراعية مشهودة ، استطاع من خلالها التأثير بشكل فاعل في الجوانب الاقتصادية والمالية للدولة العربية الاسلامية .

ومما ساعد في ازدهار النشاط الزراعي في كورة الانبار ، أن هذه المنطقة تمتلك أراضي واسعة ومنبسطة وذات خصوبة عالية ، وانها لا تحتاج الى صرف المياه كما هو الحال في بعض مناطق العراق الاخرى ، التي اقتربت مياهها الجوفية كثيراً من سطح الارض ، الامر الذي ادى الى ظهور السباخ فيها التي من شأنها التقليل من انتاجية التربة . وكان الرحالة (ابن بطوطة) قد زار كورة الانبار في مطلع عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م إذ سلك الطريق بين بغداد و (عانة) عبر الانبار وهيت وحديثة . ولدى مروره في هذه المنطقة وجدها مزروعة بعناية فائقة ، ووجد نفسه باستمرار بين بساتين مثمرة ، وحقول مزروعة وممتدة ، وبيوت مأهولة . مما دفعه الى مقارنة هذه المنطقة بالوادي الرئيس الخصيب جداً في الصين .[٣٧] وقال الاصطخري إن الاراضي المجاورة لنهر عيسى والممتدة بين بغداد

---

(٣٦) الطسوج : لفظة تعني المنطقة الزراعية ، او الارض المزروعة . (ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج٣ ، ص١٤١ . الزبيدي ، تاج العروس ، ج٢ ، ص٧٠) .

(٣٧) ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ص٣١٤ .

والفرات كانت كثيفة الزرع لدرجة معها يصعب التمييز بين المزارع المختلفة[٣٨] ، وكانت عامرة بالمدن والقرى[٣٩] . وتتمتع (بادوريا)[٤٠] بمزايا خاصة ، إذْ تجمع بين خصوبة التربة والري المنظم ، حيث تسقى من نهر عيسى وفروعه الذي يأخذ ماءه من الفرات قرب الانبار . ووصف الاصطخري في (مسالكه) بانها مدينة عامرة ، ذات نخل وزرع وشجر[٤١] . وقال عنها الادريسي : الانبار مدينة مزدحمة بالسكان ، لها اسواق عامرة ، وبساتين واسعة تزرع فيها انواع الاشجار والخضراوات .[٤٢]

وتعد الحبوب منها الحنطة والشعير في مقدمة المحاصيل الزراعية التي ازدهرت زراعتها في كورة الانبار . ذلك أنَّ الظروف المناخية والتربة ووفرة المياه كلها عوامل شاركت في ازدهار هذه المحاصيل الزراعية . فضلاً عن جهد الانسان الذي كابد الطبيعة وذلل معوقاتها كي يحصل على كفايته من الغذاء[٤٣] . ومن الحبوب الاخرى التي زرعت في كورة الانبار الدخن والسمسم الذي استفاد منه السكان

---

(٣٨) المسالك والممالك ، ص٨٥ .

(٣٩) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢٤٣ .

(٤٠) بادوريا : طسوج في غرب بغداد يرويه نهر عيسى وفروعه . (ينظر : ابن الفقيه الهمداني ، بغداد ، ص٤٤ . ويقول ياقوت : هو محسوب على كورة نهر عيسى بن علي (ياقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص٢٩ ـ ٣٠) .

(٤١) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٧٧ .

(٤٢) الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص١٤٤ .

(٤٣) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص٧٧ و ٨٠ و ٨٢ .

ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢٤٣ .

بطرق متعددة . إذْ دخل في مجال بعض الصناعات المحلية فاستفادوا من زيته . ولا نستبعد إنتاج محاصيل زراعية حقليه أخرى على الرغم من أنَّ المصادر لاتسعفنا بذلك .

وزرعت النخيل في الانبار والقصبات والقرى التابعة لها على نطاق واسع . فكانت بساتين النخيل ممتدة على ضفاف نهر الفرات والانهار الفرعية التي ترضع منه[٤٤] . وتمتع التمر الذى تنتجه هذه النخيل بشهرة واسعة[٤٥] . وبجنب النخيل زرعت أشجار مثمرة إخرى . ولعل اهمها أشجار الرمان والتين والكروم . هذا فضلا انواع الازهار والرياحين[٤٦] والبصل والثوم وانواع متعددة من الخضراوات الأُخرالتي تركز انتاجها صيفاً ، وهي تسد حاجة سكان المنطقة حينذاك .[٤٧]

اما الطريقة التي كان يتبعها المزارعون في استثمار اراضيهم فهي لا تختلف عما كان شائعاً ومتبعاً في مناطق العراق الأُخر، حيث يتم الحرث بالمحراث البسيط الذي تجره الحيوانات والمعروف آنذاك ، ثم تسوى الارض وتبذر البذور في المحاصيل الحقلية . واحياناً يضاف السماد العضوي الذي يبدو أنه شائع الاستعمال[٤٨] كما أنَّ

---

(٤٤) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٧٣ و ٧٧ .

(٤٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١١٨ . الثعالبي ، لطائف المعارف ،ص١٣٢.

(٤٦) اليعقوبي ، البلدان ، ص٢٦٤ (الطبعة الاوربية) .

(٤٧) الجاحظ ، الدلائل ، ص٢٣ .

(٤٨) ابن بصال ، الفلاحة ، ص٥٥ و ٥٦ و ٥٧ . ابن حجاج الاشبيلي ، المقنع في الفلاحة ، ص٩٠.

المزارع استعمل طريقة المناوبة في زراعة المحاصيل الحقلية . إذ وجد أنها الطريقة المثلى للحفاظ على خصوبة التربة وادامة انتاجيتها .[٤٩]

وقد فطن الوزير القدير علي بن الفرات لخصوبة الاراضي الزراعية القريبة من الانبار وانتاجها الوفير ، فحاول ان يستثمر بعض امواله في تلك الناحية ، إذْ شجع الفلاحين على الانتقال الى كورة الانبار ، وقدم لهم قروضاً من أجل ترغيبهم في دعم العملية الانتاجية في مجال الزراعة والانتاج الزراعي . وقال (الصابي) إنَّ الوزير علي بن الفرات وظف أمواله في النشاط الزراعي في كورة الانبار وحصل على أرباح مجزية من خلال عمله هذا .[٥٠]

ونستطيع أنْ نتلمس أهمية كورة الانبار الاقتصادية وكثرة انتاجها الزراعي مما رواه (الطبري) اذ قال : (انما سميت الانبار ، انبار ، لانها كانت تكون فيها أنابير الطعام ، وكانت تسمى الاهراء ، لان كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها)[٥١] . في حين ذكر (البلاذري) : أنَّ أنابير الحنطة المخزونة في مدينة الانبار لم يقتصر توزيعها على رجال كسرى حسب ، وانما نال اصحاب النعمان بن المنذر ــ صاحب الحيرة ــ نصيبهم وارزاقهم منها[٥٢] واضاف ياقوت: انها سميت مدينة الانبار بهذا الاسم لانه كان يجمع بها أنابير الحنطة

---

(٤٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص١٥٠ .

(٥٠) الصابي ، الوزراء ، ص٢٨١ .

(٥١) الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٣ ، ص٦١١ .

(٥٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٥٥ .

والشعير والقت والتين . وكان الساسانيون يعطون ارزاق جندهم من انتاج المنطقة الزراعية المحيطة بمدينة الانبار .[٥٣]

وثمة دلالات أُخر تظهر أهمية كورة الانبار الاقتصادية والمالية وكثرة مواردها العينية والنقدية ، إذ كانت ترفد بيت المال بموارد كبيرة ومستمرة خلال الحقب التي مرت بها الدولة العربية الاسلامية . ففي هذا الشأن كان مشايخ الانبار قد حدثوا (البلاذري) : ((أنهم صولحوا في خلافة عمر (رضي الله عنه) على طسوجهم ، على اربعمائة الف درهم ، والف عباء قطوانية في كل سنة))[٥٤] . وهذه أول إشارة الى ورود مبالغ من الانبار الى بيت المال . وهذا المبلغ يبدو كبيراً اذا ما قيس بموارد مناطق اخرى من العراق للحقبة نفسها .

وحين تناول (ابن خرداذبة) موارد الاراضي الزراعية في سواد العراق والتي كانت تسقى من مياه نهر الفرات ، بدأ في طسوج الانبار التي كان واردها بعد حصاد الزرع مائتين وخمسين بيدراً[٥٥] كانت حصة بيت المال من هذه البيارد ألفين وثلثمائة كر[٥٦] من الحنطة،

---

(٥٣) ياقوت ، البلدان ، ج١ ، ص٣٦٨ .

(٥٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٥٥ .

(٥٥) البيادر هي اكداس الحنطة والشعير وبعض الحبوب الاخرى حين تجمع بعد حصادها وقبل تسويقها او قسمتها . (ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج٥ ، ص١١٤) .

(٥٦) الكر : مكيال بابلي الاصل . كان يساوي في العراق ٣٠ كارة ، ويساوي ٦٠ قفيزا .
(ينظر : هنتز ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ص٦٩) .

والف واربعمائة كر من الشعير . ومن الوَرِق[٥٧] ثلثمائة وخمسين الف درهم[٥٨] . وهي اقل مما ورد في قائمة (قدامة) التي قدرت في ضوء عبرة سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م ، حيث كان وارد منطقة الانبار لوحدها احد عشر الفا وثمانمائة كر حنطة وستة الاف واربعمائة كر شعير ، واربعمائة الف درهم[٥٩] .

وذكر (ياقوت) ان منطقة بادوريا الزراعية محسوبة على كورة نهر عيسى بن علي ، وانها تروى من هذا النهر الذي يأخذ مياهه من نهر الفرات قرب الانبار[٦٠]. فهي والحال هذه كانت تلحق اداريا بكورة الانبار[٦١] . وبذلك نستطيع أنْ نعد مواردها ضمن موارد كورة الانبار . وكان (ابن خرداذبة) قد ذكر أنَّ طسوج بادوريا انتجت اربعمائة وعشرين بيدراً . رفدت بيت المال بثلاثة الاف وخمسمائة كر حنطة ، والفي كر من الشعير . فضلا عن الفي الف من الورق[٦٢] . وذكر (قدامة) أن طسوج بادوريا رفدت بيت المال بمليوني درهم . وهذا المبلغ يشكل نسبة عشرة في المائة من موارد سواد العراق حسب ما جاء في القائمة التي اوردها قدامة بن جعفر على عبرة

---

(٥٧) الوَرِق : المال من الدراهم ، او الدراهم الفضية . (ينظر : ابن صماتي ، قوانين الدواوين ، ص٣١٠ .

(٥٨) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص٨ .

(٥٩) قدامة ، الخراج ، ص١٦٣ .

(٦٠) ياقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص ص٢٩ ــ ٣٠ .

(٦١) قدامة ، الخراج ، ص١٦١ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٧٨ .

(٦٢) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص٩ .

سنة ٢٠٤هـ/٨١٩ م[٦٣]. وانتجت عين التمر التي كانت تابعة للانبار حينذاك ثلثمائة بيدر . كان نصيب بيت المال ثلثمائة كر حنطة ، واربعمائة كر شعير ، وخمسة واربعين الف درهم [٦٤].وانتجت طسوج مسكن التي عدها (قدامة) من طسوج الانبار ، مائة وخمسين بيدراً . كانت حصة بيت المال ثلاثة الاف كر حنطة ، والفي كر من الشعير ، ومائة وخمسين ألف درهم نقدا[٦٥] . وذكرت موارد الانبار في الميزانية التي اعدها علي بن عيسى آل الجراح سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨ م ، حيث ذكر أن وارد الانبار وقطربل (١٩٨٣١٣ دينار)[٦٦] . وهذا يتضح ان موارد طسوج الانبار ــ العينية والنقدية ــ كانت كبيرة اذا ما قيست بطسوج أخرى من أقاليم الدولة ، وانها كانت تشكل نسبة عالية من موارد بيت المال .

ونرى من المفيد أنْ نذكر أنَّ النصوص اشارت بكثرة الى تعرض المحاصيل الزراعية احياناً الى بعض الافات الزراعية ، لا سيما الجراد الذي كان يأكل الغلال ويتلف الشجر والثمر ، الامر الذي يؤدي الى قلة الانتاج وغلاء أسعار مواد الطعام في الاسواق . ولم يكن للمزارعين من وسيلة فاعلة حينذاك في مكافحته غير إحداث أصوات ، كقرع الطبول والابواق ، أو جمعه في الليل . ومع ذلك فان اسراب الجراد كانت تلحق اضراراً كبيرة في المزروعات عامة . وقد اشارت النصوص الى حصول مثل ذلك ، نذكر منها على سبيل المثال

---

(٦٣) قدامة ، الخراج ، ص ص١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٦٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص١٠ ، قدامة ، الخراج ، ص١٦٤ .

(٦٥) قدامة ، الخراج ، ص١٦١ .

(٦٦) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، ص١٩٣ .

المنطقة . وحتى يمكن الاستفادة من الاراضي الخصبة البعيدة عن مجرى النهر ، ولكي يتم توسيع الرقعة الزراعية ، عمل المسؤولون في الدولة على حفر انهار فرعية وجداول وترع وقنوات تأخذ مياهها من الفرات لتسقي المزارع والحقول البعيدة نسبيا عن مجرى النهر . وقد تحكمت طبيعة الارض وانحدارها نحو الشرق في توجه المسؤولين نحو الضفة اليسرى للنهر ، فشقوا الانهار والجداول والقنوات لهذا الغرض لتروي الاراضي الخصبة بحيث أن بعض هذه المشاريع الاروائية وصلت مياهها الى قرب نهر دجلة ، فسقت الاراضي الزراعية الممتدة الى شرق نهر الفرات حتى مدينة بغداد(٧٠) . وبلا ريب ، فان هذه المشاريع اصبحت مصدرا اساسيا لري مساحات واسعة من الاراضي الزراعية المنتجة ، وقيام مستوطنات سكانية وقرى على امتداد هذه المشاريع .(٧١)

طرق الري :

تروى المزارع والحقول والبساتين في كورة الانبار باساليب عدة ، يتحكم فيها الوضع الجغرافي للارض المراد سقيها . ويأتي اسلوب الري السيحي في مقدمة الانواع وذلك لسعة الاراضي الزراعية التي تسقى بهذا الاسلوب في كورة الانبار ، ولان هذا الاسلوب يكون

---

(٧٠) سهراب ، عجائب الاقاليم ، ص١٢٣ و ١٣١ . الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٨٤ .

ابن الفقيه الهمداني ، بغداد ، ص١٧٥ . ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢١٧ .

(٧١) سهراب ، عجائب الاقاليم ، ص١٢٣ ، الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٨٥ .

قليل الكلفة بعد انجازه ، ولا يتطلب من المزارع الا جهدا محدودا ، كما ان الدولة تسهم عادة في تمويله وادامته[٧٢] . الامر الذي يخفف العبء وبعض المتطلبات المالية عن كاهل المزارع . الا ان هذا الاسلوب لا يخلو من بعض المعوقات التي يأتي في مقدمتها احتمال انخفاض مناسيب المياه في مجرى نهر الفرات في بعض السنين ، مما يولد صعوبة في حصول بعض الانهر والجداول والترع التي تأخذ ماءها من الفرات على حصصها المائية[٧٣] . فضلا عن احتمال انغمار الاراضي الزراعية التي تسقى سيحا بمياه الفيضان في حالة وجود فيضان عال في سنة ما[٧٤] . وعادة يتركز النشاط الزراعي الذي يعتمد على اسلوب الري السيحي على زراعة محاصيل شتوية لتوفر المياه اللازمة في حوض نهر الفرات وقتئذ .

ويعد نهر عيسى اعظم مشروع سيحي ، ليس في كورة الانبار حسب ، وانما في جميع اقاليم الدولة العربية الاسلامية[٧٥] . ويرجع تاريخ حفر نهر عيسى الى ما قبل ميلاد السيد المسيح[٧٦] ، وقد نسب

---

(٧٢) ابو يوسف ، الخراج ، ص٩٧ و ١١٨ . ابن آدم ، الخراج ، ص٦٣ . البلاذري ، فتوح ، ص٣٠٢ . قدامة ، الخراج ، ص٢٤٨ .

(٧٣) سهراب ، عجائب الاقاليم، ص١٢١ . ابن حوقل، صورة الارض ، ص٢١٧.

(٧٤) ينظر : ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٦ ، ص٣٠٠ و ٣١٥ ـ ٣١٦ و ٣٣٥ و ج٧ ، ص١٠٥ .

(٧٥) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص٩٢ ، ابو الفداء ، البلدان ، ص٥٢ .

(٧٦) ابن الفقيه الهمداني ، بغداد ، ص٤٣ .

هذا النهر الى عيسى بن علي عم الخليفة المنصور ، لانه جدد حفره وكريه واصبح ذا جدوى اقتصادية كبيرة خلال العصر العباسي .[٧٧]

ومهما يكن من امر ، فان نهر عيسى كان واسعا ، ومياهه كثيرة وغزيرة بحيث اصبح من الممكن ان تدخل فيه السفن التي تأتي من الرقة محملة بانواع السلع القادمة من بلاد الشام ومصر[٧٨] . ويتفرع نهر عيسى من الجانب الايسر لنهر الفرات جنوب مدينة الانبار ، وعند فوهته قنطرة (دمما)[٧٩] فيتجه شرقا ويقطع أرض الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات ، ويسقى هو وفروعه المزارع والحقول والبساتين الواقعة على جانبيه ، حتى اذا انتهى الى المحول[٨٠] تفرعت منه انهار أقل منه شأنا . وهذه الانهار تصل حتى مدينة بغداد ، وقسم منها يصب في نهر دجلة . ولا تزال آثار هذا النهر العظيم وبعض فروعه العديدة ماثلة للعيان .[٨١]

---

(٧٧) سوسة وجواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ص ٦٣ ــ ٦٤ .

(٧٨) اليعقوبي ، البلدان ، ص١٨ . الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٨٥ . ابن حوقل صورة ، ص٢١٧ .

(٧٩) دمما : قرية شمالي الفلوجة تقع على الفرات . (ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج٢، ص٤٧١) .

(٨٠) المحول : بليدة كثيرة البساتين والفواكه والاسواق والمياه . (ينظر : ياقوت، البلدان ، ج٧ ، ص٤٠٠ ، مطبعة السعادة) .

(٨١) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص١١٢ . الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص٣٧٩ .

ويخرج من نهر عيسى فرع كان يعرف باسم (نهر الرفيل)[٨٢]، ثم سمي فيما بعد باسم نهر عيسى الصغير . وكانت الاراضي الزراعية الواقعة غرب بغداد تسقى من مياه هذا النهر الكبير وفروعه ومنها (نهر الصراة العظمى) و (نهر الصراة الصغرى)[٨٣] . ويتفرع من الضفة اليسرى لنهر الرفيل ــ في موضع يبعد نحوا من ميل تحت صدره ــ نهر يعرف بـ (نهر كرخايا) الذي يمتد بموازاة نهر الرفيل من الشمال مؤلفا شبكة من القنوات بين نهر الصراة ونهر الرفيل ، تسقى الاراضي الزراعية في تلك المنطقة ، والواقعة غربي بغداد .[٨٤]

وعلى مسافة ثلاثة فراسخ اسفل قرية (دمما) حفر مشروع اروائي آخر سمي (نهر صرصر) ، ويسير باتجاه الشرق مع ميل بسيط نحو الجنوب حتى يصل مدينة صرصر .[٨٥] ويسقى نهر صرصر الحقول والبساتين التي تحف به[٨٦] ، واخيرا يصب في نهر

---

(٨٢) نسبة الى اسم احد الدهاقين الذي اسلم على يد القائد سعد بن ابي وقاص .

(٨٣) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص١١٢ . الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٨٤ .

(٨٤) الخطيب البغدادي ، بغداد ، ج١ ، ص٧٩ و ٩١ و ١١٢ ــ ١١٣ . ابن الفقيه الهمداني ، بغداد ، ص٤٤ . الشابشتي ، الديارات ، ص٢١ .

(٨٥) صرصر : مدينة واسعة تقع على نهر صرصر . (ينظر : ياقوت ، البلدان ، ج٣ ، ص٤٠١) .

(٨٦) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص٨٥ . ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢١٧ .

اهمل ولم يعد ينتفع به[٩٠] . ويمكننا ان نعد الاراضي الزراعية التي تروى من مياه العيون التي وجدت في عدة اماكن من كورة الانبار ، ضمن اسلوب الارواء السيحي .

وبجانب اسلوب الري السيحي الذي تناولناه تواً ، يوجد اسلوب الري بالواسطة ، أي بواسطة الالات الرافعة . وهذا الاسلوب يتميز عن الاول بكون الاراضي الزراعية التي تعتمد في ريها عليه تكون محدودة المساحة ، ولا يمكن سقيها سيحاً . كما أَنَّ هذا الاسلوب يستدعي كلفة عالية ، وجهداً كبيراً ، وادامة مستمرة . وكل هذه الامور تقع على عاتق المزارع وحده[٩١] . فهي والحال هذه تثقل كاهله ، وتستنزف جهده . وفي الاعم الاغلب تكون الاراضي التي تروى بالواسطة مزروعة بالنخيل والاشجار المثمرة . ولعل النواعير المنتشرة على ضفتي نهر الفرات من شمال مدينة الانبار وحتى الرقة اوضح نموذج لاسلوب الري بالواسطة في كورة الانبار[٩٢] . واشار (سهراب) و (ابن حوقل) الى استخدام الالات الرافعة ، كالدوالي والدواليب على نهر صُرصر لسقي الاراضي الزراعية في حالة شحة المياه في هذا النهر[٩٣] وبلا ريب إن المزارعين في كورة الانبار وغيرها من اقاليم

---

(٩٠) م . م ، ص٥٦٤ . (ينظر : ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ص ص ١٠٧ـ ١٠٨) .

(٩١) ينظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٨٢ . الطبري ، تاريخ الرسل ، ج٤ ، ص٣٢ .

(٩٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٢٨ .

(٩٣) سهراب ، عجائب الاقاليم ، ص١٢٤ . ابن حوقل ، صورة الارض ، ص٢١٧ .

الدولة العربية الاسلامية أيقنوا ان لكل نوع من المحاصيل الزراعية مقنناً مائياً محدداً خلال مدة انباته . وان ذلك له علاقة وطيدة بنوع المحصول وطبيعته ، وموسم زراعته ، وطول مدة نموه[٩٤] . ومع ذلك نتوقع حصول هدر في الاستعمال المائي ناتج من عدم الاكتراث والتحسب ابان عمليات السقي .

وتميزت كورة الانبار بوجود مساحات واسعة من الاراضي التي تصيبها كميات لا بأس بها من المطر سنوياً . وفي الاعم الاغلب ان هذه الكميات كافية لانبات الحشائش والاعشاب في الهضبة الغربية التابعة لكورة الانبار[٩٥] . وتكون هذه الاعشاب والحشائش مراعي جيدة لبعض الحيوانات ، وفي مقدمتها الاغنام والماعز والابل والخيول والحمير وقطعان الغزلان التي وجدت بكثرة حينذاك ، وقد امتهنت القبائل العربية القاطنة في هذه المنطقة حرفة تربية الحيوانات والاستفادة من منتوجاتها في اغراضها الحياتية المتعددة .[٩٦]

ووجدت في كورة الانبار وديان تنحدر من الهضبة الغربية ، على وفق طبيعة الانحدار العام لسطح ارض الهضبة . وتنتهي تلك الوديان بالجانب الايمن من مجرى نهر الفرات في قسمه الممتد من الرقة لغاية جنوب مدينة هيت ، باتجاه مجرى الفرات[٩٧] . وعلى الرغم من ضآلة مياه هذه الوديان نسبياً ، وان جريانها يتم في موسم سقوط

---

[٩٤] ابن بصال ، الفلاحة ، ص ص٣٩ ـــ ٤٠ .

[٩٥] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٦ ، ص٣٠٠ و ٣١٥ .

[٩٦] ابن الجوزي ، المنظم ، ج٥ ، ص١٧٢ ، و ج٦ ، ص٢ و ٣٩ و ١١٥ و ٢٠٢ . و ج٧ ص١٣١ و ١٣٨ .

[٩٧] الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص٢٤٦ و ٢٩٣ .

المطر عادة ، الا ان لها تأثيراً واضحاً في حدوث غدران وقلت في بطون هذه الوديان ، اذ يمكن الاستفادة من مياهها لشرب الانسان والحيوانات التي يربيها ، فضلا عن اسهامها في انبات بعض الحشائش والشجيرات التي ترعاها الحيوانات . وبجانب آخر فان لهذه الوديان تأثيرات سلبية احيانا . ذلك ان سيولها بغزارة يتوافق مع ذروة فيضان نهرالفرات ، مما يجعل حوض النهر لا يستوعب كميات المياه المتدفقة فيه ، الامر الذي يزيد من احتمال طغيان مياه النهر على الاراضي الزراعية المجاورة له ، واغراق القرى والبساتين والحقول واحداث شحة في الانتاج الزراعي[٩٨] ويكفي ان نشير الى فيضان عام ٣٢٨هـ / ٩٣٩م الذي بلغت زيادة مياه نهر الفرات فيه (احدى عشر ذراعا وانبثق بثق من نواحي الانبار فاجتاح القرى وغرق الناس والبهائم والسباع ، وصب الماء في الصراة الى بغداد ، ودخل الشوارع في الجانب الغربي من بغداد ، وغرق شارع باب الانبار فلم يبق فيه منزل الا وسقط ، وتساقطت الدور والابنية على الصراة ، وسقطت قنطرة الصراة الجديدة ، وبعض العتيقة)[٩٩]. وتكررت هذه الظاهرة الخطيرة سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م ، فكانت اسوأ من سابقتها بكثير .[١٠٠]

وعلى الرغم من ان فيضان نهر الفرات كثيراً ما يلحق ضرراً بالمحاصيل الزراعية الحقلية ، لانه يأتي فجأة وبكميات كبيرة من المياه ، بحيث لا يستوعبها حوض النهر فتهدد باغراق الاراضي

---

(٩٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٦ ، ص٥٠ .

(٩٩) ن . م ، ج٦ ، ص٣٠٠ و ٣١٥ ــ ٣١٦ .

(١٠٠) ن . م ، ج٧ ، ص١٠٥ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٣ ، ص١٠٦ .

الزراعية القريبة من النهر . فضلا عن ان فيضان الفرات يأتي عادة في اواخر فصل الربيع واوائل فصل الصيف . فهو والحال هـــذه لا يفيـد كثيراً المزروعات الشتوية التي تكون حينئـــذ فـــي مرحلـــة النضـــج والحصاد ، او قريباً منهما . اما المحاصيل الصيفية فهي الاخـــرى لا تستفيد من ميـــاه الفيضان كثيراً لانها في بداية النمـــو . الا ان الفيضان لا يخلو من فائدة ، اذ انه يسهم في زيادة الثروة السمكية ، فضلا عمـــا تجلبه مياه الفيضان من الطمى . بقي ان نشير الى ان فيضانات نـــهر الفرات كانت تحدث بثوقاً في سداد النهر بمنطقة الانبار ، وان سد تلـك البثوق كان يتطلب مبالغ كبيرة جداً .[١٠١]

واخيراً نستطيع ان نقول ان نظم الرى في كورة الانبار خـــلال العصور الاسلامية كانت على جانب كبير من الدقة والاتقـــان . فلقـد اقيمت منظومات للـــري لضبـــط ميـــاه نـــهر الفـــرات ودرء خطـــر الفيضان[١٠٢] . وان هذه المشاريع الاروائية ، فضلا عـــن المقومـــات الطبيعية المتوفرة في المنطقة ، هي التي شاركت في توســـيع مســـاحة الاراضي المستثمرة في الزراعة ، كما انها أثرت ايضـــا فـــي زيـــادة الانتاجية الزراعية . الامر الذي يحدونا الى الاعتقاد بان هذه المنطقـــة المزدهرة اقتصادياً ، وهذا الانتاج الوفير الذي وان لم تتمكن المصـــادر التاريخية من حسابه كميا بدقة ، الا اننا لانعدم مـــن وجـــود ايمـــاءات

---

(١٠١) ينظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٣٠٢ . ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٦ ، ص٣٠٠ .

ابن الاثير ، الكامل ، ج٨ ، ص١٢٨ .

(١٠٢) سوسة ، ري العراق القديم ، ص١٣٤ .

وشذرات تلمح الى مقدار حجمه في بعض السنين[١٠٣] . ممـــا يجعلنـــا نعتقد انه انتاج وافر ، وانه كان يفيض عن حاجة سكان المنطقــة[١٠٤] . ثم ان المساحات الزراعية الواســـعة ، والانـــهر والجـــداول والـــترع والقنوات الكثيرة ، وبناء السدود والقناطر ، واعمـــال درء الفيضـــان ، وكرى الانهر وتطهيرها . كل هذه الامور تتطلب أيادي زراعية كبـيرة العدد للابقاء بها .

الثـــروة الحيوانيـــة :

للثروة الحيوانية علاقة وطيدة بالزراعة والنشاط الزراعـــي . اذ لا يمكن الحصول على ثروة حيوانية ذات قيمة جيدة في بلـــد مـــا دون وجود نشاط زراعي مزدهر في هذا البلد . قال (ابن خلدون) (فـــان الزرع هي الاقوات)[١٠٥]. ومن حسن طالع سكان كورة الانبـــار ان ازدهر فيها النشاط الزراعي ، فضلا عن وجـــود مســـاحات خضـــراء واسعة فيها انواع الشجيرات الصغيرة والحشائش والاعشاب التي كانت تكسو جُلّ سطح الهضبة العربية في اواخر فصل الشتاء ، وخلال فصل الربيع ، وبداية فصل الصيف ، وحتى خلال فصـــل الصيـــف كـــانت قطعان الاغنام والماشية ترعى الاعشاب والحشائش الجافة التـــي هـــي بقايا تلك المساحات الخضراء التي ازدهرت في فصل الربيع .

---

(١٠٣) ينظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممـــالك ، ص٨ و ٩ و ١٠ . قدامـــة ، الخراج ، ص١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ .

(١٠٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٢٥٥ . الطـــبري ، تـــاريخ الرســـل ، ج١ ، ص٦١١ .

ياقوت ، البلدان ، ج١ ، ص٣٦٨ .

(١٠٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص٣٤٨ .

وتأتي الاغنام والماعز في مقدمة الحيوانات التي كانت تربى في كورة الانبار والتي يستفاد من لحومها وصوفها ، او شعرها ، وجلودها وحليبها ومشتقات الحليب . وبعدها يأتي الابل التي هي الاخرى يستفاد من لحومها ووبرها وجلودها وحليبها ، فضلا عن امكانية الاستفادة منها ، هي والخيول والحمير ، في الركوب والنقل وبعض الاستعمالات اليومية الاخرى . ونستطيع أن ندرك الفائدة الكبيرة التي يمكن ان يحصل عليها الذين يربون هذه الحيوانات من قول (ابن خلدون) : (... لابد له من دوجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب)[١٠٦]. واخيراً ان اهم ما يمكن ان نشير اليه بشأن ملكية الاراضي الزراعية ونظام الري في كورة الانبار ، هو ان المسؤولين في الدولة العربية الاسلامية كانوا قد حسموا منذ وقت مبكر مسألة ملكية الاراضي الزراعية المحررة عنوة وحرباً ، حيث عدوا رقبة ملكيتها للامة . وان الاراضي التي انضوت تحت لواء الدولة سلماً ظل ملاكها السابقون حق الحيازة والانتفاع . كما ان المسؤولين في الدولة قاموا باحياء واستصلاح اراضي جديدة ، كما انهم انشؤوا مشاريع ري جديدة ، وعملوا على ادامة مشاريع الري القديمة فحصلت حركة دؤوبة ونشطة في هذا الاتجاه ، حيث حفرت الانهار ، وشقت القنوات والجداول والترع ، وسدت البثوق ، وشيدت القناطر والمسنيات لتأمين المياه الضرورية للمزارع ولحمايتها من اخطار الفيضان ، فازدهر النشاط الزراعي في كورة الانبار وحصلت زيادة واضحة في الانتاج قطف سكان المنطقة ثمارها .

---

(١٠٦) ن ٠ م ٠

أهم المصادر والمراجع

ابن الاثير ــ علي بن أبي الكرم بن محمد (ت٦٣٠هـ) .

الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، (بيروت : ١٩٦٧).

ابن آدم ــ يحيى القرشي (ت ٢٠٣ هـ) .

كتاب الخراج ، دار المعرفة للطباعة والنشر، (بيروت:١٩٧٩).

ابن بصال ــ ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن بصال الطليطلي .

كتاب الفلاحة ، مطبعة كريما ديس تطوان ،(المغرب :١٩٥٥).

ابن بطوطة ــ محمد بن عبد الله بن ابراهيم الطنجي (ت ٧٧٩هـ) .

تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، مطبعة وادي النيل (القاهرة ، ١٢٨٧هـ) .

ابن الجوزي ــ عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ) .

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٧هـ).

ابن حجاج الاشبيلي ــ احمد بن محمد (ألف الكتاب سنة ٤٦٤هـ) .

المقنع في الفلاحة، منشورات مجمع اللغة العربية،(الاردن:١٩٨٢).

ابن حوقل ــ أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٦٧هـ) .

صورة الارض ، منشورات مكتبة الحياة ، مطبعة بيبان وشركاه (بيروت بلا) .

ابن خرداذبة ــ ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) .

المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، (ليدن : ١٨٨٩) .

ابن خلدون ــ عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ) .

مقدمة ابن خلدون ، طبعة بالاوفسيت ، مكتبة المثنى (بغداد بلا) .

ابن خياط ــ خليفة بن خياط (٢٤٠هـ) .

تاريخ خليفة بن خياط ، مطبعة الادب (النجف : ١٩٦٧) .

ابن رستة ــ احمد بن عمر (ت ٣١٠هـ) .

الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل (ليدن : ١٨٩١م) .

ابن زنجويه ــ حميد بن زنجويه (ت٢٥١هـ) .

كتاب الاموال ، مطبعة بساط ، (بيروت : ١٩٨٦) .
ابن الفقيه الهمداني ــ احمد بن محمد (ت ٢٩٠هــ) .
بغداد مدينة السلام ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، (باريس : ١٩٧٧) .
ابن صماتي ــ اسعد بن المهذب (ت٦٠٦هــ) .
كتاب قوانين الدواوين ، مطبعة مصر ، (القاهرة ١٩٤٣) .
ابن منظور ــ ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هــ) .
لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، (بيروت ١٩٥٦) .
ابو عبيد ــ القاسم بن سلام (ت٢٢٤هــ) .
كتاب الاموال ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : ١٩٨٦) .
ابو الفداء ــ عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هــ) .
تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، (باريس : ١٨٤٠) .
ابو يوسف ــ يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هــ) .
كتاب الخراج ، دار المعرفة للطباعة والنشر ،(بيروت ١٩٧٩) .
الادريسي ــ ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس (ت ٥٦٠هــ) .
نزهة المشتاق ، تحقيق الدكتور ابراهيم شوكة ، دار اليمامــة ، (الريــاض : ١٩٧١) .
الاصطخرى ــ ابو اسحق ابراهيم بن محمد (ت٣٤٦هــ) .
المسالك والممالك ، مطبعة بريل ، (ليدن : ١٩٢٧) .
البلاذري ــ احد بن يحيى (ت ٢٧٩هــ) .
فتوح البلدان ، مطبعة الموسوعات ، (مصر ١٩٠١) .
الثعالبي ــ عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩ هــ) .
لطائف المعارف ، دار احياء الكتب العربية ، (مصر: ١٩٦٠).
الخطيب البغدادي ــ ابو بكر احمد بن علي (ت ٤٦٣هــ) .
تاريخ بغداد او مدينة السلام ، مطبعة السعادة ،(القاهرة :١٩٣١) .
الدوري ــ عبد العزيز (الدكتور) .

تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف (بغداد : ١٩٤٨) .
الدينوري ــ احمد بن داود (ت ٢٨٢هــ) .
الاخبار الطوال ، مطبعة بريل ، (ليدن ١٨٨٨) .
سوسة ــ احمد نسيم (الدكتور) .
وادي الفرات ومشروع بحيرة الحبانية ، مطبعة الحكومة (بغداد ١٩٤٤) .
سهراب ــ (توفي سنة ٣٣٤هــ) .
عجائب الاقاليم السبعة ، مطبعة آرولف هولز هوزن ، (فينا ١٩٢٩).
الصابي ــ الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هــ) .
كتاب الوزراء ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، (بيروت ١٩٠٤).
الطبري ــ محمد بن جرير (ت٣١٠هــ) .
تاريخ الرسل والملوك ، مطابع دار المعارف (القاهرة :١٩٦٦).
قدامــة ــ ابن جعفر الكاتب (ت٣٣٧هــ) .
الخراج وصناعة الكتابة ، دار الحرية للطباعة ،(بغداد:١٩٨١).
الماوردي ــ ابو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هــ) .
الاحكام السلطانية والولايات الدينية ، دار الكتب العلمية (بيروت : ١٩٧٨) .
المقدسي ــ شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت٣٨٧هــ) .
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، مطبعة بريل (ليدن : ١٩٠٦) .
هنتــز ــ فالتــر .
المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة كامل العسلي(عمان : ١٩٧٠).
ياقوت ــ ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت٦٢٦هــ) .
معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت (بيروت ١٩٥٧) .
اليعقوبي ــ احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت٢٩٢هــ) .
ــ البلدان ، المطبعة الحيدرية ، (النجف ١٩٥٧) .
ــ تاريخ اليعقوبي ، منشورات المكتبة الحيدرية ،(النجف : ١٩٦٤).

مستوى التحصيل النحوي لدى طلاب معهد الفنون الجميلة

إعداد أ . د . حسن علي العزاوي

كلية التربية ـ ابن رشد

أ. م. د. سعد علي زاير

كلية التربية ـ ابن رشد

م. م. إيمان إسماعيل عايز المياحي

معهد الفنون الجميلة

الملخص :

يهدف البحث هذا الى معرفة المستوى التحصيلي النحوي لدى طلاب معهد الفنون الجميلة في بغداد .

وبغية التحقق من هذا الهدف فان الباحثين اختاروا (١٥٠) طالباً (عينة البحث) من (٦) أقسام معهد الفنون الجميلة ببغداد .

ومن ثم أعدّ الباحثون اختباراً تحصيلياً متسماً بالمواصفات العلمية كالصدق والثبات والتمييز ، وطبقوه على عينة البحث ، وتبين ان الطلاب (عينة البحث) أخطأوا في الموضوعات النحوية جميعاً .

واسباب ذلك عديدة من أبرزها ، اعتماد طلاب المعهد في دراستهم للقواعد النحوية على الحفظ والاستظهار من دون فهم القاعدة النحوية ، وقلة التدريبات والتطبيقات النحوية ، فضلاً عن اعتقاد الطلبة ان مادة اللغة العربية مادة مساعدة ، فلا تعامل باهتمام مثل المواد الدراسية الاخرى (الاختصاص) .

وقد اوصى الباحثون بتوصيات عدة منها : ـــ

١ـــ الاهتمام بالتدريبات والتطبيقات النحوية ، واعتمادها اساساً في التدريس .

٢ ـــ الاقتصار على ما هو ضروري من آراء النحويين في المسألة الواحدة ذات الخلافات المتعددة .

واقترح الباحثون مقترحات منها دراسة مماثلة للدراسة الحالية في معاهد الفنون الجميلة الاخرى ، ودراسة تعرّف أخطاء التدريسين النحوية ، وعلاقتها بالاخطاء النحوية لطلبتهم في معاهد الفنون الجميلة .

الفصـل الأول

مشكلـة البحث وأهميته وأهـدافه وحـدوده

مشكلة البحث

حظيت مشكلة ضعف القواعد النحوية بالنصيب الأوفر من بيـن مشكلات تدني المستوى اللغوي ، فيشير " احمد " ان مستوى المتعلميـن في اللغة العربية ينحدر انحداراً متعرجا وسوف تأسـى لمـا آل اليـه مستوى اللغة العربية من التدهور والانـهيار (احمـد ١٩٨٣ ، ص : ١٦٩) .

وقد انطلقت الشكـوى منذ سنين ، وتزايـدت فـي السـنوات الأخيرة ، فعقدت من اجلها الندوات ، والمؤتمرات ، والمحاضرات فـي الأوساط التربوية ، وكلها تشير الى تدني المستوى اللغـوي لخريجـي المدارس والجامعات في مختلف الأوساط والاختصاصـات (السـيد ، ١٩٨٨ ، ص : ٢٧٥) .

وعلى الرغم من العناية والاهتمام الذي تحظى بهما اللغة العربية إلا أن القطاعات التعليمية ما زالت تشكو من ضعف المتعلمين وتدنـي مستواهم التحصيلي، ومـن هذا المنطلق تبين للباحثين ان هناك مشكلة

تخلص في تدني مستوى الدارسين النحوي بالمراحل الدراسية المختلفة ولا سيما الاقسام غير الاختصاصين ، وان وجود هذه المشكلة وتعالي شكاوي المربين أعطى مكانة لدراسة هذه المشكلة ، ويعتقد الباحثون ان هذا البحث قد يسهم بوضع الحلول والمقترحات التي تؤدي بالنهوض لمستوى الطلاب في القواعد النحوية في معهد الفنون الجميلة .

أهمية البحث :

يحتل النحو المكانة الأولى في القدرات اللغوية ، بل هو عمادها ومن ابرز خصائصها ومميزاتها ، وقد أكد ذلك اللغويون القدامى منهم والمحدثون إذ عدوا النحو من اشد خصائص اللغة العربية وضوحا وهو المعول عليه في الكلام للتميز بين دلالات الصيغ والتراكيب اللغوية (ابن فارس ، ١٩٦٤ ، ص : ٦٦) .

وللنحو منزلة كبيرة في العلوم اللغوية ، كمنزلة الدستور في القوانين الحديثة ، فهو دعامتها ودستورها الأعلى ، فلن تجد علما يستقل بنفسه عن النحو ، أو يستغني عن معونته ، أو يسترشد بغير نوره وهداه (خاطر ، ٢٠٠٠ ، ص : ١٨٣) . فعن طريقه تزداد المادة اللغوية بفضل ما يدرسه ويبحثه من أمثلة ، وما يعرفه من شواهد ، وهي كذلك تنظم معلوماته اللغوية تنظيماً يسهل عليه الانتفاع بها (الابراشي ، ١٩٥٨ ، ص : ٢٤٦) .

فالنحو مرحلة من مراحل نمو اللغة ، ومظهر من مظاهر رقيها . إذ هو بهذا الاعتبار وليد العقل ، واللغة وليدة الحس في نشأتها الأولى ، ومن هنا يظهر إن النحو لا ينشأ مع نشأة اللغة بل هي سابقة له (عون ، ١٩٥٢ ، ص : ١) .

ووصفه : " ارسطو " انه منطق الكلام ، فغايته أن يوضح علاقة الكلمة في الجملة بغيرها من الكلمات ، وباتضاح هذه العلاقة يتضح المعنى الذي يراد للسامع (الرحيم ، ١٩٧١ ، ص : ٨) .

وللنحو فوائد تربوية في صحة الأسلوب وسلامة التراكيب ووظائفها وتقويم اللسان في النطق والكتابة وفي فهم الكلمة في الجملة ، والجملة مع الجملة حتى تتسق العبارة وفقا لأسلوب سليم خال من التشويه يؤدي إلى معنى ويصبح ذا حلية وزينة في التعبير (مصطفى ، ١٩٥٩ ، ص : ٨١) .

ويعد النحو إحدى وسائل المعرفة ، وواحدة من أدوات التثقيف التي من خلالها يقف المرء على ما يطرحه العقل البشري ، فالكتابة تعد مفخرة العقل البشري من خلالها يستطيع الإنسان أن يعبر عن أفكاره وهو مهم في العملية التربوية لانه من سمات الثقافة البشرية (مجاور ، ١٩٧٢ ، ص : ١٢٨) . وذلك لان وضوح الكلمة المكتوبة وصحتها يساعد على وضوح المعنى في اللغة المكتوبة ويساعد من ناحية أخرى على سلامة النحو العربي والحفاظ عليه كضرورة لازمة (ابراهيم / ب . ت . ص : ١٥٦) .

ان معرفة مستوى الدراسة التي وصل إليها المتعلمون مسألة مهمة ، فقد شعر المربون بها قديما بالحاجة الى قياس المستوى في التقدم ، والتأخر عند طلبتهم ، والحاجة الى التعرف على نواحي الضعف منهم ، وقياس مدى نجاح جهودهم ، وطرائقهم في التدريس بقياس ما يظهره طلبتهم من تقدم فيما يدرسونه .

إن الوصول الى تقدير المستويات يعد حجر الزاوية في عملية التعلم ، فهو الوسيلة المتفق عليها في معرفة الى أي مدى حققت التربية أهدافها (الغريب ، ١٩٧٧ ، ص : ٣١) .

إن قياس المستوى ضروري ، تبدأ منذ بداية الموقف التدريسي ، وتستمر معه حتى يتم التوصل الى اقتراحات وبرامج من أجل تحسين مستوى التحصيل اللاحق وتطويره ، فهو ضروري في معرفة الخبرات التعليمية لدى المتعلمين وتشخيص ما يوجد لدى الطلبة من خبرات تم استيعابها لتحديد نواحي القوة والضعف ، ومن اجل إجراء صيانة وتحسين (قطامي ، ٢٠٠٠ ، ص : ٢٥٢) .

ولا يقتصر معرفة المستوى عن تقدم أو تأخر الطالب ، وانما يقدم تغذية مرتدة للطالب والمعلم إذ تساعده في زيادة دافعية الطالب وتشجيعه على تكوين عادات استذكار جيدة ، وتعريفه بجوانب القوة والضعف في تحصيله أو أدائه لذا يؤدي الى إثراء عملية التعليم (علام ، ٢٠٠٠ ، ص : ٣٨) .

أما من ناحية المدرس فتساعده على معرفة مدى تقدمه نحو بلوغ الأهداف من خلال تعديل استراتيجيات التدريس ، والوسائل التعليمية ، وأساليب التقويم وأدواته ونموها من عناصر منظومة التدريس لجعلها اكثر كفاية . وفاعلية في أحداث التعلم المرغوب فيه لدى الطلاب .

وكذلك ان معرفة المستوى عملية مهمة في العملية التعليمية إذ تساعد المخططين التربويين بتزويدهم بالمعلومات الأساسية عن الظروف التي تحيط بعملية التدريس ، (زيتون ، ٢٠٠١ ، ص : ٤٧٧) والتنبؤ بالنجاح في البرامج الدراسية اللاحقة (مادوس ، ١٩٨٣ ، ص : ٤٧٨) ، مما يؤدي الى التقدم في مستوى التحصيل العملية التعليمية وهو أحد العوامل التي تقرر مستوى التطور الحضاري للمجتمع (الشبلي ، واخرون ، ١٩٧٦ ، ص : ١٦) .

ومما ذُكر يمكن تلخيص أهمية البحث بما يأتي :

١ ـ أهمية اللغة العربية .

٢ ـ أهمية النحو (القواعد) .

٣ ـ أهمية تحديد المستوى .

٤ ـ إمكانية إفادة الجهات المختصة من نتائج البحث الحالي .

هدف البحث :

يهدف البحث الحالي الى معرفة مستوى التحصيل النحوي لدى طلاب معهد الفنون الجميلة في بغداد .

حدود البحث :

يتحدد البحث الحالي بـ :

١ ـ المادة النحوية فقط .

٢ ـ طلاب الصف الخامس في معهد الفنون الجميلة في بغداد .

٣ ـ العام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ .

تحديد المصطلحات :

١ ـ المستوى

المستوى لغة : ـ سوى يسوى سوى الرجل : استقام أمره ، سوي الشيء : جعله سويا . يقال " سويت المعوج فيما استوى " أي أقمته فيما استقام " ضعه مستويا " (معلوف ، ١٩٨٦ ، ص : ٣٦٥) .

المستوى اصطلاحا :

عرفه " عاقل ١٩٧١ " بأنه " مستوى الإنجاز الذي يرغب الفرد في الوصول إليه أو الذي يشعر انه يستطيع تحقيقه" (عاقل ، ١٩٧١ ، ص : ٦٥) .

وعرفه " زكي ١٩٨٠ " بأنه هو بلوغ مقدار معين من الكفاية في الدراسة وتحدد ذلك اختبارات التحصيل المقننة ، أو تقديرات المدرسين ، أو الاثنين معا (بدوي ، ١٩٨٠ ، ص : ١٧) .

التعريف الإجرائي للمستوى :

هو بلوغ مقدار معين من الكفاية في دراسة القواعد النحوية لطلاب الصف الخامس في معهد الفنون الجميلة (عينة البحث) على ما يقيسه الاختبار المعد لهذا البحث .

٢ ـ التحصيل

التحصيل لغة : حصل حصولا ومحصولا عنده كذا : وجد وعلى شيء أحرزه وملكه حصل شيء العلم : حصل عليه (البستاني ، ٢٠٠٠ ، ص : ١٣٨) .

التحصيل اصطلاحا :

عرفه كود " Good ١٩٧٣ " بأنه : " إنجاز أو كفاية بالأداء في تقديم مهارة أو مجموعة معارف " (Good , 1973 , p : 7) .

وعرفه " سيد ١٩٨١ " بأنه التحصيل عما يقاس بالاختبارات التحصيلية الحالية في المدارس في امتحانات نهاية العام الدراسي ، وما يعبر عنه المجموع العام لدى الطالب للدروس جميعا" (سيد ، ١٩٨١ ، ص : ٧٦) .

وعرفه " الخليلي ١٩٩٧ " بأنه : " النتيجة النهائية التي تبين مستوى الطالب ودرجة تقدمه في ما يتوقع منه أن يتعلمه " (الخليلي ، ١٩٩٧ ، ص : ٦) .

التعريف الإجرائي للتحصيل :

الدرجات التي يحصل عليها طلاب الصف الخامس في معهد الفنون الجميلة (عينة البحث) في الاختبار التحصيلي الذي يعده الباحثون لمادة النحو التي تدرس لطلاب المعهد على مدى خمس سنوات.

٣ ـ النحــو :

النحو لغة : هو القصد والطريق ، يقال : (نحــا نحــوه) أي قصد قصده (الرازي ، ١٩٨٣ ، ص : ٦٥) .

النحو اصطلاحا :

عرفه " مطر ١٩٨٥ " بأنه : " العلم الذي يبحث فــي الجملــة واجزائها وأنواعها ، ونظام ترتيبها وأثر كل جزء منــها فــي الآخــر وعلاقته به وأدوات الربط بينها " (مطر ، ١٩٨٥ ، ص : ٧٥) .

وعرفه " سليمان واخرون ٢٠٠٠ " بأنه : " علم بأصول تعـرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء ، أي : من حيـث ما يعرض لها في حال تركيبها" (سليمان واخرون ،٢٠٠٠، ص :١١).

التعريف الإجرائي :

هو المادة النحوية المقرر تدريسها لطلاب معهد الفنون الجميلــة في الاختبار الموضوعي الذي أعده الباحثون لهذا الغرض .

الفصل الثاني

دراسات سابقة

فيما يأتي عرض لعدد من الدراسات ذات العلاقـــة بموضــوع البحث الحالي بدءا بالدراسات العربية ثم الأجنبية على وفــق ترتيبــها الزمني :

١ ـ دراسة الدليمي ١٩٨٠ :

أجريت الدراسة في جامعة بغداد كلية التربيــة ـ ابــن رشــد وسعت الى :

١ ـ معرفة أخطاء الطلبة النحوية في المرحلة الاعدادية .

٢ ـ الموازنة بين طلبة الصفوف الثلاثة من هذه المرحلة في الأخطاء النحوية .

٣ ـ الموازنة بين الطلاب والطالبات في الأخطاء النحوية في هذه المرحلة .

٤ ـ الموازنة بين طلبة الفرع العلمي . وطلبة الفرع الأدبي في الأخطاء النحوية .

تكونت عينة الدراسة من (٤٨٠) طالبا وطالبة بمعدل (١٦) طالبا وطالبة من كل صف من الصفوف الثلاثة ، اختيروا بالطريقة الطبقية العشوائية .

اعتمد الباحث اختبارا في التعبير أداة لبحثه ، اذ طلب من العينة الكتابة في موضوع (وحدة العراق وسوريا نواة للوحدة العربية الكبرى) ، واكد ضبط أواخر الكلمات بالشكل .

استعمل الباحث النسب المئوية ، وتحليل التباين ، والاختبار التائي ، وسائل احصائية في معالجة بيانات بحثه .

وقد أظهرت النتائج ما يأتي :

١ ـ ان عدد الموضوعات النحوية التي أخطأ فيها الطلبة (عينة البحث) هي (٣١) موضوعا نحويا .

٢ ـ يقل وقوع الطلبة في الاخطاء النحوية اذا انتقلوا من صف الى صف أعلى .

٣ ـ هناك فرق ذو دلالة احصائية عند مستوى (٠٠١ ، ٠) بين الطلاب والطالبات في الاخطاء النحوية ، أكد ان أخطاء الطالبات في الموضوعات النحوية أقل من أخطاء الطلاب .

٤ ـ لم تظهر النتائج فروقا كبيرة بين طلبة الفرع العلمي وطلبة الفرع الادبي في الاخطاء النحوية) . (الدليمي ، ١٩٨٠ ، ص : ٢٧ ـ ٨٨)

٢ ـ دراسة الحمداني ٢٠٠٠ :

اجريت هذه الدراسة في بغداد وسعت الى :

١ ـ معرفة الاخطاء النحوية لدى طلبة الصف الثاني المتوسط في الاختبار التحصيلي والمعد لهذا الغرض .

٢ ـ معرفة الاخطاء النحوية لدى طلبة الصف الثاني المتوسط في مادة التعبير .

٣ ـ الموازنة بين أخطاء الطلاب النحوية ، وأخطاء الطالبات النحوية في الاختبار التحصيلي .

٤ ـ الموازنة بين أخطاء الطلاب النحوية ، وأخطاء الطالبات النحوية في مادة التعبير .

تكونت عينة الدراسة من (٤٠٠) طالب وطالبة بواقع (١٦٨) طالبا و (٢٣٢) طالبة تضمنها (٥) مدارس للبنين و (٥) مدارس للبنات من مديرية الكرخ الاولى التي وقع الاختيار على نحو قصدي لتكون عينة البحث .

واستعانت الباحثة بأداتين لتحقيق هدف الدراسة , فقد كانت الاولى اختبارا تحصيليا مكونا من (٢٠) فقرة من نوع الاختيار من متعدد ، وكانت الاداة الثانية الكتابة في موضوع تعبيري .

اما الوسائل الاحصائية التي استعانت بها الباحثة لمعالجة البيانات فهي معامل ارتباط بيرسون ، ومربع كاي ، والنسب المئوية ، وقد أظهرت النتائج ما يأتي :

١ ـ ان طلبة الصف الثاني المتوسط يقعون في الاخطاء نفسها سواء أكانت اداة البحث اختبارا أم موضوعا في التعبير .

٢ ـ لم يظهر فرق ذو دلالة احصائية بين اخطاء الطلاب ، والطالبات في الموضوعات النحوية سواء أكان في الاختبار أم في التعبير .

(الحمداني ، ٢٠٠٠ ، ص : ١٣ ـ ٥٦)

٣ ـ دراسة المشهداني ٢٠٠٣ :

اجريت الدراسة في العراق وهدفت الى معرفة مستوى تحصيل تلامذة المرحلة الابتدائية في مادتي النحو والإملاء ، وهل يوجد فرق ذو دلالة إحصائية بين الطلاب والطالبات ؟ وما المقترحات اللازمة لمعالجة ضعف المستوى من وجهة نظر المشرفين ؟ .

وتحددت الدراسة الحالية بطلبة الصف الاول المتوسط العام الدراسي (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٣) من المدارس النهارية في بغداد للبنين والبنات ، وقد اختارت الباحثة اثنتين وثلاثين مدرسة من المديريات الأربع . وسحبت عشوائيا ، ثمان مدارس من كل مديرية منها (أربع) للبنين و (أربع) للبنات ، وتمثل نسبة حوالي (١ %) من المجتمع الأصلي ، استبعد الطلبة الراسبون للعام الدراسي (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢) وكذلك الطلبة المشمولون بالعينة الاستطلاعية فكان عدد طلبة العينة (٦٤٠) طالبا ، وعدد عينة الطالبات (٦٤٠) طالبة .

ولتحديد مستوى التحصيل النحوي والاملائي اعدت الباحثة اختبارا شمل الموضوعات المقرر تدريسها في المرحلة الابتدائية لمادتي النحو والإملاء متكونا الاول من (٤٥) فقرة لكل منها أربعة بدائل .

أما الآخر فتمثل بقطعة إملائية شملت القواعد الإملائية التي درست في المرحلة الابتدائية جميعها .

ولتعرف المقترحات اللازمة لمعالجة ضعف المستوى من وجهة نظر المشرفين أعدت الباحثة استبانة مغلقة بنيت في ضوء الاستبانة الاستطلاعية وما تطرقت اليه من البحوث ذات العلاقة بالنحو والإملاء .

وبلغ عدد عينة المشرفين التي وزعت عليهم الاستبانة المغلقة (١٨) مشرفا ومشرفة من مديريات التربية (الأربع) في محافظة بغداد ، استعملت الباحثة معامل ارتباط بيرسون ، والاختبار الزائي ، ومتوسط التقدير لتفسير نتائج بحثها .

توصلت الدراسة الى نتائج متعددة منها :

ان مستوى طلبة الصف الاول المتوسط لخريجي المدارس الابتدائية لمادة النحو ضعيف ، اذ بلغ متوسط درجات الطلبة في الاختبار التحصيلي (٧٣٧ , ٣٩ درجة) وهو يقل عن درجة النجاح الصغرى (٥٠ %) وفي الإملاء بلغ المتوسط (٨٣٧ , ٣٨) درجة وهو ضعيف أيضا .

اما بالنسبة الى آراء المشرفين الذين اقترحوا من خلالها معالجة ضعف المستوى فقد وردت في (٧٤) فقرة موزعة علة ستة مجالات .

(المشهداني ، ٢٠٠٣ ، ١ ــ ٨١)

٤ ــ دراسة الزاملي ٢٠٠٤ :

اجريت الدراسة في العراق وهدفت إلى ما ياتي :

١ ــ تعرف الحصيلة النحوية المعرفية لدى طلبة أقسام اللغة العربية في كليات التربية في العراق .

٢ ــ بناء برنامج علاجي في ضوء الحصيلة المعرفية النحوية .

ولما كان هدف البحث بناء برنامج علاجي في ضوء الحصيلة المعرفية النحوية لطلبة أقسام اللغة العربية في كليات التربية للعام الدراسي ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ ، فان الباحث حدد مجتمع بحثه باقسام اللغة

العربية في كليات التربية في العراق البالغ عددها (١٩) كلية . ومن بين هذه الكليات اختار الباحث (٦) كليا ليسحب منها عينة البحث الحالي .

اختار الباحث عينة البحث الأساسية من طلبة أقسام اللغة العربية / المرحلة الرابعة في ست كليات من كليات التربية في العراق ، وحدد الباحث نسبة (٢٥%) من اعداد الطلبة في الكليات المختارة ، بوصفها عينة رئيسة سحبت من المجتمع الأصلي للبحث ، وبذلك بلغ عدد أفراد عينة البحث (٢٤٠) طالبا وطالبة ، اذ اختار (٤٠) طالبا وطالبة عشوائيا من كل كلية بواقع (٢٠) طالبا ، و (٢٠) طالبة .

وبعد تحديد المحتوى (المادة العلمية النحوية) الذي يشمله الاختبار بالموضوعات النحوية التي يدرسها طلبة أقسام اللغة العربية في كليات التربية في السنوات الأربع ، وصاغ الباحث (٦٥) فقرة من نوع الاختيار من متعدد ، لتكون اداة بحثه الحالي في تعرف الحصيلة المعرفية النحوية . وعرض الباحث الفقرات على مجموعة من الخبراء لاجل تعرف الصدق الظاهري لها ، واستخرج الثبات بطريقة اعادة الاختبار .

وبعد ان طبق الباحث الاختبار على عينة البحث توصل الى ان الطلبة قد اخطأوا في الموضوعات النحوية جميعها ، وبعد ان اوصى بعدد من التوصيات ، واقترح المقترحات اللازمة ، اختار الربع الاعلى من الموضوعات التي نالت اعلى التكرارات في الاخطاء ليبني في ضوء محتواها البرنامج العلاجي . (الزاملي ، ٢٠٠٤ ، ١ ـ ٧٨)

ثانيا : دراسات أجنبية :

١ ـ دراسة بيرد (Biard , 1959)

اجريت هذه الدراسة في امريكا ، وكانت ترمي الى معرفة الاخطاء التي يقع فيها طلاب الصف الخامس الثانوي كتابتهم لموضوعات انشائية وهل تقل اخطاء هؤلاء الطلاب بعد الدراسة وخلال السنة الدراسية .

تكونت عينة الدراسة من طلاب الصف الخامس الثانوي للسنة الدراسية ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ ، الذي اشير اليه في هذه الدراسة بالصف (أ) موازنة بعينة من طلاب الصف الخامس الثانوي للسنة الدراسية ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على كتابة مقالات انشائية قام بها طلاب الصفين ، فقد كان الصف (أ) يحتوي على (٣١) طالبا ، وعدد المقالات التي كتبوها (٢١) مقالة ، اما الصف (ب) فكان يحتوي على (٢٨) طالبا ، وعدد المقالات التي كتبوها (٢٥) مقالة .

حلل الباحث (١٣) مقالا في الموضوع نفسه لكلتا الشعبتين ، فوجد ان اخطاء كل من المجموعتين متشابهة ، وبعد تحليل الباحث للمقالات وتحديد الاخطاء اعادها الى الطلاب أنفسهم لملاحظة اخطائهم التي وقعوا فيها ثم درس الباحث الموضوعات التي أخطأوا فيها بطرائق تدريس متشابهة وبعد حين من الزمن حلل كتابتهم فكان التحليل كالاتي :

١ ـ اخطاء في الأفعال وصياغتها الزمنية حيث كانت نسبة اخطاء الصف (أ) قبل الدراسة ٦٨% من طلاب الصف واصبحت بعد الدراسة ٧٤% اما الصف (ب) فكانت نسبة الاخطاء في هذا النوع قبل الدراسة ٨٦% من طلاب الصف واصبحت ٩٣% بعد الدراسة .

٢ ــ اخطاء في الترقيم اذ كانت نسبة اخطاء الصف (أ) قبل الدراسة ٩٠% من طلاب الصف وكانت نسبة الذين وقعوا بخطا في هذا النمط بعد الدراسة ١٠٠% اما الصف (ب) فكانت نسبتهم قبل الدراسة ١٠٠% وبقيت نسبة الذين وقعوا بخطا هذا النمط كما هي ١٠٠% .

٣ ــ اخطاء في استعمال الضمائر اذ كانت نسبة المخطئين من الصف (أ) قبل الدراسة ٨١% واصبحت بعدها ٧١% اما الصف (ب) فكانت نسبة المخطئين في هذا النمط ٩٣% قبل الدراسة واصبحت ٧٩% بعدها .

٤ ــ اخطاء في استعمال المصطلحات اذ كانت نسبة المخطئين في هذا النمط من الصف (أ) (٩٤%) من الصف (ب) .

٥ ــ في الاملاء كانت اخطاء طلاب الشعبتين بعد الدراسة اكثر منها قبل الدراسة . (Baird . 1959, p: 228 – 235)

٢ ــ **دراسة ستنسترم (Stinstrom , 1975) :**

اجريت الدراسة في السويد في جامعة (لوند) ، وكان الهدف منها تعرف الاخطاء النحوية في كتابات المعلمين والمتدربين .

وتكونت الدراسة من (٤٢) معلما متدربا طلب من كل متدرب في العينة كتابة مختصرة في اللغة الانكليزية ، احدهما لكتاب من كتب القراءة ، او سماع شريط التسجيل ثم تلخيصها ، وجعل ذلك التلخيص اختبارا للمتدرب في الفهم بعد صحح الباحث الملخصات وحدد الاخطاء النحوية التي وقع فيها افراد العينة ثم طلب الباحث من مواطن انكليزي تقويم الاخطاء .

استنتج الباحث ان اخطاء عينة الدراسة كانت في الموضوعات الاتية :

العبارة الاسمية ، والعبارة الفعلية ، حروف الجر ، التطابق ، الضمائر ، وترتيب الكلمات وربط العبارات ، والصفات ، والظروف ، والتكملة ، والاعداد ومعظم الاخطاء كانت في العبارات الفعلية ، والعبارات الاسمية وحروف الجر والتطابق .

(stinstrm , 1975 , p: 91)

مؤشرات ودلالات من الدراسات السابقة :

سيحاول الباحثون في هذا المبحث ان يوضحوا عددا من المؤشرات التي استنبطوها من الدراسات السابقة في عدد من جوانبها ، وعلى النحو الآتي :

١ ـ اختلفت الدراسات السابقة فيما بينها من حيث المراحل الدراسية ، فضلا عن تنوعها في أماكن الإجراء .

٢ ـ اختلفت الدراسات السابقة في إعداد عيناتها فمنها ما كانت ذات عينات صغيرة وأخرى كبيرة ، ويرجع السبب في ذلك على ما يعتقد الباحثون الى طبيعة البحوث التربوية وأهدافها التي تصبو الى تحقيقها .

٣ ـ اختلفت الدراسات السابقة في النتائج التي توصلت اليها تبعا لظروف العينة ومكان الإجراء ، فضلا عن الإجراءات المستعملة والأدوات ، واختلاف العينات وطبيعتها .

٤ ـ اختلفت الدراسات السابقة فيما بينها في المدة الزمنية التي استغرقتها الدراسة ، ويعود ذلك على ما يعتقد الباحثون على ما تتطلبه الدراسة من إجراءات ، وتحقيق اهداف وضعها الباحثون قبل البدء بتجاربهم .

٥ ـ اتفقت غالبية الدراسات السابقة في الوسائل الإحصائية المستعملة التي تنوعت بين الاختبار التائي ، ومعامل ارتباط بيرسون ، والوسط المرجح ، والوزن المئوي وغيرها .

٦ ـ اعد غالبية الباحثين في الدراسات السابقة اختبارات تلائم إجراءاتها .

جوانب الإفادة من الدراسات السابقة :

أفاد الباحثون من الدراسات السابقة في الأمور الآتية :

١ ـ الاطلاع على الاختبارات المستعملة في قياس متغير الدراسة الحالية .

٢ ـ بناء الاختبار المستعمل في الدراسة الحالية من اجل قياس مستوى التحصيل النحوي لدى عينة البحث .

٣ ـ تحديد اجراءات اختبار العينة .

٤ ـ تفسير نتائج البحث الحالي .

الفصل الثالث

منهجية البحث وإجراءاته

يعرض الباحثون في هذا الفصل الإجراءات التي اتبعوها في بحثهم الحالي ، وهي منهج البحث ، وتحديد مجتمعه ، واختيار عينته ، وخطوات بناء أداته المتمثلة بالاختبار ، والوسائل الإحصائية المستعملة.

أولا : منهج البحث :

لما كان البحث يهدف إلى مستوى التحصيل النحوي ، فان اختيار المنهج المناسب لتحقيق ذلك هو المنهج الوصفي ، إذ ان البحوث الوصفية تهدف إلى وصف ظواهر أو أحداث أو أشياء معينة ، وجمع المعلومات والحقائق والملاحظات عنها ، وتقرير الحاجة مثلما توجد عليه في الواقع ، وتقرير ما ينبغي أن تكون عليه الأشياء والظواهر في

ضوء قيم ومعايير معينة ، واقترح الخطوات والأساليب التي يمكن ان تتبع للوصول الى الصورة التي ينبغي ان تكون عليها الظاهرة (جابر ، ١٩٩٦ ، ص ٤) .

ثانيا : مجتمع البحث :

لما كان هدف البحث تعرف مستوى التحصيل النحوي لدى طلاب معهد الفنون الجميلة للعام الدراسي ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ ، فان الباحثين حددوا مجتمع بحثهم بأقسام معهد الفنون الجميلة في بغداد البالغ عددها (٦) أقسام ، ومن بين هذه الأقسام اختاروا المرحلة الخامسة بصورة قصدية لانهم اكملوا دراسة الموضوعات النحوية المقررة لتسحب منها عينة البحث الحالي . والجدول (١) يوضح ذلك .

الجدول (١) مجتمع البحث

القسم	المرحلة					المجموع الكلي
	الاولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة	
التشكيلي	٥٧	٦٩	٥١	٥٧	٥٣	٢٨٧
التصميم	٣١	٢٠	٣٠	٢١	٣٣	١٣٤
المسرح	٢٢	١٥	٢٠	٢١	٣٩	١١٧
الخط الزخرفة	٢٦	٢٠	٢٣	٢١	٣٦	١٢٥
السينما	٢٤	٣١	٢٨	٢٨	٤٢	١٥٣
الموسيقى	١٣	٣٣	٢٥	٣٥	٤٣	١٤٩
المجموع	١٨٣	١٨٨	١٧٧	١٦٢	٢٤٦	٩٦٥

ثانيا : عينة البحث :

حدد الباحثون عدد (٢٥) طالبا من اعداد الطلبة في الاقسام ، بوصفها عينة رئيسة سحبت من المجتمع الأصلي للبحث ، وبذلك بلغ عدد أفراد عينة البحث (١٥٠) طالبا والجدول (٢) يوضح ذلك .

الجدول (٢) عينة البحث

ت	القسم	عدد الطلاب
١	التشكيلي	٢٥
٢	التصميم	٢٥
٣	المسرح	٢٥
٤	الخط والزخرفة	٢٥
٥	السينما	٢٥
٦	الموسيقى	٢٥
المجموع		١٥٠

رابعا : أداة البحث :

لغرض تعرف مستوى التحصيل النحوي لدى طلاب معهد الفنون الجميلة ، ولعدم توافر أداة يمكن الاعتماد عليها لتحقيق هذا الغرض اعد الباحثون اختبارا تحصيليا . وقد اتبعوا في بناء الاختبار الخطوات الآتية :

١ ـ تحديد المحتوى (المادة العلمية النحوية) الذي يشمله الاختبار :

تحدد البحث الحالي بالموضوعات النحوية التي يدرسها طلاب معهد الفنون الجميلة في السنوات الخمس ، وهي موضحة في الجدول (٣) .

الجدول (٣) الموضوعات التي شملها الاختبار

ت	اسم الموضوع	ت	اسم الموضوع
١	الجملة الاسمية والجملة الفعلية	١٩	المفعول لاجله
٢	الملحق بالمثنى	٢٠	الحال
٣	جمع التكسير	٢١	المستثنى
٤	العلم	٢٢	المنادى
٥	المبني والمعرب	٢٣	التمييز
٦	اعراب الفعل المضارع	٢٤	العدد
٧	الاسماء الخمسة	٢٥	العطف
٨	فعل الامر	٢٦	النعت
٩	الفعل الماضي	٢٧	التوكيد
١٠	المبتدأ والخبر	٢٨	البدل
١١	الفاعل	٢٩	الاضافة
١٢	انواع الخبر	٣٠	حروف الجر
١٣	كان واخواتها	٣١	اسم المفعول
١٤	ان واخواتها	٣٢	اسم الفاعل
١٥	لا النافية للجنس	٣٣	الصفة المشبهة
١٦	تقديم المفعول	٣٤	اسم التفضيل
١٧	المفعول فيه	٣٥	اسم الزمان واسم المكان
١٨	المفعول المطلق		

٢ ـ صياغة فقرات الاختبار :

لقد اعتمد الباحثون عند صياغة فقـرات الاختبـار التحصيلـي الفقرات الموضوعية لما تمتاز به من موضوعية في التصحيـح ، إذ لا يختلف في تصحيحها اثنان إذا وضعت بشكل جيد فهي تتصف بثبـات وصدق عاليين ، فضلا عن الشمولية ، وتعليم الطلبة الدقة في اختيـار الإجابة (الظاهر ، ١٩٩٩ ، ص ٩١) .

وصاغ الباحثون (٣٥) فقرة من نوع الاختيار من متعدد التـي توصف بأنها شائعة الاستعمال ، وتفوق الأنواع الأخرى الموضوعيـة صدقا وثباتا ، (سعادة ، ١٩٨٤ ، ص ١٦٢) فضلا عن سهولة تحليـل نتائجها إحصائيا ، وقدرتها على الحد مـن اثـر الحـدس والتخميـن (الزوبعي ، ١٩٨١ ، ص ٨) .

٣ ـ صدق الاختبار :

يعد الصدق من مواصفات الاختبار الجيد ، ويكـون الاختبـار صادقا إذا كان يقيس ما اعـد لاجـل قياسـه ، (العسـاف ، ١٩٨٩ ، ص ٤٢٩) وبغية التثبت من صدق الاختبار الـذي أعـده البـاحثون عرضوه على عدد من الخبراء والمتخصصين في طرائق التدريـس ، وفي العلوم التربوية والنفسية بعد أن وضحـوا لـهم معنـى الاختبـار واعطاء أمثلة توضيحية له ، وبعد أن حصل الباحثون على ملاحظـات الخبراء وآرائهم عُدِّلَتْ بعض الفقـرات ، وأعيـدت صياغـة بعضـها الآخر ، وحُذفت ثلاث فقرات صاغ الباحثون غيرها وعرضوها علـى الخبراء مرة أخرى لتنال موافقتهم فوافقوا عليها .

٤ ـ تعليمات الاختبار :

وضع الباحثون تعليمات عامة للاختبار ككل مع مثال توضيحي . فضلا عن تعليمات التصحيح ، إذ حددوا الدرجة الكلية بعدد الفقرات الكلي وهي (٣٥) فقرة .

٥ ـ التجربة الاستطلاعية :

لغرض معرفة المدة التي تستغرقها الإجابة على الاختبار ، ووضوح مواقفه وفقراته ، وكشف الغامض منها ، طبقه الباحثون على عينة من طلاب الصف الخامس من مجتمع البحث نفسه ولها مواصفات عينة البحث نفسها كان عددها (١٠) طلاب الفقرات كانت واضحة وغير غامضة لدى الطلاب ، وان وسط الوقت المستغرق في الإجابة هو (٤٠) دقيقة .

٦ ـ التحليل الإحصائي لفقرات الاختبار :

إن الغرض من تحليل فقرات الاختبار التثبت من صلاحية كل فقرة ، وتحسين نوعيتها من خلال اكتشاف الفقرات الضعيفة جدا أو الصعبة أو غير المميزة ، واستبعاد غير الصالح منها . (Scannell , 1975 , p: 211) لذلك طبقت الباحثة الاختبار على عينة مماثلة لعينة البحث تكونت من (٥٠) طالبا من طلاب الصف الخامس ، ولتسهيل الإجراءات الإحصائية فقد رُتبت الدرجات تنازليا من أعلى درجة إلى أدنى درجة ، ثم أُختيرت العينتان المتطرفتان العليا والدنيا بنسبة (٢٧%) بوصفها افضل مجموعتين لتمثيل العينة كلها . وفيما يأتي توضيح لإجراءات التحليل الإحصائي لفقرات الاختبار :

ـ مستوى صعوبة الفقرات :

يقصد بصعوبة الفقرة نسبة الطلبة الذين يجيبون على الفقرة إجابة صحيحة (عودة ، ١٩٩٣ ، ص ٢٨٩) ، وبعد ان حسب

الباحثون معامل ثبات كل فقرة من فقرات الاختبار وجدوها تتراوح بين (٠,٣٢) و (٠,٦٨) ، ويرى (ايبل) ان الفقرات الاختبارية تعد مقبولة إذا كان معدل صعوبتها بين (٠,٢٠) و (٠,٨٠) (Bloom , 1971 , p: 66) .

وهذا يعني ان فقرات الاختبار جميعها تعد مقبولة . والجدول (٤) يوضح ذلك .الجدول (٤)

معاملات صعوبة فقرات الاختبار

ت	معامل الصعوبة	ت	معامل الصعوبة
١	٠,٣٨	١٩	٠,٤٤
٢	٠,٥٢	٢٠	٠,٥٦
٣	٠,٤٧	٢١	٠,٤١
٤	٠,٣٤	٢٢	٠,٤٤
٥	٠,٣٢	٢٣	٠,٤٤
٦	٠,٥٠	٢٤	٠,٣٧
٧	٠,٤٠	٢٥	٠,٤١
٨	٠,٤٨	٢٦	٠,٤٨
٩	٠,٥٥	٢٧	٠,٥٢
١٠	٠,٣٥	٢٨	٠,٥٢
١١	٠,٤٠	٢٩	٠,٥٢
١٢	٠,٦٨	٣٠	٠,٤٤
١٣	٠,٤٩	٣١	٠,٣٧
١٤	٠,٤٠	٣٢	٠,٤٠
١٥	٠,٥٥	٣٣	٠,٤٨
١٦	٠,٥٠	٣٤	٠,٤١
١٧	٠,٤٤	٣٥	٠,٤١
١٨	٠,٥٥		

ـ قوة تمييز الفقرات :

يقصد بقوة التمييز قدرة الفقرة على التمييز بين المجموعتين العليا والدنيا بالنسبة الى الصفة التي يقيسها الاختبار ، والفقرة الجيدة هي ما تخدم هذا الغرض (احمد ، ١٩٦٠ ، ص ٣٣٩) وبعد ان حسب الباحثون القوة التمييزية لكل فقرة من فقرات الاختبار وجدوها تتراوح بين (٣٣ , ٠) و (٦٢ , ٠) والأدبيات تشير إلى ان الفقرة التي يقل معامل قوتها التمييزية عن (٢٠%) يستحسن حذفها أو تعديلها (امطانيوس ، ١٩٩٧ ، ص ١٠٠) . لذا أبقى الباحثون على الفقرات جميعها دون حذف أو تعديل ، والجدول (٥) يوضح ذلك .

القوة التمييزية لفقرات الاختبار

ت	القوة التمييزية	ت	القوة التمييزية
١	٠ , ٤٠	١٩	٠ , ٤٨
٢	٠ , ٥٥	٢٠	٠ , ٥٥
٣	٠ , ٤٥	٢١	٠ , ٣٨
٤	٠ , ٣٨	٢٢	٠ , ٤٤
٥	٠ , ٤١	٢٣	٠ , ٤٠
٦	٠ , ٤٠	٢٤	٠ , ٣٣
٧	٠ , ٣٨	٢٥	٠ , ٤٣
٨	٠ , ٣٨	٢٦	٠ , ٦١
٩	٠ , ٦٠	٢٧	٠ , ٤٨
١٠	٠ , ٤٥	٢٨	٠ , ٤١
١١	٠ , ٦٢	٢٩	٠ , ٥٩
١٢	٠ , ٤٤	٣٠	٠ , ٤١
١٣	٠ , ٦٢	٣١	٠ , ٦٢
١٤	٠ , ٥٥	٣٢	٠ , ٥٤
١٥	٠ , ٥٠	٣٣	٠ , ٦١
١٦	٠ , ٤٨	٣٤	٠ , ٤٦
١٧	٠ , ٥٥	٣٥	٠ , ٥٧
١٨	٠ , ٣٨		

ـ فعالية البدائل الخاطئة :

حين يكون الاختبار من الاختيار من متعدد يفترض أن تكون البدائل الخاطئة جذابة للتثبت من أنها تؤدي الدور الموكل إليها في تشتيت انتباه الطلبة الذين لا يعرفون الإجابة الصحيحة ، وعدم الاتكال على الصدفة (امطانيوس ، ١٩٩٧ ، ص ١٠١) .

والبديل الجيد هو ذلك البديل الذي يجذب عددا من طلبة المجموعة الدنيا اكبر من طلبة المجموعة العليا ، وبعكسه يعد غير فعال وينبغي حذفه ، ويكون البديل اكثر فعالية كلما ازدادت قيمته في السالب . (عودة ، ١٩٩٣ ، ص ١٢٥) وبعد أن أجرى الباحثون العمليات الإحصائية اللازمة لذلك ، ظهر لديهم ان البدائل الخاطئة لفقرات الاختبار من الاختبار التحصيلي البعدي قد جذبت إليها عددا من طلبة المجموعة الدنيا اكبر من طلبة المجموعة العليا ، لذا تقرر الإبقاء عليها جميعها دون حذف أو تعديل . والجدول (٦) يوضح ذلك .

الجدول (٦)

فعالية البدائل الخاطئة لفقرات الاختبار

ت	فعالية البديل الخاطئ الأول	فعالية البديل الخاطئ الثاني	فعالية البديل الخاطئ الثالث	ت	فعالية البديل الخاطئ الأول	فعالية البديل الخاطئ الثاني	فعالية البديل الخاطئ الثالث
١	-١٦	-١٠	-١٣	١٩	-١٠	-٤	-١٠
٢	-٣٠	-١٦	-١٠	٢٠	-١٣	-١٦	-٣
٣	-١٦	-٢٦	-٤	٢١	-٢	-١١	-٣٤
٤	-٣٤	-١٦	-١٠	٢٢	-١١	-٤	-٢٣
٥	-٢٣	-١٦	-١	٢٣	-١٣	-١١	-١٠
٦	-١٣	-٢	-٢	٢٤	-٢٣	-١٦	-١
٧	-٢	-١٣	-١١	٢٥	-١٣	-٢	-٢
٨	-٤	-٣	-١٠	٢٦	-٢	-١٣	-١١
٩	-١٣	-١١	-١٠	٢٧	-٤	-٣	-١٠
١٠	-١٦	-١٠	-٣٠	٢٨	-٢٣	١٦	-١٠
١١	-١٦	-٢٦	-٤	٢٩	-١٦	-٢٦	-٤
١٢	-١٦	-١٠	-١٣	٣٠	-١٦	-١٠	-١٣
١٣	-٣٠	-١٦	-١٠	٣١	-٣٠	-١٦	-١٠
١٤	-١٣	-٢	-٢	٣٢	-٣٤	-١٦	-١٠
١٥	-٢	-١٣	-١١	٣٣	-٤	-٣	-١٠
١٦	-٤	-٣	-١٠	٣٤	-١٣	-١١	-١٠
١٧	-٢٣	-١٦	-١	٣٥	-١٦	-١٠	-٣٠
١٨	-١٨	-٢	-٢				

٥ ــ ثبات الاختبار :

يقصد بثبات الاختبار التوصل إلى النتائج نفسها عند إعادة تطبيق الاختبار على العينة نفسها ، وفي حدود زمن يتراوح من أسبوع الى أسبوعين ، إذ أن قلة المدة قد تتيح فرصة للتذكر وطولها قد يتيح فرصة لنمو الأفراد ومن ثم يتغير أداؤهم (داود ، ١٩٩٠ ، ص ١٢٢)

واختار الباحثون طريقة التجزئة النصفية لحساب ثبات الاختبار ، إذ اعتمدوا درجات عينة التحليل الإحصائي نفسها ، وبعد تصحيح الإجابات ، ووضع الدرجات واستعمال معادلة ارتباط بيرسون (Bearson) بلغ معامل الثبات (٧٦%) ، وعند تصحيحه بمعادلة سبيرمان ــ براون بلغ (٨٢ , .) وهو معامل ثبات مقبول بالنسبة إلى مثل هذا الاختبار .

١ ــ الصورة النهائية للاختبار :

بعد إنهاء الإجراءات الإحصائية المتعلقة بالاختبار وفقراته ، اصبح الاختبار بصورته النهائية يتكون من (٣٥) فقرة اختبارية من نوع الاختبار من متعدد .

تطبيق الاختبار :

طبق الباحثون الاختبار التحصيلي على عينة البحث في المدة الواقعة بين ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٤ ، و ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٤ .

الوسائل الإحصائية :

استعمل الباحثون الوسائل الإحصائية الآتية في إجراءات بحثهم وتحليل نتائجه :

١ ـ اختبار (كا ٢) مربع كاي :

استعملت هذه الوسيلة لمعرفة دلالات الفروق بين الموافقين وغير الموافقين على فقرات الاختبار .

$$كا^{2} = \frac{(ن - ق)}{ق}$$

إذ تمثل :

ن : التكرار الملاحظ .

ق : التكرار المتوقع . (البياتي ، ١٩٧٧ ، ص ٢٩٣)

٣ ـ معامل ارتباط بيرسون (Pearson) :

استعملت هذه الوسيلة لحساب ثبات الاختبار :

$$ر = \frac{ن\ مج\ س\ ص - (مج\ س)(مج\ ص)}{\sqrt{[ن\ مج\ س^{2} - (مج\ س)^{2}][ن\ مج\ ص^{2} - (مج\ ص)^{2}]}}$$

إذ تمثل :

ن : عدد أفراد العينة .

س : قيم المتغير الأول .

ص : قيم المتغير الثاني . (البياتي ، ١٩٧٧ ، ص ١٨٣)

٤ ـ معامل الصعوبة :

استعملت هذه الوسيلة لحساب معاملات صعوبة فقرات الاختبار :

$$ص = \frac{(ن - ن\ ع) + (ن ، ن\ د)}{٢\ ن}$$

إذ تمثل :

(ن ـ ن ع) : عدد الطلاب الذين أجابوا إجابة غير صحيحة عن الفقرة في المجموعة العليا .

(ن ـ ن د) : عدد الطلاب الذين أجابوا إجابة غير صحيحة عن الفقرة في المجموعة العليا .

٢ ن : عدد الطلاب في المجموعتين . (الظاهر ، ١٩٩٩ ، ص ٧٧)

٥ ـ معامل قوة التمييز :

استعملت هذه الوسيلة لحساب معاملات القوة التمييزية لفقرات الاختبار :

$$\text{معامل التمييز} = \frac{(\text{ن ص ع}) + (\text{ن ص د})}{\text{ن}}$$

إذ تمثل : ـ

(ن ص ع) : عدد الطلاب الذين أجابوا إجابة صحيحة عن الفقرة في المجموعة العليا .

(ن ص د) : عدد الطلاب الذين أجابوا إجابة صحيحة عن الفقرة في المجموعة العليا .

ن : عدد طلاب احدى المجموعتين (الظاهر ، ١٩٩٩ ، ص ٧٩ ـ ٨٠)

٦ ـ فعالية البدائل غير الصحيحة :

أستعملت هذه الوسيلة لإيجاد فعالية البدائل الخاطئة لفقرات الاختبار التحصيلي البعدي .

$$\text{فعالية البديل} = \frac{\text{ن ع م} - \text{ن د م}}{\text{ن}}$$

اذ تمثل :

ن ع م = عدد الطلاب الذين اختاروا البديل الخاطئ من المجموعة العليا.

ن ع د = عدد الطلاب الذين اختاروا البديل الخاطئ من المجموعة الدنيا .

ن = عدد الطلاب إحدى المجموعتين . (الظاهر ، ١٩٩٩ ، ص ٩١)

٧ ــ معادلة سبيرمان ــ براون :

أستعملت هذه الوسيلة لحساب ثبات الاختبار .

$$ر ث = \frac{٢ ر}{١ + ر}$$

اذ ان :

ر ث = معامل الثبات الكلي للاختبار

ر = معامل الثبات النصفي للاختبار (عودة ، ١٩٩٣ ، ص ٨٣)

الفصل الرابع

عرض نتائج البحث وتفسيرها

يعرض الباحثون في هذا الفصل النتائج التي توصلوا إليها بعد تطبيقهم الاختبار التحصيلي على طلاب المرحلة الخامسة في أقسام معهد الفنون الجميلة (عينة البحث) ، ومن ثم تفسير هذه النتائج .

بعد تطبيق الاختبار على عينة البحث ، صحح الباحثون إجابات الطلاب ووضعوا الدرجات ، ورتبوها من أعلى تكرار الى أدنى تكرار ، وهي على ما موضحة في الجدول (٧) .

الجدول (٧)

تكرارات الأخطاء النحوية التي وقع بها الطلاب (عينة البحث) مرتبة تنازليا

١	المبني والمعرب	١١٢	٧٤ , ٦٦ %
٢	اعراب الفعل المضارع	١٠٧	٧١ , ٣٣ %
٣	المبتدأ والخبر	٩٨	٦٥ , ٣٣ %
٤	تقديم المفعول به	٩٥	٦٣ , ٣٣ %
٥	لا النافية للجنس	٨٢	٥٤ , ٦٦ %
٦	المفعول فيه	٨١	٥٤ %
٧	الجملة الاسمية والجملة الفعلية	٨٠	٥٣ , ٣٣ %
٨	العلم	٧٨	٥٢ %
٩	انواع الخبر	٧٧	٥١ , ٣٣ %
١٠	المفعول المطلق	٧٥	٥٠ %
١١	الفعل الماضي	٧٣	٤٨ , ٦٦ %
١٢	الاسماء الخمسة	٧٠	٤٦ , ٦٦ %
١٣	جمع التكسير	٦٧	٤٤ , ٦٦ %
١٤	معاني حروف الجر	٦٤	٤٢ , ٦٦ %
١٥	العدد	٦٣	٤٢ %
١٦	المفعول لاجله	٦١	٤٠ , ٦٦ %
١٧	المنادى	٦٠	٤٠ %
١٨	الحال	٥٥	٣٦ , ٦٦ %
١٩	التوكيد	٥٣	٣٥ , ٣٣ %
٢٠	الاضافة	٥٢	٣٤ , ٦٦ %
٢١	النعت	٤٩	٣٢ , ٦٦ %
٢٢	التمييز	٤٩	٣٢ , ٦٦ %
٢٣	البدل	٤٩	٣٢ , ٦٦ %
٢٤	الصفة المشبهة	٤٥	٣٠ %
٢٥	الملحق بالمثنى	٤٢	٢٨ %
٢٦	المستثنى	٣٩	٢٦ %
٢٧	ان واخواتها	٣٩	٢٦ %
٢٨	الفعل الامر	٣٩	٢٦ %
٢٩	اسم التفضيل	٣٩	٢٦ %
٣٠	اسم الزمان والمكان	٣١	٢٠ , ٦٦ %
٣١	اسم المفعول	٢٨	١٨ , ٦٦ %
٣٢	كان واخواتها	٢٨	١٨ , ٦٦ %
٣٣	العطف	٢٥	١٦ , ٦٦ %
٣٤	الفاعل	٢٢	١٤ , ٦٦ %
٣٥	اسم الفاعل	١٨	١٢ %

ويتضح من الجدول أعلاه ان الطلاب (عينة البحث) قد اخطأوا في الموضوعات النحوية جميعها ، وقد انحصرت نسب الأخطاء المئوية بين أعلى نسبة (٦٦ , ٧٤ %) في موضوع المعرب والمبني ، وأدنى نسبة (١٢ %) في موضوع اسم الفاعل . وان عشر موضوعات كانت النسبة المئوية لتكرارات الأخطاء فيها (٥٠ %) فما فوق هي : المعرب والمبني ، وأعراب الفعل المضارع ، والمبتدأ والخبر ، قديم المفعول به ، لا النافية للجنس ، المفعول فيه ، الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، العلم ، أنواع الخبر ، المفعول المطلق .

تفسير النتائج :

من خلال النتائج التي توصل إليها الباحثون ، يمكن أن يرد ذلك إلى واحد أو اكثر من هذه الأسباب :

١ ــ اعتماد طلاب المعهد في دراستهم للقواعد النحوية على الحفظ والاستظهار من دون فهم القاعدة النحوية ، مما يؤدي الى نسيانها بمجرد الانتهاء من الاختبار .

٢ ــ اعتقاد الطلاب بان مادة اللغة العربية مادة مساعدة فلا تعامل باهتمام مثل المواد الدراسية الاخرى (مواد الاختصاص) .

٣ ــ غالبية الطلاب يعدون النحو غاية بحد ذاته لا وسيلة لتقويم الكلام وفهمه .

٤ ــ قلة أو انعدام التدريبات والتطبيقات التي تكفل فهم القواعد النحوية وترسيخها في أذهان الطلاب لان من المعروف ان كثرة المران تساعد الطلاب على الفهم واستبقاء المعلومات مدة أطول .

الاستنتاجات :

في ضوء النتائج التي توصل إليها الباحثون ، فـــانهم يصنعـــون الاستنتاجات الآتية :

١ ـــ إن طلاب أقسام معهد الفنون الجميلة لم يكونوا بالمستوى المطلوب في الإلمام بالقواعد النحوية الأساسية .

٢ ـــ إن طلاب أقسام معهد الفنون الجميلة يقعون في أخطـــــاء نحويـــة كثيرة .

التوصيات :

في ضوء النتائج التي توصل إليها الباحثون ، والاستنتاجات التـــي وضعوها ، فانهم يوصون بالآتي :

١ـــ الاهتمام بالتطبيقات والتدريبات النحوية ، واعتمادها أساســـا فـــي التدريس لأنها تؤثر كثيرا في ترسيخ المادة النحوية فـــي أذهـــان الطلاب .

٢ ـــ ضرورة تصويب التدريسين أخطاء الطلبة النحوية فوروقوعهم فيها

٣ ـــ الاقتصار على ما هو ضروري من آراء النحويين فـــي المســألة الواحدة ذات الخلاف ، وترك التعليلات التي تثقل النحو .

٤ ـــ توعية الطلبة أن النحو وسيلة لتقويم الكلام وضبطه وليس غاية في حد ذاته وضرورة ربط القواعد النحوية بالمعنى .

المقترحات :

اعتمادا على النتائج والاستنتاجات ، يقـــترح البـــاحثون إجـــراء الدراسات الآتية :

١ ـــ دراسة مماثلة للدراسة الحالية في معاهد الفنون الجميلة الأُخر .

٢ ـــ دراسة تعرف أخطاء التدريسيين النحويـــة وعلاقتـــها بالأخطـــاء النحوية لطلبتهم في معاهد الفنون الجميلة .

المصـــــادر

١ ــ الابراشي ، محمد عطية . الطرق الخاصة في التربيـــة لتدريـــس اللغة العربية والدين ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ .

٢ ــ ابراهيم ، عبد العليم . الموجه العملي لمدرسي اللغة العربية ، دار المعارف بمصر ، ط٤ ، د . ت .

٣ ــ ابن فارس ، أبو الحسن . الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، بيروت ، مؤسسة بدران ، ١٩٦٤ .

٤ ــ أحمد ، عبد القادر . طرق تعليم اللغـــة العربيـــة ، ط٢ ، مكتبـــة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٥ ــ احمد ، محمد عبد السلام . القياس النفســي والــتربوي ، مكتبـــة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٦٠ .

٦ ــ امطانيوس ، ميخائيل . القياس والتقويم فـــي التربيـــة الحديثـــة ، منشورات جامعة دمشق ، سوريا ، ١٩٩٧ .

٧ ــ بدوي ، أحمد زكي . مصطلحات التربية وعلم النفس ، دار الفكــر العربي ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٨ ــ البستاني ، كرم . المنجد في اللغة العربية ، طبعة ٣٨ منقحة ، دار النشر ، بيروت ، ٢٠٠٠ .

٩ ــ البياتي ، عبد الجبار توفيق ، وزكريـــا اثناســيوس . الاحصـــاء الوصفي والاستدلالي في التربية وعلم النفس ، مطبعـــة مؤسســـة الثقافة العمالية ، بغداد ، ١٩٧٧ .

١٠ ــ جابر ، جابر عبد الحميد . مناهج البحث فـــي التربيـــة وعلـــم النفس ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

١١ ــ الحمداني ، انتصار كاظم جواد . " الاخطاء النحوية لدى طلبة المرحلة المتوسطة " ، جامعة بغداد ، كلية التربية / ابن رشد ، بغداد ، ٢٠٠٠ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

١٢ ــ خاطر ، محمود رشدي ومصطفى رسلان . تعليم اللغة العربية والتربية الدينية ، دار الثقافة بمصر ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

١٣ ــ الخليلي ، خليل يوسف . التحصيل الدراسي لدى طلبة التعليم الاعدادي ، وزارة التربية والتعليم ، البحرين ، ١٩٩٧ .

١٤ ــ داود ، عزيز حنا وأنور حسين عبد الرحمن . مناهج البحث التربوي ، بغداد ، دار الحكمة للطبع والنشر ، العراق ، بغداد ، ١٩٩٠ .

١٥ ــ الدليمي ، كامل محمود نجم . " أخطاء الطلبة النحوية في المرحلة الاعدادية " ، جامعة بغداد ، كلية التربية ــ ابن رشد ، ١٩٨٠ . (رسالة ماجستير غير منشورة) .

١٦ ــ الرازي ، محمد بن ابي بكر عبد القادر . مختار الصحاح ، دار الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٣ .

١٧ ــ الرحيم ، احمد حسن ، أصول تدريس اللغة العربية والتربية الدينية ، ط٢ ، مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، ١٩٧١ .

١٨ ــ الزاملي ، حسن خلباص حمادي . " الحصيلة النحوية المعرفية لدى طلبة اقسام اللغة العربية في كليات التربية وبناء برنامج علاجي في ضوئها " جامعة بغداد ، كلية التربية / ابن رشد ، ٢٠٠٤ . (اطروحة دكتوراه غير منشورة)

١٩ ــ الزوبعي ، عبد الجليل إبراهيم ، واخرون . الاختبارات والمقاييس النفسية ، جامعة الموصل ، ١٩٨١ .

٢٠ ـــ زيتون ، حسن حسين . تصميم التدريس رؤية منظومة ، مجلد /٢ ، ط٢ ، كلية التربية ، جامعة طنطان ٢٠٠١ .
٢١ ـــ سعادة ، جودت احمد . مناهج الدراسات الاجتماعية ، ط١ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٤ .
٢٢ ـــ سليمان ، نايف وآخرون . مستويات اللغة العربية (الثقافة العامة) ، الطبعة الاولى ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٠ .
٢٣ ـــ السيد ، محمود احمد . تعليم اللغة بين الواقع والطموح ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٨ .
٢٤ ـــ الشبلي ، ابراهيم مهدي ، واخرون . تقويم العملية التعليمية ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٧٦ .
٢٥ ـــ الظاهر ، زكريا محمد ، واخرون . مبادئ القياس والتقويم في التربية ، ط١ ، دار الثقافة للطباعة ، الأردن ، ١٩٩٩ .
٢٦ ـــ عاقل ، فاخر . معجم علم النفس ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧١ .
٢٧ ـــ العساف ، صالح بن حمد . المدخل الى التربية في العلوم السلوكية ، ط١ ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٩ .
٢٨ ـــ علام ، صلاح الدين محمود . القياس والتقويم التربوي النفسي ، دار الفكر العربي ، كلية التربية ، جامعة الازهر ، ٢٠٠٠ .
٢٩ ـــ عودة ، احمد سليمان . القياس والتقويم التربوي النفسي ، دار الفكر العربي ، كلية التربية ، جامعة الازهر ، ٢٠٠٠ .
٣٠ ـــ عون ، حسن . اللغة والنحو ، دراسة تحليلية ومقارنة ، ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٥٢ .

٣١ ــ الغريب ، زمزية . التقويم والقياس النفسي والــتربوي ، مكتبــة الانجلو المصرية ، ١٩٧٧ .

٣٢ ــ قطامي ، يوسف وآخرون . تصميم التدريس ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، عمان ، دار الفكر ، ٢٠٠٠ .

٣٣ ــ مادوس ، جورج وآخرون . تقييـــم تعلــم الطــالب التجمعــي والتكويني ، دار ما كجروهيل للنشر ، جامعة عيـــن شــمس ، ١٩٨٣ .

٣٤ ــ مجاور ، محمد صلاح الدين . تدريس اللغة العربيـــة للمرحلــة الثانوية وتطبيقاتها التربوية ، ط١ ، دار المعـــارف ، القــاهرة ، ١٩٧٢ .

٣٥ ــ المشهداني ، شفاء اسماعيل ابراهيم . " مستوى التحصيل النحوي والاملائي لدى طلبة المرحة المتوسطة في بغداد "، جامعة بغداد ، كلية التربية / ابن رشد ، ٢٠٠٣ . (رســالة ماجســتير غــير منشورة) .

٣٦ ــ مصطفى ، ابراهيم . احياء النحو ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ .

٣٧ ــ مطر ، عبد العزيز . علم اللغة وفقه اللغة ، مصر ، دار قطــرى بن فجاءة ، ١٩٨٥ .

٣٨ ــ معلوف ، لويس . المنجد في اللغة والاعــلام ، دار المشــرق ، بيروت ، لبنان ، طبعة جديدة منقحة ، ١٩٨٦ .

39. Baird, Buth Cates. "Ausrvev of Errors in composition ''the journal of Educational Research. Vol 56, No 51 Tonuary 1959.

40. Bloom, B. S. and other, Hand is formative and sumtive Evaiution of student: learning, new – york, Mecraw hill, 1971.

41. Good, C. V. " Dictionarey of Education " 3rd Ed
New york Mcgrous. Hill, 1973.
42. Scannell, , D . Testing and Measur ment in the
classrom Bostion, Houghton, 1975
43. Stinstrom, Anna _ Brita. " Crametical Errors in
teacher - trainery - Writtem work. " In Reources in
Education Vol. 13. No, March. 1975

إحصاء ما قبل " الإحصاء "(*)

أ.د. عبد الحسين زيني
كلية الإدارة والاقتصاد / جامعة بغداد

الملخص

هذا البحث عن بدايات علم الإحصاء الحديث والتطورات التي سبقته، أي عمليات التعداد القديمة التي تيسر الاطلاع عليها وبخاصة عمليات تعداد السكان التي كانت تجري لتحديد القوة العسكرية او دافعي الضرائب او اقتسام غنائم الحروب من أراض وأموال وأسرى .

كما تناول البحث معاني مصطلح (الإحصاء) في اللغة والأدب والتراث العربي الإسلامي .

فالإحصاء لغة هو مصدر الفعل أحصى وهو العد بالحصى لان العرب كانوا يتعمدونه بالعد كما كنا نعتمد على الأصابع، ثم صار يعني العد مطلقا .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم (١١) مرة في (١٠) من السور بنفس المعنى السابق ، وبمعنى قريب منه وهو الإحاطة والضبط ، كما وردت الكلمة في بعض الأحاديث النبوية الشريفة وخطب وكتابات المتقدمين وتآليفهم .

ولعل أول كتاب وضع باللغة العربية يحمل تسمية الإحصاء هو الكتاب الذي وضعه الفارابي في القرن العاشر الميلادي وهو يتضمن

(*) ألقي في المؤتمر العلمي الثامن للجمعية العراقية للعلوم الإحصائية المنعقد في بغداد في ١٩٩٦/٥/٨ وجرى توسيعه وتنقيحه فيما بعد .

جرداً لعلوم زمانه للإحاطة بها وليكون مرشدا لمن أراد التخصص فيها وسماه (إحصاء العلوم) . وهناك كتاب آخر يمكن الإشارة اليه هو كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء (ت ٧٣٢) القرن ١٤ الميلادي . والكتاب ليس في الإحصاء وانما في الجغرافية، واهم ما يربطه بعلم الإحصاء الذي ظهر فيما بعد هو ان الكتاب مرتب على شكل جداول ، ولكنها ليست رقمية وانما وصفية، ومؤلفه هو السلطان إسماعيل صاحب حماة، ويدعى بالملك المؤيد .

اما علم الإحصاء فهو علم حديث ، ولكن العمليات الإحصائية او عمليات التعداد فقد وقعت قبل ذلك بكثير ، مثل عمليات التعداد التي وقعت في الصين القديمة عام ٢٢٣٨ ق.م ، كما وقعت حوادث مماثلة في اليابان وروما في القرن الثامن والرابع ق.م. كما قام المصريون القدماء بعمل تعداد للسكان والثروة لغرض جمع المعلومات واستخدامها في مشاريع بناء الأهرام وتحديد ما يخص كل فرد من الضريبة . كما حدثت بعد ذلك عمليات جرد للممتلكات في أوربا . كما تكونت تدريجيا عادة تسجيل الولادات والوفيات وعقود الزواج في الكنائس .

ومن اقدم النصوص في هذا الشان هي النصوص الواردة في العهد القديم والعهد الجديد عن عمليات لتعداد المحاربين والسكان في سيناء وفلسطين قبل اكثر من ٣ آلاف عام وألفي عام . فقد جرت في زمن موسى (عليه السلام) مجموعتان من التعدادات . الأولى : في جزيرة سيناء ، والثانية : في سهول موآب التي جرت بعد الأولى بفترة من الزمن ، أي زمن الملك داود لشعبي إسرائيل ويهوذا .

كما جرى تعداد آخر في فلسطين قبيل ولادة السيد المسيح بأشهر قليلة . وتعداد آخر في السنة ٦ او ٧ من ميلاد السيد المسيح .

وفي الدول العربية الإسلامية جرت بعض التعدادت مثل تلك التي قام بها عمرو بن العاص لإحصاء المسلمين في مصر لغرض استيفاء الجزية من أهل مصر . وقد تواصلت تلك العمليات للرجال القادرين على حمل السلاح والثروة . كما جرت بعض المحاولات زمن العباسيين والأمويين ولكن تلك العمليات الإحصائية لا يصح ان تعتبر البدايات الأولى لعلم الإحصاء بأصوله وقواعده الحديثة . ولكنها من الناحية الأخرى يمكن ان تعتبر من صور الحاجة الى هذا العلم في مختلف العصور ، وخاصة فيما يتعلق بإحدى وظائفه المهمة وهي عملية جمع المعلومات من خلال عملية التعداد الفعلي لعدد الرجال القادرين على حمل السلاح او العمل او الأراضي المزروعة او أنواع الثروة الأخرى .

اما علم الإحصاء الحديث فيعود في أصوله الى نوعين من الدراسات هي : علم الدولة او علم شؤون الحكومات في ألمانيا في القرن السابع عشر ، والحساب السياسي في إنكلترا في القرن المذكور .

والأول يتناول وصف الدولة وما يتعلق بها من أمور كالأرض والسكان والثروة والتشكيل الحكومي ، وهو علم وصفي لا يهتم بالتعبير الرقمي ويقتصر على وصف للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول الأوربية ، حيث أطلق عليه أحد أعلامه في القرن الثامن عشر تسمية جديدة Statistik التي ترجع في اصلها الى كلمة Status اللاتينية التي تعني الحالة او الدولة . ومن اللغة الألمانية انتقلت التسمية الى اللغات الأوربية رغم انه بقي علما وصفيا .

اما النوع الثاني فهو الحساب السياسي وهو فرع من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية التي تتميز بالطابع الكمي وقد بدأت

في إنكلترا وارتبطت باسم السير وليم بتي وقد استخدم فيها الطرائق الكمية في دراسة الضرائب والنقود المالية. وقد سبقه الكابتن جون كراونت في دراسة سجلات نفوس لندن وحسب منها نسب الوفيات وتبعه آخرون . وهذه الدراسات هي التي تمثل في الحقيقة بداية علم الإحصاء الحديث الذي اخذ تسميته من علم الدولة في ألمانيا واخذ مضمونه من الحساب السياسي في إنكلترا .

ثم تطور علم الإحصاء بعد ذلك ويرجع الفضل في تطوره الى بعض علماء الرياضيات الذين أضافوا بجهودهم ونظرياتهم الشيء الكثير، من ذلك مثلا نظرية الاحتمالات التي تستخدم في مجال العينات، وقانون الأعداد الكبيرة ، والدراسات الإحصائية الحياتية وغيرها .

تمهيد :

هذا العنوان الذي لا يخلو من الإثارة تم اختياره عنوانا لدراسة بدايات علم الإحصاء الحديث والتطورات التي سبقته ، وعلى وجه التحديد عمليات التعداد القديمة التي تيسر لي الاطلاع عليها في النصوص التاريخية ، ولاسيما عمليات تعداد السكان التي كانت تجوي لتحديد القوة العسكرية أو دافعي الضرائب أو اقتسام مغانم الحروب من أراضي وأموال وأسرى .

ولكن وقبل ذلك واستكمالا لفائدة البحث وطرافته أيضا سأتطرق ، وما وسعني ذلك ، الى معاني كلمة " الإحصاء " في اللغة والآداب والتراث العربي والإسلامي .

أولا : الإحصاء في الأدب والتراث :

للبحث في دلالات كلمة الإحصاء واستعمالاتها لا بد من الرجوع الى مصادر اللغة والأدب ، وقد تيسر بعض ذلك ، نقدمه في السطور التالية . اما ما كانت تعنيه هذه الكلمة من عمليات إحصائية قام بها العرب فهو اكثر صعوبة ، ولا ريب ان المؤرخين والمحققين هم اقدر على ذلك ، وعسى من يتطوع من يقوم بهذه المهمة ، او في الأقل يعرض المعلومات التاريخية المتوفرة لدراستها وتقويمها على ضوء الدراسات والقواعد الإحصائية الحديثة . ولاستكمال بحث مدى إسهام العرب في مجال الإحصاء ، لا بد من جرد الكتب الرياضية العربية ، لمعرفة ما إذا كانت بعض المفاهيم الأولية في الإحصاء قد تناولتها هذه المراجع ، ويفضل ان يقوم بهذه الدراسة بلا ريب من تخصص في الرياضيات وله بعض الاهتمامات التاريخية .

١. الإحصاء في اللغة :

الإحصاء لغة ، هو مصدر الفعل " أحصى " وهو " العد بالحصى " لان العرب كانوا يعتمدونه بالعد كاعتمادنا فيه على الأصابع[١].

ويبدو ان الكلمة قد انتقلت من المعدود او وسيلة العد الى عملية العد نفسها . فصار الفعل " أحصى " يعني " العد " بغض النظر عن

---

[١] الراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢هـ) ، المفردات في غريب القرآن ، (كارخانة كتب ، كراجي ، ١٩٦١) ، ص ١٢٠ .

استعمال الحصى في العد أو عدم استعماله[٢].

وإذا كان الفعل " أحصى " قد اخذ معنى " العد " فلا بد ان الاسم منه وهو الحصى الذي استعمل في عملية العد ان يأخذ معنى العد " لان أي معدود من ابل وغيرها لا بد وان يكون عدده بقدر عدد الحصيات التي تم العد بها . من ذلك قولهم : نحن اكثر منهم حصى أي عددا . وفلان ذو حصى أي ذو عدد . وقد جاء في قول الأعشى يفضل عامرا على علقمة :

ولست بالأكثر منهم حصى — وانما العزة للكاثر

والمعنى ولست بالأكثر منهم عددا[٣].

ونظراً لان المعدود الذي يلزم عده بالحصى لابد وان يكون كثيراً ، فان الكلمة تضمنت معنى العدد الكثير . وهناك من يرى ان معنى الكثرة قد جاء تشبيها بالحصى في الكثرة[٤]. ومهما يكن من

---

[٢] انظر : الدكتور محمد محمود حجازي ، التفسير الواضح ، (مطبعة الاستقلال الكبرى ، ومطابع أخرى ٦٤ ـ ١٩٦٨ ، القاهرة) ، ج ٢٨ ، ط ٤ ، ص٥٥ ، حيث يشير الى ان معنى الإحصاء هو العد بالحصى كما كان أولا ، ثم صار حقيقة في العد مطلقا .

انظر أيضا :

محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ، (دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧) ، ص ١٤١ .

[٣] ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد ١٤ ، (دار بيروت وصادر ، بيروت ، ١٩٥٦) ، ص ٨٤ ، و ١٨٣ ـ ١٨٤ .

انظر أيضا : لويس معلوف المنجد ، ط ١٥ ، ص ١٣٣ .

[٤] ابن منظور ، لسان العرب المحيط ، إعداد وتصنيف يوسف خياط ، (دار لسان العرب ، بيروت ، بدون تاريخ) المجلد ١ ، ص ٦٠٦ .

أمر ، ومهما كان سبب الكثرة التي تتضمنها الكلمة ، فان الفعل قد توسع معناه وصار يعني الإحاطة بالشيء والعلم به والقدرة عليه ، لذلك كان من أسماء الله تعالى : المحصي : أي الذي أحصى كل شيء بعلمه فلا يفوته دقيق ولا جليل[٥].

وفي العصور التاريخية المختلفة صارت كلمة " الإحصاء " تستعمل لعمليات التعداد التي صارت تجرى للمحاربين والسكان والأراضي وبعض أنواع الثروة ــ كما ستأتي الإشارة الى بعض ذلك في الصفحات التالية ، وذلك قبل ان ينشأ علم الإحصاء وتستقر أصوله وقواعده الحديثة . كما تجدر الإشارة الى ان اختيار هذا المصطلح (الإحصاء) كتسمية للعلم الذي يعني (العد) والتعامل مع (الأعداد الكبيرة) كان اختيارا موفقا كل التوفيق .

٢. الإحصاء في القرآن الكريم :

لقد وردت كلمة الإحصاء في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة في عشر من السور الكريمة[٦]. بنفس المعنى السابق وهو العد ، وبمعنى قريب منه وهو الإحاطة والضبط ــ ويمكن القول ان هذا المعنى متفرع من المعنى السابق ، كما وردت أيضا بمعنى يبتعد قليلا عن ذلك ، وهو القدرة . أما المواضع التي ذكرت فيها كلمة الإحصاء في القرآن الكريم فهي الآيات من السور التالية :

---

[٥] المصدر السابق ، انظر أيضا :

مجمع اللغة العربية في القاهرة ، المعجم الوسيط ، (دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، المكتبة العلمية ــ طهران ، بدون تاريخ) ، ج١ ، ص ١٧٩ .

[٦] محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، (مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٨ هـ) ، ص ٢٠٦ .

١. السورة (١٤) : إبراهيم ، آية (٣٤) :

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، واتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الإنسان لظلوم كفار .

٢. السورة (١٦) : النحل ، آية (١٨) :

وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الله لغفور رحيم[٧].

٣. السورة (١٨) : الكهف ، آية (١٢) ، (٤٩) :

فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون : يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ، و لا يظلم ربك أحدا[٨].

٤. السورة (١٩) : مريم ، الآية (٩٤) :

ان كل من في السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا [٩].

---

(٧) والمعنى للآيتين السابقتين هو انه : يا بني آدم ، ان تعدوا نعمة الله لا تحصوها أي لا تطيقوا حصرها فضلا عن القيام بشكرها الواجب . وبنفس المعنى استعملت في السور التالية انظر : د. محمد محمود حجازي ، المصدر السابق ، ج١٣، ص ٦٧ ـ ٦٨ (ط٤، ١٩٦٤) ج١٤ ، ص ٣١ . (ط ٣ ، ١٩٦٤) ، وهذا هو المرجع الذي اعتمدناه في تفسير معاني الآيات التالية أيضا .

(٨) المعنى في هاتين الآيتين بنفس المعنى السابق ، وهو الحصر والإحاطة . انظر : المصدر السابق ، ج١٥ ، ص ٥١ ، ص ٦١ .

(٩) المصدر السابق ، ج ١٦ ، ص ٣٧ .

٥. السورة (٣٦) : يس ، الآية (١٢) :

ان نحن نحيي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في أمام مبين[١٠].

٦. السورة (٥٨) : المجادلة ، الآية (٦) :

ان الذين يحادون الله ورسوله ، كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آيات بينات ، وللكافرين عذاب مهين ، يوم يبعثهم الله جميعا ، فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد[١١].

٧. السورة (٦٥) : الطلاق ، الآية (١) :

يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ...[١٢].

٨. السورة (٧٢) : الجن ، الآية (٢٨) :

ليعلم ان قد بلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا[١٣].

٩. السورة (٧٣) : المزمل ، الآية (٢٠) :

ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وطائفة من الذين

---

(١٠) المصدر السابق ، ج٢٢ ، ص ٧٥ (طبعة ٣ ، ١٩٦٣) .

(١١) يحادون الله ورسوله ، أي يعادونهما ، كبتوا : أذلوا واهينوا ، انظر : المصدر السابق ، ج٢٨ ، ص ٦ (ط٤ ، ١٩٦٨) .

(١٢) أحصوا العدة ، أي اضبطوها ، نظرا لاختلاف الأحكام فيها ، فالمرأة المدخول بها اذا طلقت طلاقا واحدا او اثنين كان لزوجها حق مراجعتها في العدة فان فاتت العدة ، كانت خطبة من جديد ان أراد ، وان طلقها ثلاثا فانها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ، انظر المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(١٣) المصدر السابق ، ج٢٩ ، ص ١١٥ ــ ١١٦ . انظر أيضا : لسان العرب ص ١٤٨ والراغب الأصفهاني ، ص ١٢٠ .

معـك ، والله يقـدر الليل والنهـار ، علـم ان لن تحصـوه فتـاب عليكم.... [١٤].

١٠ . السورة (٧٨) : النبأ ، آية (٢٩) :

وكل شيء أحصيناه كتابا [١٥].

٣. الإحصاء في التراث العربي :

والى جانب ما تقدم فان كلمة (الإحصاء) وقـد وردت فـي بعـض أحاديث النبي الكريم وخطب وكتابات المتقدمين وتأليفهم ففـي بعـض الأحاديث المروية عـن النبـي محمـد (ﷺ) التـي تضمنـت كلمـة (الإحصاء) ، وتيسر الاطلاع عليها وهي :

١. ان لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة [١٦].

٢. اكل القرآن أحصيت [١٧].

٣. استقيموا ولن تحصنوا ، واعلموا ان خير أعمالكم الصلاة[١٨].

٤. نفس تنجيها خير لك من إمارة لا تحصيها [١٩].

وقد جاء في إحدى خطب الإمام علي (عليه السلام) : أوصيكم عبـاد الله ، بتقوى الله ، الذي ضرب الأمثال ، ووقت لكم الآجال ، وألبسـكم

---

[١٤] لن تحصوه : لن تطيقوه ، المصدر السابق ، ج٢٩، ص ١٢١ ــ ١٢٢ .

[١٥] المصدر السابق ، ج٣٠ ، ص ٧.

[١٦] لسان العرب ، ص ١٨٤٦ .

[١٧] أي حفظت ، المصدر السابق .

[١٨] المصدر السابق .

[١٩] الراغب الاصفهاني ، ص ١٢٠ .

الرياش ، وارفع لكم المعاش . وأحاط بكم الإحصاء[٢٠].

ولعل أول كتاب وضع باللغة العربية ، يحمل كلمة (الإحصاء) هو الكتاب الذي وضعه أبو نصر محمد الفارابي[٢١] في القرن العاشر الميلادي ، وفي الكتاب (جرد) لعلوم زمانه (للإحاطة) بها ، وليكون مرشداً لمن أراد التخصص فيها ، فيفاضل بين العلوم المختلفة ، ويكون على بينة من أمره في اختيار العلم الذي يريد دراسته . من ذلك قوله : " قصدنا من هذا الكتاب ان (نحصي) العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جُمل ما يستعمل عليه كل واحد منها ... وينتفع في هذا الكتاب الإنسان إذا أراد ان يتعلم علما من هذه العلوم ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة ، لا على عمى وغرور . وبهذا الكتاب يقدر الإنسان ان يقايس بين العلوم ، فيعلم ايها افضل ، وأيها انفع ، وايها أيقن وأوثق وأقوى[٢٢].

وقد وردت كلمة (إحصاء) في هذا الكتاب في عدة مواضع منها الموضع السابق من المقدمة وموضعين آخرين في الفصل الثاني والثالث سنشير اليها فيما يلي ونحن نستعرض محتويات فصول الكتاب

---

[٢٠] لقد أشار الدكتور مصطفى جواد الى هذه الخطبة في نهج البلاغة في أحاديثه المشهورة : قل ولا تقل ، ولم يتيسر لكاتب السطور العثور عليها في المرجع المذكور رغم البحث عنها ، وأحاط بكم الإحصاء يعني جعل الإحصاء من حولكم .

[٢١] الفارابي ، إحصاء العلوم ، تحقيق وتقديم وشرح الدكتور عثمان أمين ، (مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨) ، ط٣ ، وهناك من يرى ان هذا الكتاب هو من قبيل الموسوعات او دوائر المعارف ، او انه مختصر لعلوم زمانه ومرشد لمن يريد التخصص فيها ، والكتاب يقع في خمسة فصول .

[٢٢] المصدر السابق ، ص ٥٣ ــ ٦٤ .

الخمسة عن العلوم المختلفة المعروفة حينذاك ، وهي :

١. الفصل الأول : ويضم : علم اللسان وفروعه في اللغة (النحو ، الصرف ، الشعر ، الكتابة ، القراءة) .

٢. الفصل الثاني : في علم المنطق ، وفي الكلام عن هذا العلم يقول : " فنخبر بجملة ما فيه، ثم بمنفعته ، ثم بموضوعاته ، ثم بمعنى عنوانه ، ثم (نحصي) أجزاءه ، وجمل ما في كل واحد منها " .

٣. الفصل الثالث : في علم التعاليم (الرياضيات) ، ويشمل ٧ أجزاء عظمى وهي : علم العدد ، وعلم البصريات ، وعلم الفلك ، وعلم الموسيقى ، وعلم الأثقال ، وعلم الحيل (الميكانيك) . وفي نهاية الفصل ذكر المؤلف بان " هذا العلم ــ ويقصد علم التعاليم ــ ينقسم على سبعة أجزاء عظمى (أحصيناها) في أول الكتاب " .

٤. الفصل الرابع : العلم الإلهي والطبيعي وما وراء الطبيعة .

٥. الفصل الخامس : العلم المدني (الأخلاق والسياسة) وعلم الفقه ، وعلم الكلام [٢٣].

نستخلص من كل ما سبق ان (الإحصاء) لغة كانت قد أطلقت على عملية العد بالحصى أولا ، ثم توسعت فصارت تعني عملية العد بشكل مطلق . وقد وردت الكلمة بهذا المعنى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم والحديث الشريف والأدب والتراث عموما .

وكانت تحمل معنى العد مع الكثرة غالبا ، على أنها قد استعملت أيضا بمعاني آخر قريبة هي الحصر والضبط والإحاطة والقدرة أيضا . وقريب من معنى التعداد والإحاطة، استعملها الفارابي

[٢٣] المصدر السابق ، ص ٥٧ ــ ١٣٨ .

في كتابه (إحصاء العلوم) حيث عـــدد وشرح علوم زمانـــه ليتمكـــن القارئ من الإحاطة بها ، ويكون على بينة في اختيار العلم الذي يريـــد دراسته [٢٤].

وفي العصور الإسلامية أطلقت كلمة (الإحصاء) على عمليات التعداد الفعلية للمحاربين والقوة العسكرية وربما السكان عموما وأحيانـا الثروات والأراضي من وقت لآخر ، كما ستأتي الإشارة الى ذلك فـــي المبحث التالي .

ومن المؤلفات العربية الأخرى التي يمكن الإشارة اليها في هـذا الصدد هـــو كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفداء المتوفى سنة ٧٣٢هـــــ (القرن الرابع عشر الميلادي) .

والكتاب ليس في الإحصاء ، ولا يحمل تسمية الإحصاء ، ولكنه في الجغرافية ، ولا يخلو من استطرادات تاريخيـــة بالنسـبة لبعـض الأماكن التي ارتبطت ببعض الأحداث التاريخية ، والكتاب عن العـــالم المعروف يومئذ وهي (الأقاليم السبعة) التي ذكرها المؤلف . ولكـــن أهم ما يربط هذا المؤلف بعلم الإحصاء الذي ظهر فيما بعـــد هـــو ان الكتاب مرتب على شكل جداول ، ولكنها ليست جداول رقميـــة وانمـــا جداول وصفية . فكل جدول يتضمن أسماء المدن في الإقليم العرفـــي ، وقد اعتبرها المؤلف ٢٧ إقليما هي : (جزيـــرة العـــرب ، مصـــر ، المغرب ، السودان ، الأندلس ، بحر الروم (البحر الأبيض) بلاد الفرنج والأتراك ، بلاد الشام ، الصين ، الهند......... الـــخ) . وعـــدد المـــدن يختلف مـــن إقليم لآخر ، فاكبر عدد هو في إقليم الشـــام وهـــو (٧٧)

---

[٢٤] انظر : للكاتب ، الإحصاء في التراث العربي ، " مجلة الشرطة " ، العـــدد ٢٣/٢٤ ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣ ــ ٢٦ .

مدينة . واقل عدد من المدن هو (٧) في عدة أقاليم منها كرمان وسجستان وخوارزم وغيرها . والجدول يعطي لكل مدينة في الإقليم درجة ودقائق الطول والعرض ..... الخ . واهم عمود في الجدول يتضمن الأوصاف والأخبار العامة عن كل مدينة . وقد تم وضع الكتاب في شعبان سنة ٧٢١هـ (القرن ٨ الهجري أي القرن ١٤ الميلادي) .

والجدير بالذكر ان مؤلف الكتاب هو السلطان إسماعيل صاحب حماة . وكان المؤلف عالما فاضلا واسع المعرفة بعلوم كثيرة . فقد اشتهر ببراعته في الفقه والتفسير والعربية والأدب والهيأة ، والمؤلف كان قد حفظ القرآن والعربية والتاريخ والأدب ، وكان يدعى بالملك المؤيد . وقد طبع الكتاب لأول مرة في باريس سنة ١٨٤٠م تحت إشراف باحثين فاضلين من المستشرقين الفرنسيين ، والكتاب يتألف من ٣٤ فصلا من الأقاليم العرفية المذكورة فضلا عن فصول تمهيدية في الكلام عن الأرض والبحار والبحيرات والأنهار والجبال وغير ذلك[٢٥] .

ثانيا : الإحصاء في التاريخ :

من المتفق عليه تماما ان علم الإحصاء لا يغور بعيدا في أعماق التاريخ وانما نشأ في العصور الحديثة ولكن " العمليات الإحصائية " او " عمليات التعداد " على وجه الدقة قد وقعت قبل ذلك ولا يمكن اعتبار تلك العمليات هي البدايات الأولى لعلم الإحصاء ، وان كانت لا يفصلها عنه خليج كبير ـ على حد تعبير بعض الباحثين .

---

[٢٥] ابو الفداء ، تقويم البلدان (دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٤٠) ويقع في ٥٤٠ صفحة من القطع الكبير (كوارتو) عدا مقدمة مطولة بالفرنسية (حوالي ٤٠ صفحة) .

ان العمليات الإحصائية او عمليات التعداد للمحاربين او القـــوة العاملة او الثروة موغلة في القدم . ويشار أحيانا الى مثل هذه العمليـات لتعداد السكان قد وقعت في الصين القديمة عام ٢٢٣٨ قبل الميلاد . كما وقعت حوادث مماثلة في اليـــابان وروما في القرن الثامـــن والرابـــع قبل الميلاد[٢٦]. كما نعرف اليوم ان المصريين القدماء قاموا بعمل تعداد للسكان والثروة لغرض جمع المعلومات واستعمالها في مشـــاريع بنـــاء الأهرام او لغرض تحديد ما يخص كل فرد من الضريبـــة . حتـــى ان بعض المصادر تشير الى ان عملية تعداد السكان في إحـــدى الفـــترات كانت تجري بصورة دورية منتظمة كل أربع عشرة سنة . ويـــروى ان محاولات مماثلة جرت في العصور الوسطى زمن العباسيين من وصف شامل للسكان والزراعة والتجارة في بعض المناطق او مـــا قـــام بـــه الأيوبيون عام ١٢٤٠م من حصر شامل للسكان[٢٧].

وفي أوربا فقد وضعت ميزانيـــات أغســطس للإمبراطوريـــة الرومانية ، كما قام شارلمان بجرد ممتلكاته . وفي عهد وليـــم الفـــاتح جرت بعض الإحصاءات ، وظهر كتاب دومزداي لجرد الممتلكـــات ، كما تكونت تدريجيا عادة تسجيل الولادات والوفيات وعقود الزواج فـــي الكنائس ، غير ان ذلـــك كان مرتبـــطا بالتقاليد الدينية ، وبعيـــدا عن الأغراض الإحصائية الحديثة[٢٨].

---

[٢٦] انظر للكاتب : الإحصاء السكاني، ط٢ (دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٧٥)، ص ٣٥.

[٢٧] انظر للكاتب أيضا: (مبادئ طرق الإحصاء، مطبعة العاني، بغداد،١٩٦٨) ص ١٠.

[٢٨] انظر : ساطع الحصري ، محاضرات في الإحصاء ، (بغـــداد ، لـــم تذكـــر المطبعة ، حوالي ١٩٣٩) ، ص ١٠ .

ولعل اقدم النصوص عن عمليات التعداد التي تيسر الاطلاع عليها هي النصوص الواردة في " العهد القديم والعهد الجديد " عن عمليات لتعداد المحاربين والسكان في سيناء وفلسطين قبل اكثر من ثلاثة آلاف عام ، والفي عام ، انقل في أدناه النصوص التي تيسر الاطلاع عليها(٢٩).

---

(٢٩) بعد نشر كتابي الأول " مبادئ طرق الإحصاء " وقد أشرت فيه الى ورود كلمة (إحصاء) في القرآن الكريم ، اخبرني الزميل عبد المسيح شفيق في حدود سنة ١٩٧٠ الى ان إشارة وردت في الكتاب المقدس عن إجراء عمليات تعداد للسكان حصلت قبيل ولادة السيد المسيح بأشهر قلائل . وكان الزميل سامي الناصري موجودا ، فاضاف بان تفصيلات طريفة ايضاً عن عمليات تعداد في العهد القديم . وحتى ان احد أسفاره ، وهو سفر العدد اخذ اسمه من التعداد المذكور. وقد صادف ان كان بين طالباتي في الصف الثاني اقتصاد في السنة المذكورة ١٩٧١/٧٠ الأخت فكتوريا يلدا يعقوب ددبزا ، وقد سألتها عن نفس الموضوع التي استعانت ببعض الفضلاء الدارسين للكتاب المقدس فأشاروا عليها بان (سفر الملوك) من العهد القديم يحتوي أيضا على وصف لعملية تعداد ، وقد قمت بنفسي بقراءة النصوص التي أشار اليها الأستاذ الناصري والأخت فكتوريا في العهد القديم ولخصتها اما النص الذي أشار اليه الأخ عبد المسيح فقد نقله بخط يده من العهد الجديد وسلمه الي . وفي السنوات الأخيرة (سنوات التسعينات) انصرفت الى دراسة الكتاب المقدس وقمت بمراجعة ما كتبت سابقا ، وتمكنت من تحقيق إضافات مهمة ، قبل تقديم البحث للمؤتمر ، وحتى بعد تقديمه ، وبخاصة تلك المتعلقة بـ (تعدادات مرآب) التي سيلي ذكرها ، وإجراء بعض المقارنات بين النتائج .

(٣٠) لقد تمت الاستفادة من بعض المعلومات الواردة في الندوة التلفزيونية التي عقدها الدكتور حسين أمين عن خروج العبرانيين من مصر سنة ١٢٩٠ق.م. وتقتضي الأمانة الإشارة الى ذلك . د. حسين أمين ، ندوة تلفزيونية (أحاديث في التراث العربي)، قدمها مساء الخميس الموافق ١٩٧٤/١/١٧ الساعة ٨:٣٠ مساءا .

١. الإحصاء في " العهد القديم " :

يتألف الكتاب المقدس من قسمين كبيرين هما : العهد القديم والعهد الجديد ، ويتألف العهد القديم من (٣٩) سفرا أو (٤٦) سفرا حسب اجتهاد هذه الطائفة او تلك . وقد كتبت هذه الأسفار على مدى ٨٥٠ عاما (من ١٣٠٠ ــ ٤٥٠ ق.م) والكتب الخمسة الأولى من العهد القديم هي كتب التوراة الخمسة (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) التي يعتقد البعض ان موسى كتبها ، بعد ان قاد العبرانين من مصر لاحتلال فلسطين . في القرن الـ ١٣ ق.م .

وفي بعض أسفار العهد القديم وردت تفصيلات عن عمليات تعداد السكان للأغراض العسكرية زمن النبي موسى في حدود ١٣٠٠ق.م. كما جاء في سفر (العدد) ، وفي زمن الملك داود في القرن الـ ١٠ ق.م. جرى تعداد آخر ، وذلك حسب ما جاء في سفر (صموئيل الثاني) ، الذي كتب في حدود القرن المذكور ، وقد أعيد الخبر في سفر (أخبار الأيام الأولى) الذي يعتقد انه كتب في القرن الـ ٥ ق.م .

وفي الحقيقة انه في زمن موسى جرت مجموعتان من التعدادات ، الأولى في جزيرة سيناء والثانية في سهول موآب التي جرت بعد الأولى بفترة من الزمن .

٢. تعدادات سيناء :

في السنة الثانية لخروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى حوالي ١٢٩٠ ق.م. وهم في برية سيناء في طريقهم الى ارض الكنعانيين ، أمر الرب موسى وهارون ان يقوما بتعداد بني إسرائيل من

ابن ٢٠ سنة فصاعدا، على ان يشمل التعداد جميع أسباط بني إسرائيل، باستثناء سبط اللاويين الذين يتولون الكهانة ، إذ شملهم تعداد آخر ، من ابن شهر فما فوق ، ثم تعداد ثالث لعشائر بني لاوى بعمر ٣٠ سنة فما فوق ، وتعداد رابع لكل بكر ذكر من بني إسرائيل .

وفيما يأتي النصوص الخاصة بهذه التعدادات ونتائجها . ففي سفر (العدد) الإصحاح الأول (الفصل الأول) ورد النص التالي :

" وكلم الرب موسى في برية سيناء ، في خيمة الاجتماع ، في أول الشهر الثاني ، في السنة الثانية لخروجهم من ارض مصر قائلا : أحصوا كل جماعة بني إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم ، بعدد أسمائهم ، كل ذكر من ابن عشرين سنة فصاعدا ، كل خارج للحرب في إسرائيل .

تحسبهم أنت وهارون حسب أجنادهم . ويكون معكما رجل لكل سبط . رجل هو راس لبيت آبائه وهذه أسماء الرجال الذين يقفون معكما (ويعدد النص أسماء الرجال لكل سبط) . فاخذ موسى وهارون هؤلاء الرجال الذين تعينوا بأسمائهم . وجمعا كل الجماعة في أول الشهر الثاني . فانتسبوا الى عشائرهم وبيوت آبائهم، بعدد الأسماء من ابن عشرين سنة فصاعدا برؤوسهم ، كما أمر الرب موسى ، فعدهم في برية سيناء .

وكانت نتائج العد كما في الجدول الآتي الذي تم إعداده من النص المذكور :

جدول رقم (١)

جدول يبين عدد بني إسرائيل الذكور الذين تزيد أعمارهم عن عشرين عاما (تعداد سيناء)

(نتائج إحصاء بني إسرائيل الأول)

الأسباط	العدد
١.بنو رابين	٤٦٥٠٠
٢.بنو شمعون	٥٩٣٠٠
٣.بنو جاد	٤٥٦٥٠
٤.بنو يهوذا	٧٤٦٠٠
٥.بنو بساكر	٥٤٤٠٠
٦.بنو زبولون	٥٧٤٠٠
٧.بنو افرايم بن يوسف	٤٠٥٠٠
٨.بنو منسي بن يوسف	٣٢٢٠٠
٩.بنو بنيامين	٣٥٤٠٠
١٠. بنو دان	٦٢٧٠٠
١١. بنو اشير	٤١٥٠٠
١٢. بنو نفتالي	٥٣٤٠٠
المجموع	٦٠٣٥٥٠

المصدر : كتاب العهد القديم ، سفر العدد ، الإصحاح الأول ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٨ .

" هؤلاء هم المعدودون الذين عدهم موسى وهارون ، ورؤساء إسرائيل اثنا عشر رجلا ، رجل واحد لبيت آبائه . فكان جميع

المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعدا ، كل خارج للحرب في إسرائيل . كان جميع المعدودين ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسون . واما اللاويون حسب سبط آبائهم فلم يعدوا بينهم . إذ كلم الرب موسى قائلا :

اما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعده بين بني إسرائيل " [٣١].

ولكن بني لاوى وهم الذين يقومون بخدمة الكاهن وحفظ العشائر ، ويخدمون المسكن ، ويحرسون بني إسرائيل جرى تعدادهم بعد ذلك :
" وكلم الرب موسى في برية سيناء قائلا : عدّ بني لاوى حسب بيوت آبائهم وعشائرهم كل ذكر من ابن شهر فصاعدا ، تعدهم ، فعدهم موسى حسب قول الرب كما أمر ... [٣٢].

اما نتيجة التعداد لعشائر بني لاوى للذكور من ابن شهر فصاعدا فهي في الجدول الآتي الذي تم عمله من النص المذكور ثم تبع ذلك النص الآتي : " فكان مجموع المحصيين من ذكور اللاويين من ابن شهر فما فوق الذين أحصاهم موسى وهارون حسب عشائرهم كما أمر الرب ٢٢ ألفا " .

---

(٣١) الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) ، جمعية التوراة الأمريكية وجمعية التوراة البريطانية والأجنبية ، طبع في القاهرة ، ١٩٣٨ ، سفر العدد ، ف١ .

(٣٢) المصدر السابق ، سفر العدد ، ف ٣ .

جدول رقم (٢)

جدول يبين عدد الذكور بعمر شهر فما فوق من عشائر بني لاوى

(تعداد سيناء)

العشائر	العدد
عشائر الجرشونيين	٧٥٠٠
عشائر القهاتيين	٨٦٠٠
عشائر مرارى	٦٢٠٠
المجموع	٢٢٣٠٠

المصدر : العهد القديم ، سفر العدد ، الإصحـــاح الثـــالث ص ٢١١ ـــ ٢١٢ .

ويلاحظ ان المجموع في هذا الجدول والبالغ ٢٢٣٠٠ شـــخص يختلف عن المجموع المذكور في النص والبالغ ٢٢ ألفا فقط . وقد كنت أظن ان هذا الاختلاف هو بسبب سهو من النساخ ، او هو نـــوع مـــن الأخطاء الأسلوبية ، أي الاهتمام بـــالأعداد الكاملـــة (الآلاف هنـــا) وإهمال أجزاءها . ولكن نصا آخر اظهر ان هذا الخطأ كان أصيلا .

فقد أمر الرب ان يحصى كل ذكر بكر من بني إسرائيل من ابن شهر فما فوق ، وان يدون أسماءهم جميعاً ، فنفذ موسى أمر الـــرب . فكان عدد الذكور والأبكار من ابن شهر فما فوق ٢٢٢٧٣ أي بزيـــادة قدرها ٢٧٣ شخصا عن المجموع المغلوط السابق ، ولو اخذ بالمجموع الصحيح لم تكن هناك زيادة .

وقد أمر الرب موسى ان يأخذ فداءً عن هذه الزيادة[٣٣] ، كما جاء في النص التالي :

" واما فداء المئتين والثلاثة والسبعين من أبكار بني إسرائيل الزائد عن عدد اللاويين فتأخذ عن كل واحد منهم خمسة شواقل (نحو ٦٠ غراما) من الفضة ، وفقا للوزن المعتمد في القدس ... وتعطى الفضة لهارون وأبنائه فدية عن الأبكار الزائدين عن عدد اللاويين .

فجمع موسى الفضة من الزائدين عن عدد اللاويين فداءً لهم ، جباها من أبكار بني إسرائيل فكانت ١٣٦٥ شاقل من الفضة على شاقل القدس نحو ١٦ كغم و $\frac{١}{٣}$) واعطى موسى الفدية لهارون وابنائه كما أمر الرب [٣٤].

(لان : ١٣٦٥ × ١٢ غم = ١٦٣٨٠ غم و ٢٧٣ × ٦٠ غم = ١٦٣٨٠غم = ٣٨٠, ١٦ كغم ولو افترضنا ان المجموع الذي استخرجناه في الجدول والبالغ ٢٢٣٠٠ هو خطأ ، وان الصحيح هو ما ذكر في السياق ، وهو ٢٢ ألفا ، فان الاحتمال الآخر هو وجود خطأ في الأرقام المكونة له ، وهي أعداد الجرشونيين او القهايتين او بني مراري ، أي ان الخطأ موجود ، ولكن لا يمكن الجزم اين ذلك .

كما أُجري تعداد آخر للذكور من العشائر الثلاثة السابقة من ابن ثلاثين سنة فصاعدا ، الى ابن ٥٠ سنة ، كما في النص التالي :

---

[٣٣] ولم يفهم لماذا هذا الفداء عن الزيادة .

[٣٤] انظر : الكتاب المقدس (كتاب الحياة) ط٤ ، سفر العدد ، ف٣ ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ (القاهرة ، ١٩٩٢) ، ولا تعرف بالضبط لماذا دفعت الفدية عن هذه الزيادة ، وما العلاقة بين الذكور الأبكار من بني إسرائيل ، وذكور اللاويين مجتمعين .

" وامر الرب ان يعد موسى وهارون بني قهات وبني جرشون وبني مرارى من ابن ثلاثين سنة فصاعداً الى ابن خمسين سنة كل الداخلين يتخذوا أجنادا ليخدموا خدمة في خيمة الاجتماع فعد موسى وهارون كما أمر الرب " . فكانت النتيجة كما في الجدول التالي :

جدول رقم (٣)

جدول يبين عدد الذكور بعمر ثلاثين سنة فما فوق من عشائر بني لاوى

العشائر	العدد
بني القهاتيين	٢٧٥٠
بني جرشون	٢٦٣٠
بني مرارى	٣٢٠٠
المجموع	٨٥٨٠

المصدر : العهد القديم ، سفر العدد ، الإصحاح الرابع ، ص ٢١٥ ــ ٢١٦ .

وتجدر الإشارة الى ان تعداد اللاويين هذا قد جرى لغرض تحديد الخدمة التي توكل الى كل عشيرة من عشائر اللاويين الثلاثة في مجال الكهنوت [٣٥].

ب ــ تعدادات موآب :

التعدادات السابقة في صحراء سيناء قد جرت للأغراض العسكرية بالدرجة الأولى ، كما كان واضحاً ، اما تعدادات موآب هذه فقد جرت لغرض مختلف آخر ، وهو توزيع الأراضي المستولي عليها بين المحاربين من أسباط بني إسرائيل وفقا لنسبة عدد أفراد كل سبط ،

---

[٣٥] المصدر السابق ، سفر العدد ، ف ٤ ، ص ١٧٥ ــ ١٧٧ .

قال الرب لموسى والعازار بن هارون الكاهن (وكان هارون قد مات قبل الآن) : أحصيا كل جماعة بني إسرائيل من ابن ٢٠ سنة فما فوق ، من القادرين على التجنيد في جيش إسرائيل حسب انتماء كل منهم لسبطه .

فقال موسى والعازار الكاهن للشعب في سهول موآب بقرب نهر الأردن ، مقابل أريحا : أحصوا كل رجل من ابن ٢٠ سنة فما فوق ، كما أمر الرب موسى ، فكان هؤلاء هم الخارجون من ديار مصر . وكانت نتيجة هذا الإحصاء كما في الجدول الآتي :

جدول رقم (٤)

جدول يبين عدد بني إسرائيل من الذكور بعمر ٢٠ عاما فما فوق (موآب)

(نتائج إحصاء بني إسرائيل الثاني)

السبط	العدد	السبط	العدد
١. روآبين	٤٣٧٣٠	٧. منسى بن يوسف	٥٢٧٠٠
٢. شمعون	٢٢٢٠٠	افرايم بن يوسف	٣٢٥٠٠
٣. جاد	٤٠٥٠٠		٨٥٢٠٠
٤. يهوذا	٧٦٥٠٠	٨. بنيامين	٤٥٦٠٠
٥. يساكر	٦٤٣٠٠	٩. دان	٦٤٤٠٠
٦. زبولون	٦٠٥٠٠	١٠. اشير	٥٣٤٠٠
		١١. نفتالي	٤٥٤٠٠
المجموع			٦٠١٧٣٠

المصدر : سفر العدد ، ف ٢٦ .

اما اللاويون الذين أحصوا حسب عشائرهم فهم الجرشونيون والقهاتيون والمراريون وغيرهم ، فقد بلغ عددهم ٢٣٠٠٠ من ابن شهر

فما فوق . وهؤلاء لم يحصوا مع بقية الإسرائيليين لانهم لم يرثوا نصيبا بين بني إسرائيل ، يقول النص :

هؤلاء هم الذين أحصاهم موسى والعازار الكاهن حين قام بإحصاء بني إسرائيل في سهول موآب ، بالقرب من نهر الأردن .

ولم يكن هؤلاء المحصين إنسان ممن عددهم موسى وهارون سابقا في صحراء سيناء ، لان الرب كان قد قال لهم انهم جميعا سيموتون في الصحراء ، فلم يبق منهم إنسان سوى كالب بن يغنه ويشوع بن نون[٣٦].

جـ ــ تعداد داود :

ثم جرى تعداد آخر زمن الملك داود لإسرائيل ويهوذا ، كما يرويه النص من الفصل ٢٤ من سفر الملوك الثاني (صموئيل الثاني) من العهد القديم :

وعاد غضب الرب فاشتد على إسرائيل فأغرى بهم داود قائلا : اذهب فإحص إسرائيل ويهوذا . فقال الملك ليوآب رئيس الجند الذي معه : طف في جميع أسباط إسرائيل من دان الى بئر سبع ، وأحصوا الشعب لكي اعلم عدد الشعب . فقال يوآب للملك ليزد الرب إلهك الشعب مثلهم ، بل أمثالهم مائة ضعف . وعينا سيدي الملك ناظرتان ، واما سيدي الملك فما يريد بهذا الأمر ؟ فغلب الملك على يوآب وعلى رؤساء الجيش ، فخرج يوآب ورؤساء الجيش من عند الملك ليحصوا شعب إسرائيل ، فجازوا الأردن (ودار في مدن ومناطق كثيرة ، منها صيدون وحصن صور وغيرها) ولما طافوا في الأرض كلها رجعوا

---

[٣٦] سفر العدد ، س ٢٦ .

الى اورشليم بعد ٩ اشهر و ٢٠ يوما ، فرفع يوآب جملة عدد الشعب الى الملك ، فكان إسرائيل ٨٠٠ ألف رجل من القادرين على حمل السلاح . ورجال يهوذا ٥٠٠ ألف رجل ، فخفق قلب داود من بعد إحصاء الشعب وقال داود : قد خطئت جدا فيما صنعت .

وقد خير الرب داود بواسطة جاد النبي بين إحدى ٣ مصائب تقع عليه وعلى قومه ليختار إحداها :

اما ان تجتاح البلاد ٧ سنين جوع ، أو يهرب ٣ اشهر أمام أعدائه يتعقبونه او يتفشى وباء في أرضه طول ٣ أيام .

فكر داود في الأمر مليا وقال : خير لي ان أقع في يد الرب لان مراحمه كثيرة ، من ان أقع بين يدي إنسان ، فاختار الثالثة ، فنزل وباء من دان الى بئر سبع ، مات منهم ٧٠ ألف رجل ، ثم أقام داود مذبحا للرب ، عندئذ تعطف الرب على الأرض ، وكفت الضربة عن إسرائيل[٣٧].

ويلاحظ ان هناك نوعا من التناقض في هذا النص ، فما دام الرب هو الذي أمر بالإحصاء فلما يغضب وينزل عليهم البلاء ؟

وعلى أية حال ، فانه ومما تقدم يمكن ملاحظة ما يأتي :

١. ان كلمة (إحصاء) الواردة في النصوص السابقة هي بمعنى العد .
٢. ان التعداد كان بأمر من الرب .
٣. ان التعداد اقتصر غالبا على الرجال البالغين الذين يحملون السلاح ، أي ان التعداد كان للأغراض العسكرية ، أو لتوزيع

---

(٣٧) الكتاب المقدس ، العهد العتيق ، سفر الملوك الثاني (صموئيل الثاني) الفصل ٢٤ (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥١) ، ص ٥٤٥ ــ ٥٤٧ .

الأراضي على المحاربين ، وأحيانا شمل الذكور الصغار أيضاً .

وقد رويت تلك الواقعة مرة أخرى في سفر (أخبار الأيام الأولى) ، الفصل ٢١ مع بعض الاختلافات ، ولكن دون تناقض هذه المرة . فالذي أمر بالإحصاء هو الشيطان ولذلك فعندما استجاب داود وقام بالإحصاء ، غضب الرب عليه وعلى بني إسرائيل ، وخيره بين ٣ عقوبات ليختار إحداها . أما لماذا كان إجراء الإحصاء ممقوتا في عيني الرب فهذا مما يتعذر تفسيره ، لعل السبب هو ان الشيطان أمر بذلك ، يقول النص :

وتآمر الشيطان ضد إسرائيل فأغرى داود بإحصاء الشعب ، فامر داود يوآب ورؤساء إسرائيل بان يعدوا الشعب من دان الى بئر سبع ، ثم يرفعوا اليه تقريرهم ليعرف عدده . فأجاب يوآب معترضا : ليزد الرب شعبه مائة ضعف . أليسوا جميعا رعية سيدي الملك؟ لماذا يطلب سيدي هذا ؟ ولماذا يجلب إثما " على إسرائيل ؟ .

ولكن كلمة الملك غلبت على اعتراض يوآب ، فانطلق يوآب يطوف في أرجاء إسرائيل ثم رجع الى اورشليم ، فرفع يوآب تقرير إحصاء الشعب الى داود ، فكانت جملة عدد الصالحين للتجنيد في إسرائيل ١١٠٠ ألف ، وفي يهوذا ٤٧٠ ألفا ، وجميعهم من حملة السيوف ، ولم يحصى يوآب سبطي لاوى وبنيامين لان طلب الملك لم يكن يحظى برضاه .

وإذا كان إجراء هذا الإحصاء ممقوتا في عيني الله ، عاقب الله الإسرائيليين فقال داود لله : لقد ارتكبت إثما عظيما حين أقدمت على هذا العمل ، فامح الآن إثم عبدك لأنني حمقت جدا ، فقال الرب لجادرائي داود : (هو النبي في بني إسرائيل)

اذهب وقل لداود بأنني اعرض عليه ٣ أمور ليختار واحدا منها : اما ٣ سنين مجاعة ، او ٣ اشهر يطارده فيها أعداؤه ، او ٣ أيام يتفشى فيها الوباء في الأرض ، فأجاب داود : خير لي ان استسلم لقبضة الرب لانه واسع الرحمة ، من ان أقع تحت رحمة إنسان ، واختار الأمر الثالث ، فتفشى الوباء في ارض إسرائيل مات فيه ٧٠ ألف رجل ، وبنى داود مذبحاً للرب ، ودعاه فاستجاب له وقبل تضرعه فكفت الضربة عن إسرائيل(٣٨).

ويلاحظ ان هناك بعض الاختلافات بين هذا النص والنص السابق ، يمكن تلخيصها في الجدول الآتي :

الفقرة	صموئيل الثاني	أخبار الأيام الأولى
١.من الذي أمر بالإحصاء ؟	الرب	الشيطان
٢.نتائج الإحصاء	١٣٠٠ ألف	١٥٧٠ ألفا
٣. التناقض	موجود	غير موجود
٤.فترة التعداد	٩ اشهر و ٢٠ يوما	لم تذكر
٥.العقوبة الأولى .	٧ سنين مجاعة	٣ سنين مجاعة

ولذلك فان هذا المصدر الثاني اكثر قبولا ما سابقه لخلوه من التناقض ، وانسجام العقوبات مع بعضها ، وذكر فترة التعداد ، وعليه فان النتائج الأخيرة هي التي يمكن الاطمئنان اليها اكثر من سابقتها ، وجدير

(٣٨) أخبار الأيام الأولى ، ف٢١ ، وهنا يثار التساؤل الآتي : لماذا يعتبر الإحصاء عملا ممقوتا في نظر الرب وهل لا يزال كذلك في نظر اليهود والمسيحيين حتى الآن ونحن نعلم انهم يمارسونه بدون تحفظ ؟

بالإشارة ان السفر الأول قد كتب في حدود القرن ١٠ ق.م . ، بينما كتب الثاني في القرن الـ ٥ ق.م [٣٩].

٢ ـ الإحصاء في " العهد الجديد "[٤٠]

في إنجيل لوقا نص عن إجراء تعداد آخر في فلسطين أيضاً قبيل ولادة السيد المسيح بأشهر قلائل : فقد جاء في هذا النص :

" وفي تلك الأيام صدر امر من أغسطس قيصر بان يكتب كل المسكونة ، وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كبرينيوس والى سورية ، فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد الى مدينته فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة الى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى ، وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنتها البكر وقمطته وأضجعته في المذود ، إذ لم يكن لهما موضع في المنزل[٤١].

ويلاحظ من هذا النص ان التعداد لم يكن بأمر الرب او الشيطان هذه المرة ، كما انه لم يكن للأغراض العسكرية او أي غرض واضح آخر .

٣ ـ التعداد الذي أدى الى تشريد اليهود :

في ٦ او ٧ من ميلاد المسيح وقعت حوادث انتهت بعزل

---

[٣٩] الكتاب المقدس ، كتاب الحياة ، ص ٣٥١ و ص ٥٢٢ .

[٤٠] العهد الجديد هو القسم الثاني من الكتاب المقدس ، ويضم الأناجيل الأربعة ، واعمال الرسل ورسائلهم والرؤيا التي كتبها يوحنا ، ومجموع أسفار العهد الجديد ٢٧ سفراً ، وهي مقدسة لدى المسيحيين فقط ، بينما العهد القديم يعتمده اليهود والمسيحيون معا .

[٤١] العهد الجديد ، انجيل لوقا ، الإصحاح الثاني ، (جمعية التوراة الاميركانية ، جمعية التوراة البريطانية والأجنبية ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ١٩٤١) .

ارخيلاوس عن الإمارة عن اليهود في فلسطين ، وارخيلاوس هذا هو ابن هيرودس وخليفته ، فقد صدر مرسوم روماني باعتبار فلسطين رومانية ، وليس لها كيان ذاتي . فقد بدأت هذه الحوادث بأمر من السلطات الرومانية بعمل تعداد إحصائي لليهود الموجودين في فلسطين إذ ذاك ، مما أدى الى تمرد بعض اليهود . ويبدو ان السبب للتمرد هو ان اليهود كانوا أقلية وان عملية التعداد لم تكن في مصلحتهم . لذلك لم يجدوا حلا للموقف الا في العنف والتخريب والاغتيال والاضطرابات بهدف إقامة حكومة إسرائيلية في فلسطين تعتمد على القوة وانتزاعها من يد الرومان . والجماعة التي قامت بالحركة عرفت باسم (القنايئن) .

فقد قام أحدهم واسمه (يهوذا دي جملا) ويعرف باسم (يهوذا الجليلي) ، نسبة الى مقاطعة الجليل في شمال فلسطين ، واتفق سراً مع أحد الفريزيين واسمه (صدوق) على إشعال نار الثورة . ولكنه لم ينجح هو وصاحبه إلا في استقطاب بعض المتطرفين وتكوين عدد محدود من العصابات ولما علم الرومان بذلك هبوا لقمع هذا التمرد ونجحوا في إبادة هذه العصابات والقضاء على الرجلين المتزعمين . ومنذ ذلك الوقت أصبحت حركة القنائين حركة سرية تعتمد على الاغتيال ، وكانت ضحاياها ، من بين اليهود المتعاونين مع الرومان . وكان زعيمهم هو (مناحم بن يهوذا الجليلي) الذي قاد الحركة بعد أبيه ، وراح ينشر الاضطرابات في أرجاء فلسطين سنة ٦٦م مما أدى الى التدخل الروماني الحاسم سنة ٧٠م وانتهى فيه أمر القنائين ، وامر اليهود جميعاً .

وإذا كان جماعة القنائين قد اندثرت كتنظيم فان منهاجها ووسائلها كما يرى بعض الباحثين ما تزال توحي للفكر الصهيوني الحديث بكثير من التفاصيل التعسفية التي يعتمدها المتطرفون . وقد أطلقت عليهم بعض الفرق اليهودية الأخرى عبارات مثل (الإرهابيون) أو (السفاحون) أو (قطاع الطرق) أو (الخارجون عن القانون) أو (المتمردون) .

ومنذ التاريخ المذكور سنة (٧٠ م) تشرد اليهود في الأرض على يد تيتوس ، وقد تكرر ذلك مرة أخرى على يد هدريان سنة ١٣٥م ، ولم تقم لهم قائمة حتى العصر الحديث رغم ما قاموا به من محاولات[٤٢].

٤ ـ الإحصاء في الدولة العربية الإسلامية :

ظهرت الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية ، ومنها انتشرت الى الأقطار المجاورة ، وتوجد إشارات كثيرة الى ان عمليات الإحصاء (التعداد) قد استخدمت في كثير من الفترات لأغراض حصر القوة العسكرية ، ولغرض جباية الزكاة والجزية والخراج وغيرها . وقد توسعت تلك التعدادات على عهد المأمون[٤٣] .

---

[٤٢] انظر " د. حسن ظاظا ، الفكر الديني الإسرائيلي ، أطواره ، ومذاهبه (قسم البحوث والدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٥) ص ٢٤٥ ، ٢٦٣ ــ ٢٦٤ . وقد اعتمد المؤلف في ذلك على دائرة المعارف العبرية ، المجلد ٩ ، ص ٢٢٠ وما بعدها ، نقلا عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس (حرب اليود) . وكما رأينا فان تعدادا سابقاً أشرنا اليه سنة ميلاد المسيح فهل هذا هو تعداد آخر اجري بعد سبع سنوات وهو احتمال ضعيف ، أم انه نفس التعداد السابق المشار اليه ، وقد وقع اختلاف في سنة التعداد .

[٤٣] انظر : د. ناظم حيدر ، المدخل الى دراسة الإحصاء ، ج١ ، ط٢ (مطبعة جامعة دمشق ، سنة ١٩٦٥) ص ٥ .

ولعل أولى المحاولات الإحصائية بعد قيام الدولة الإسلامية هي التي قام بها عمرو بن العاص لإحصاء المسلمين في مصر لغرض استيفاء الجزية من أهل مصر . والنص التالي يوضح لك :

عندما فتح عمرو بن العاص مصر فرض على أهلها الجزية ، وعلى أرضها الخراج فوضع على كل حالم دينارين جزية ، الا ان يكون فقيراً . والزم كل ذي ارض مع الدينارين ثلاثة أرادب . حنطة ، وقسطي زيت ، وقسطي عسل ، وقسطي خل رزقا للمسلمين تجمع في دار الرزق ، وتقسم فيهم . " وأحصي " المسلمون . فالزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسا او عمامة وسراويل وخفين في كل عام او عدل الجبة ثوبا قبطيا . وكتب عليهم بذلك كتابا ، وشرط لهم إذا وفوا بذلك ان لا تباع نساؤهم وأبناؤهم ، ولا يسبوا ، وان تقر أموالهم ، وكنوزهم في أيديهم . فكتب بذلك الى أمير المؤمنين عمر فأجازه(٤٤).

ويبدو ان عمليات الإحصاء قد تواصلت بعد ذلك عندما توجد حاجة إليها وخاصة بالنسبة للرجال القادرين على حمل السلاح او الثروة ، على انه قد يصاحب ذلك أحيانا بعض الأحداث والمفارقات ، من ذلك الحادثة التالية :-

" كان عمرو بن عبد العزيز قد كتب الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أحص جميع المخنثين بالمدينة ، فصحف الكاتب ، فقال :

---

(٤٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٨) ص ٢١٦ .

أخص . فجمع كل من قدر عليه منهم ، فخصاهم جميعا "(٤٥).

ثالثا : بدايات علم الإحصاء :

ان العمليات الإحصائية أو عمليات التعداد السابقة لا يصح ان تعتبر البدايات الأولى لعلم الإحصاء بأصوله وقواعده الحديثة . ولكنها من الناحية الأخرى يمكن ان تعتبر صورا من صور الحاجة الى هذا العلم في مختلف العصور وخاصة فيما يتعلق بإحدى وظائفه المهمة ، وهي عملية جمع المعلومات من خلال عملية التعداد الفعلي للمجتمعات سواء كانت تلك المجتمعات متمثلة بعدد الرجال القادرين على حمل السلاح ، أو القادرين على العمل ، أو الأراضي المزروعة او أنواع الثروات الأخرى . ويبدو لي انه يصح ان نسمي تلك العمليات بـ (التعدادات العفوية) أو (الإحصاء العفوي) .

وإذن ، متى وأين وكيف بدأ علم الإحصاء ؟

وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات ، ينبغي التوقف قليلا لتوضيح نقطة مهمة وخاصة بالنسبة للباحثين العرب ، لئلا يقع اللبس بالنسبة لمعنى كلمة (إحصاء) فقد رأينا ان المعنى اللغوي لهذه الكلمة كان يعني العد والحصر والإحاطة ثم أطلقت على عمليات التعداد العفوية التي كانت تجري خلال الحقب التاريخية المختلفة . وفي العصر الحديث ، وربما في الثلاثينيات من هذا القرن على وجه التحديد أطلقت الكلمة كترجمة لكلمة Statistics وهو اسم لعلم حديث النشأة ، ولم يكن في بدايته يتضمن عمليات العد أصلا ، ثم تطور بعد ذلك ليشمل

---

(٤٥) أبو عبد الله محمد عبدوس الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، حققه ، ووضع فهارسه : مصطفى السقا ، إبراهيم الانباري ، عبد الحفيظ شلبي ، ط١ ، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، بالقاهرة ، ١٩٣٨) ص ٥٤ .

الجوانب الكمية للظواهر ، بضمنها عمليات التعداد الحديثة ، كوسيلة لتوفير تلك البيانات الكمية . وكما أشرنا آنفا فان عمليات التعداد وعمليات الجرد القديمة لا يمكن ان تكون بدايات لعلم الإحصاء الحديث، وانما هي أوليات طبيعية له . ان البدايات الحقيقية لعلم الإحصاء في نظر مؤرخي هذا العلم ، هي نوعان من الدراسات علم الدولة Staatenkunde في ألمانيا في القرن السابع عشر والحساب السياسي Political Arithmetic في إنكلترا في القرن المذكور (٤٦).

١. علم الدولة :

علم الدولة أو علم شؤون الحكومات يتناول وصف الدولة وما يتعلق بها من أمور كثيرة كالأرض والسكان والثروة والتشكيل الحكومي وغيرها . وقد كان هذا العلم وصفيا لا يعني بالتعبير الرقمي كثيرا ، ويقتصر على وصف للأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدول الأوربية . ان هذا الفرع من الدراسة بدأ في إيطاليا في أواسط القرن السادس عشر ، واقدم الكتب التي جمعت معلومات عن الممالك ظهر في إيطاليا هو كتاب فرانسيسكو سانسوفيني Francesco Sansovini (١٥٦١) . فقد نشأ المؤلف في البندقية يوم كانت أهم مراكز التجارة في العالم . وكانت ترسل ممثلين وقناصل الى الممالك والأقطار المختلفة وكان هؤلاء يزودون الحكومة بتقارير رسمية عن أحوال تلك الأقطار بقصد خدمة التجارة . وقد قام سانسوفيني بدراسة هذه التقارير ، ولخص المعلومات التي فيها وألف كتابا يحتوي على معلومات مهمة

---

(٤٦) م . جي . كندال ، أين يبدأ تاريخ الإحصاء . لخصها عن الإنكليزية د. عبد الحسين زيني ، مجلة البحوث الاقتصادية والإدارية ، العدد ٢ ، السنة ٦ ، مايس ١٩٧٨ ، ص ٣١٣ ـ ٣١٨ .

عن الأحوال الاقتصادية والإدارية في (٢١) دولة . وقد نال الكتاب رواجا عظيما في إيطاليا .

وفي أواخر القرن المذكور نشر مؤلف إيطالي آخر هو جيوفاني بوتيرو Giovanni Bottero كتابا آخر من هذا القبيل اعتمادا على التقارير الواردة الى البلاط البابوبي من رجال الدين والمبشرين المنتشرين في الممالك المختلفة . وقد نال هذا الكتاب رواجا عظيما أيضا ، وترجم الى لغات عديدة [٤٧].

اما أول من استخدم كلمة إحصاء فهو المؤرخ الإيطالي جيرلا موغليني Girola Moghilini (١٥٨٩) . في مؤلفه :

Civile, Politica, Statistica, militare Scienza

وفي القرن السابع عشر والثامن عشر توسعت هذه الدراسات، بعد ان انتقلت الى ألمانيا ودول أُخر، وتعددت المؤلفات في هذا المجال، مثل مؤلفات سكندروف Seckendrof (١٩٥٦) ومحاضرات هرمان كونرينك Herman Conring المنشورة من قبل اولدنبرغر Oldenourger (١٦٧٣) ، وكتابات انكرسون Ancherson (١٧٤١) ، وسوسملخ Sussmilch (١٧٤١) ، وآخنفال Achenwall (١٧٤٨) وبوشنغ Busching (١٧٥٤)[٤٨] .

لقد قام كونرينك (١٦٠٦ ـ ١٦٨١) بوضع محاضرت في علم الدولة وتدريسها في جامعة هلشتاد في ألمانيا . فقد درس فيها الطب والفلسفة والسياسة مدة طويلة . وفي سنة ١٦٦٠ بدأ درسا جديدا هو علم الدولة تناول فيه وصف أحوال الدولة ، يشمل أراضيها ،

---

[٤٧] الحصري ، المصدر السابق ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

[٤٨] كندال ، المصدر السابق ، ص ٣١٥ .

ونفوسها ، وجيوشها ، واقتصادياتها . واقتفى أثره عدد غير قليل من العلماء في سويسرا وهولندا وفرنسا وإنكلترا[٤٩]. وقد نشرت محاضراته فيما بعد ، كما أشرنا .

أما اخنفال (١٧١٩ ــ ١٧٧٣) الذي كان مدرسا في جامعة ماربورغ وجامعة كوتنكن في ألمانيا فانه الذي أطلق على هذا الفرع من الدراسة التسمية الجديدة Statistik (الإحصاء)[٥٠] التي ترجع في اصلها الى كلمة Status اللاتينية التي تعني الحالة او الدولة [٥١].

وهذه التسمية هي التي انتقلت من اللغة الألمانية الى كثير من اللغات الأوربية[٥٢]، ومنها الإنكليزية[٥٣]. وليس صحيحا ما تذكره بعض الكتب الإحصائية العربية من ان التسمية الإنكليزية مشتقة من كلمة State أي الدولة ، بل أنها أخذت من الألمانية كاملة .

وعلى أية حال فان علم شؤون الحكومات رغم تسميته الجديدة فقد بقى علما وصفياً لا يعني بالتعبير الرقمي إلا قليلا . حتى ان المؤرخ الدانماركي المذكور انكرسون عندما رسم جدولا يبين حالات

---

[٤٩] الحصري ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

[٥٠] المصدر السابق ، ص ٢٨ .

[٥١] انظر : القاموس اللاتيني الروسي ، (موسكو ، الدار الحكومية لنشر القواميس الوطنية والأجنبية (١٩٦١) ، ط٢ ، ص ٦٤٠ .

[٥٢] يدعى الإحصاء بالألمانية Statistik وبالسلوفاكية Statistika وبالإنكليزية Statistics وبالجيكية Statistika وبالفرنسية Statistlque وبالمجرية Statisztika وبالإيطالية Statistica وبالروسية Statistika .

[٥٣] انظر :

The American College Dictionary (New York), Random House, 1956, PP. 1180 – 1181.

بعض الممالك الأوربية في كتابه الذي نشره في السنة المذكورة فانه لم يستعمل الأرقام ، بل ملأ الجدول بأوصاف لفظية أمام كل دولة[٥٤]. لعل ما يشبه ذلك في تراثنا العربي كتاب ابي الفداء ، تقويم البلدان ، الذي أشرنا اليه .

اما يوهان بيتر سسملخ (١٧٠٧ ــ ١٧٦٧) فهو من رجال الدين البروسيين وقد نشر كتابه القيم في سنة ١٧٤١ كما أشرنا ، وقد درس فيه النفوس المسجلة في الكنائس منذ القرن الحادي عشر ، وبذلك وضع أسس الأبحاث الإحصائية وفقا لقانون الأعداد الكبيرة ، ولهذا سمي (أبو الإحصاء الحديث)[٥٥]. ولهذا يمكن القول ان المنهج العلمي لسيسملخ اقرب الى الفرع العلمي الآخر الذي يعتبر السلف الحقيقي لعلم الإحصاء .

٢. الحساب السياسي :

الحساب السياسي هو فرع من الدراسات الاقتصادية والاجتماعية التي غلب عليها الطابع الكمي ، وقد بدأ في إنكلترا في القرن السابع عشر . ورغم ان رواد هذا النهج من الدراسات كانوا عديدين ، إلا انه قد ارتبط باسم أحد رواده المشهورين هو السير وليم بتي William Petty (١٦٢٣ ــ ١٦٨٧) . وفي كتابه الذي ألفه سنة ١٦٨٣ (خمس مقالات في الحساب السياسي Five Essays in Political Arithmetic) كان قد استعمل فيه الطرائق الكمية في دراسة الضرائب والنقود المالية . ويعتبر بتي من الاقتصاديين

---

[٥٤] د. عبد الحسين زيني ، (مبادئ طرق الإحصاء ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٨) ، ص ١١.

[٥٥] الحصري ، المصدر السابق ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

الكلاسيك ، الا انه اهتم بالطريقة الاستقرائية ، على عكس المدرسة الكلاسيكية التي كانت تتبع الطريقة الاستنتاجية . وهذا الاهتمام بالطريقة الاستقرائية أدى الى وضع أسس الطريقة الإحصائية التي هي من أدق الطرق الاستقرائية ، ولذلك يعتبره البعض المؤسس لعلم الإحصاء ، كما يعتبره آخرون (أب الاقتصاد السياسي) .

وقد سبق بتي الكابتن جون كراونت Johne Graunt (١٦٢٠ ــ ١٦٧٤) الذي كان قد نشر كتاب (المشاهدات على قوائم لندن للوفيات) :
(Observations on the London Bills of Mortality)
وفي سنة ١٦٦٦ درس فيه سجلات نفوس لندن وحسب منها نسب الوفيات(٥٦). وتبعه Ludwig Huyghene بوضع جدول للحياة ، وهيود Hudde الذي وضع كتاب الدفعات Annuities . كما تبع بتي اخرون مثل هالي الذي وضع التقدير Estimate سنة ١٦٩٣ وكريكوري كنك Gregory King الذي وضع المشاهدات Observations سنة ١٦٩٦ ودافينانت Davenant الذي كتب مقالات عن الواردات العامة في سنة ١٦٩٨(٥٧). بعنوان : Discourses on the Public Revenues .

وفي روسيا فان أول عمل في الحساب السياسي كانت المقالة (جمع مختلف المعارف عن قوانين الولادات والوفيات في الجنس البشري) التي نشرت في (الكلمة الشهرية) سنة ١٧٨١(٥٨).

---

(٥٦) د. زيني ، المصدر السابق ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٥٧) كندال ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

(٥٨) ادموف ، وآخرون ، القاموس الإحصائي، (الإحصاء ، موسكو ، ١٩٦٥) ص ٤٣٩ ــ ٤٤٠ .

ان الدراسات السابقة هي التي تمثل في الحقيقة بداية علم الإحصاء الحديث وان كانت الحسابات الإحصائية قد ظهرت في بعض المدن الإيطالية منذ القرن الثالث عشر ، وحتى قبل انهيار النظام الإقطاعي في تلك البلاد بسبب نشوء الدول التي قامت على أساس الاقتصاد التجاري والصناعي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ومن الحسابات الإحصائية التي بقيت حسابات مدينة استي Asti سنة ١٢٥٠ وميلانو Milan سنة ١٢٨٨ . وهذه الحسابات تتضمن معلومات عن السلع والحوانيت والأشخاص . اما البندقية Venice فقد كان لها قصب السبق باتباع الأسلوب الحديث في الإحصاء . فقد أجرت تعداداً للسكان على أساس شمول جميع الأشخاص الأحياء وليس القادرين على حمل السلاح او دافعي الضرائب . كما ان هذا الاهتمام بالتقدير العددي قد وجد صداه في فلورنسه ومناطق الحكم المطلق في شمال إيطاليا . وفي الحقيقة ان إيطاليا قد شهدت تطورا في المحاسبة والرياضيات في القرن الخامس عشر مما ساعد على تطور الإحصاء الوصفي فيها . ومع ذلك فانه كان لا يزال بعيدا عن الأسلوب الإحصائي الحديث ، لان العد كان يجري لغرض عمل سجل للحالة القائمة ، وليس كأساس للتخمين أو التوقعات الاقتصادية . وبسبب الحروب التي قامت في أوربا ، والحملات الكولونيالية للقارة المجهولة ، لم يتم إنجاز شيء يذكر في مجال الإحصاء الوصفي او الاحتمالات في القرن السادس عشر ولما استقرت الأوضاع في أوربا في أواسط القرن السابع عشر ، بدأ الحساب السياسي (بضمنه التامين على الحياة) بصورة جدية وتطور كما أشرنا من قبل .

وفي أوائل القرن الثامن عشر (١٧٠٢) جرى في أيسلندا أول تعداد حديث كما قام سنكلير Sinclair[٥٩] في أواخر القرن المذكور بتعداد لسكوتلندا ، ونشره في كتابه (حساب إحصائي لسكوتلندا Statistical Account of Scotland) سنة ١٧٩٠ كما ان ان هناك انجازات كثيرة في المجال الديموغرافي والحساب التجاري قام بها اشخاص معروفون مثلا لابلاس Laplace ودانيال برنولي Daniel Bernolli وديموف Demoive وبواسون Poisson وايولر Euler ولكن ذلك لا يعني ان الإحصاء بمعناه القديم (علم الدولة) قد انتهى . فالوصف السياسي قد استمر وتطور وصار يهتم بالبيانات العددية اكثر من السابق بسبب تزايد جمعها . ولكنه ظل مع ذلك جمعا منتظما للحقائق بصورة أساسية . وظل الاتجاهان : علم الدولة والحساب السياسي يسيران جنبا الى جنب في القرن الثامن عشر يجمع بينهما رباط ضئيل الوضوح . وقد استمر هذان الاتجاهان من المعرفة حتى منتصف القرن التاسع عشر دون ان تظهر عليهما أية امارة من الاندماج[٦٠].

ويمكن القول ان علم الإحصاء الحديث يرجع في أصوله الى نوعين من الدراسات ، الأولى : هي الدراسات الوصفية في ألمانيا والتي عرفت باسم (علم شؤون الحكومات) او (علم الدولة) ، ومنها

---

(٥٩) يقول الدكتور جون مرى ، في ص ٦٢ في كتابه : تقرير مؤسسات الإحصاء في العراق ، (مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٤٨) ، : ان أول من جعل كلمة (إحصاء) اصطلاحا مألوفا في البلاد الإنكليزية للمرة الأولى هو السير جون سنكلير ، في كتابه المذكور .

(٦٠) كندال ، المصدر السابق ، ص ٣١٦ ــ ٣١٧ .

اخذ تسميته الحالية ، والثانية الدراسات الكمية في إنكلترا والتي عرفت باسم الحساب السياسي ، ومنها اخذ مضمونه ومحتواه .

ثم تطور علم الإحصاء بعد ذلك ، ويرجع الفضل في تطوره الى كثير من علماء الرياضيات الذين أضافوا بجهودهم ونظرياتهم الشيء الكثير من ذلك مثلاً نظرية الاحتمالات التي وضعها لابلاس في أوائل القرن التاسع عشر واعتبرت مرحلة جديدة في تطور هذا العلم ، وخاصة باستعمالها في مجال العينات ، وفكرة الرجل المتوسط ، وانتشار القيم حول متوسطها التي جاء بها كتيليه[٦١] Quetllet. (١٧٩٦ ـ ١٨٧٤)، وقانون الأعداد الكبير **Law of Large Numbers** لاسرة برنوللي ، ومنحنى الخطأ المتماثل او المنحنى الطبيعي Normal Curve of Errore الذي اكتشفه فردريك كاوس Causs والدراسات الإحصائية الحياتية (أي الدراسات في مجال الوراثة) التي وضع أسسها كارل بيرسون.

ومن الأسماء الأخر التي لمعت في تاريخ الإحصاء : كولتون ، وداني يول ، وموريس كندال ، وسبيرمن وف .س. ايجورث ، وارثر بولي ، ور.أ. فيشر ، وهين ، وارفينج فيشر وغيرهم[٦٢].

---

[٦١] كان كتليه من انشط العاملين لعقد أول مؤتمر إحصائي دولي ، وذلك لغرض توحيد الأساليب والمفاهيم الإحصائية على النطاق الدولي ، وفعلا تكللت جهوده بالنجاح وعقد أول مؤتمر إحصائي دولي في بروكسل في سنة ١٨٥٣ وظلت هذه المؤتمرات تنعقد مرة كل سنتين في أحد العواصم الأوربية واستمرت لمدة ربع قرن وكان آخر مؤتمر قد انعقد في سنة ١٨٧٨ حيث توقفت بعدها لاسباب سياسية .

[٦٢] د. زيني ، المصدر السابق ، ص ١٢ ـ ١٣ .

كانط ومثلث الحداثة دراسة للمشروع
التنويري وصيرورته الفلسفية

الدكتور علي حسين الجابري
كلية الاداب / الجامعة المستنصرية

الملخص

يتألف البحث من مقدمة وتمهيد وقفنا فيه عند التنوير او الحداثة في الفلسفة الحديثة ، الى جانب مبحثين ؛ الاول دار حول الحداثة الكانطية ومشروعها التنويري . والثاني : ما بعد الحداثة الكانطية ، وصولاً الى الحداثة العولمية المعاصرة ، التي مثلت ما يعرف بحضارة الموجة الثالثة ، ممثلة بالعولمة والفلسفة الكيوسية ، وغلبة اللاسببية واللاحتمية وحقبة ما بعد الهندسية الكمية (الكوانتم) وعصر النظرية النسبية . التي اصبحت فيها القاعدة لا تكتمل الاّ بالاستثناء والنظام بالفوضى ، والكلي بالجزئي . على الرغم من ان الكل اكبر من مجموع الأجزاء . فتعددت ــ بسبب ذلك ــ سبيل الوصول الى الحقيقة ، وتنوعت المواقف بتنوع حيثياتها الكيوسية ، وتراجعت النزعة الميكانيكية أمام الديناميكا . والنزعة التاريخية امام اللاتاريخية ، بفضل (الهندسة التدريجية) في العلوم الأنسانية ؛ انه زمن من الحداثة الثالثة ، التي ساد فيها اللاخطي على الخطي حتى اكمل منظوره العلمي والفلسفي بتعايش المتناقضات وعلم الخيال الممكن ، بعد ان رفض كارل بوبر القواعد الكانطية والجدل الهيجلي وقوانين ماركس الحتمية ، حتى دفعت به الى القول : ان (العقلانية لم تَعدْ من الأفكار العصرية) تلك هي خلاصة البحث ونتائجه في زمن العولمة السوبر إمبريالية في (أمريكا) وما بعد الحداثة في (أوربا) . وما قبل الحداثة عندنا .

تمهيد :

(الذات والموضوع) مسألة تحكمها علاقة يتوقف عليها حكم النص على واحد من الاسس : اما ذوبان الذات في الموضوع ، او حرية الذات وتفوقه على الموضوع او تفاعل الذات مع موضوعه ان كان الموضوع (لوحة) او (مجتمع) او (طبيعة) . هكذا نشأت اشكالية البحث في (الانسان ، والعقل والحرية والعلم والارادة والمعرفة والمؤسسة) الى جانب البحث في (الطبيعة) (او عموم الوجود الميتافيزيقي)

وعلى ضوء هذه الرؤية اعاد الفلاسفة قراءة (نوع العلاقة) وبنيتها ، وثمارها وادوار (القوى المساعدة) فيها (اجتماعية ، تربوية ، دينية ، سياسية ، اقتصادية ، قانونية) واثرها في نمو ذلك الانسان داخل شبكة العلاقات الممتدة من الاحساس الاولي ، حتى السمو العقلي (الترنسندنتالي) وهو يصوغ فكرته عن (الطبيعة وما بعدها) بحثا عن قيم الحق والعدالة والخير والجمال . فكيف يكون ذلك الانسان ومتى يكون في وضع (ايجابي) يفصح من خلاله عن مكنونات وعيه ، وذاته افصاحاً يشع إبداعاً على (موضوعاته) أو قل بيئته(الاجتماعية / الحضارية) وبيئته (الطبيعية / المعرفية) ؟ ذلك هو السؤال الخالد في الفلسفة ! والاجابة متطورة متبدلة بتطور الوعي وشروط الحياة ونوع (العلائق) التي ولدت اشكالية (السببية) فيما بعد

! مثلما تولدت عنها منظورات (واقعية / عقلانية) و(فوق واقعية) ميتافيزيقية لا يخلو مضمونها من مقدمات مشروعة وان اختلفنا مع أصحابها بسبب تنوع اجوبتهم وتوتر (عقلانيتهم) بين سؤال الذات (الوعي) ومشكلة (الوجرد والعدم) او (الصواب والخطأ) او(الخير والشر) او (الجميل والقبيح) او قل هو التوتر في علاقة (الذات بالموضوع) او (الحدث بالوجود) او (الانسان بالالة) في لحظة انتقالية من المرئي الى ما خلفه ومن الماورائي الى ما بعده أي الارتقاء الى ما وراء وراء الطبيعة ! حتى بدت هذه التصورات التي انشغل بها (العقل الخالص) مجموعة من (المتناقضات) التي لا تتقاطع من حيث النتائج بل تتكافأ فيها عناصر (القوة والضعف) بنفس المقدار الذي ينطوي عليه كل طرف من اطراف (المعادلة) ــ المشكل ــ من القوة والوهن ! ولم يعد الامر كما وجده ارسطو في (الصعوبة المعرفية) الناشئة من تعادل الادلة (المؤيدة والمعرضة) للموضوع الذي نتأمله ! . فيصعب معه الاجابة عن سؤال أين الصواب واين الخطأ ! ما دام المطلوب من (العقل) ان يجيب ؟ ومن تراكم هذه الأجوبة الفلسفية على مر العصور استقامت فلسفات ونظريات وآراء الجديد فيها دوما لا يقتصر على (الفكر بذاته) او (الشيء بذاته) داخل دائرة (الميتافيزيقا) بل تعداه الى اسئلة العقل عن (الانسان ، والحياة والمجتمع) فالانسان يفتش عن ذاته الانسانية وكينونته الوجودية ، وذخيرته المعرفية المتناسلة خلال حوار لا ينقطع مع الاجيال ! بمعنى ان الفلسفة لا تكتفي بالتفلسف في قضايا الكون واصله ، والوجود وطبيعته ، اذا ما غلب عليها ، السؤال الباحث عن (موقع الانسان في هذا الوجود ، وموقفه منه ، ودوره فيه) في لحظة تحرره من (عقدة الجبرية والعلاقة العضوية مع الاشياء) تلك الجبرية التي قيدت وعيه

ردحا من الزمن ! وشلت يده وعقدت لسانه ! لكنه بعد حين وعي وكتب وقال رأيه ! اما الان فكيف يمارس الانسان انسانيته ، وكيف يدير علاقته مع المحيطين (الانساني) و (الكوني) ؟ نطرح هذا السؤال بعد ان فقد ذلك الانسان ثقته (بالمؤسسات) التي ظن انها ما قامت الا لتكون عونا له لا عليه ، فمأساة الانسان نشأت من اكتشافه (خيبة الامل) في (العقل) ذاته ، والعلم (ذاته) و (الطبيعة) ذاتها و (المجتمع) ذاته ، الخلل في العلاقة معها جميعا ، تحولت الى عبء (سلطة) عليه ، وقيود تريده ان لا يغادر اوامرها ونواهيها واحكامها المطلقة ، لا فرق ان كانت سلطة (اجتماعية ام سياسية ام دينية ام اقتصادية او قبلية وحتى علمية) . فما العمل ؟ وكيف السبيل الى (مصير) وحياة امنة مطمئنة سعيدة تتكافأ فيها قدرات الانسان مع سعادته ! التي تتأطر بالارادة الحرة ، والتفاعل المنفتح مع البيئتين (الاجتماعية) و (الكونية) ؟ أنه كيف الانسان والمؤسسة ونوع الخطاب (العلاقة) فيما بينها !

هذا هو جوهر النزوع الانساني نحو حياة كريمة بعد ان تهمشت ثقته بالاجوبة المألوفة والعلاقات العضوية ! مما يوجب (التنوير) . وعن الامس قل كيف تعامل كانط مع هذه (الاشكالية) وهو يؤجج شرارة التنوير ؟ لكن السؤال الاهم هو : هل بدأ هذا المفكر من فراغ (ظلام) ام ان ثمة تراكم معرفي وصل اليه ، فقدح في دواخله شرارة الوعي الانساني ليعلن في العقدين الاخيرين من القرن الثامن عشر مشروعه التنويري الذي يتوحد فيه (الاجتماعي والعلمي والعقلي) فكان الخطاب موجهاً للجميع !

انطلاقا من هذا التصور سنتفحص هنا مفهوم (الاستنارة) وحدودها المعرفية والزمانية والمكانية) لكي يخرج كانط بالانسان من (شيء ينتظر المصير = الموت) الى موجود يحاول ام يملأ الخير

(الزماني / المكاني) بين (الميلاد والموت) بما يجعل من المصير مدعاة للفخر حين يتحول الانسان من وجود مادي الى كيان معنوي ، تلك هي حلقة الوصل التي ادركها كانط بين (المادي والعقلي) بل بين (الطبيعي وما وراء الطبيعي) او قل بين (المتغير والخالد) وهو امر سبق وادركته (الاستنارة العربية) الاسلامية في واحدة من اجمل القواعد اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لاخرتك كأنك تموت غداً .

ونحن نعلم ان بين (الدنيا والاخرة) فلسفياً ، هو الذي بين (الطبيعي وما وراء الطبيعي) وفي ذلك اختلفت وجهات نظر الفلاسفة وارباب الحكمة والكلام . واذا لم يكن كانط مخترعاً لسؤال التنوير في حقبة التحولات الكبرى في زمانه فما هو شكل (الحداثة) التي سبقته ومهدت له مما سيكون محل بحث اخر عن الفلسفة الاسلامية ، وان هي فقدت بعض توهجها الى حين وصولها إليه ؟ ليعيد هو صياغة السؤال التنويري من جديد بشكل يستجيب لمنطق المعرفة والتغير ، بين السياسة والدين والحكمة والعلم ! وهو القريب من ثورات الفيزياء ، من غاليلو وكبلر وكوبرنيكس حتى نيوتن ولاينتز وهيوم من الدائرة العقلية / المعرفية (العقلية / التجريبية) ! بعدها أي بعد قرنين من الزمن على السؤال التنويري لكانط من حقنا ان نطرح السؤال الاتي ماذا حل بذلك السؤال بعد ان عاشت الانسانية ثلاث ثورات (صناعية واجتماعية وعلمية) ؟ هذا على سبيل (العموم) وكيف انتهت الثورات الاجتماعية العاصفة على سبيل الخصوص (التي حذر كانط من مخاطرها على جدل النهضة والتطور) تلك التي عاصرها وراقب آثارها او تلك التي لحقت بعصره ؟ والقارئ الفاضل يتذكر (الثورة الفرنسية والثورة الامريكية ، والثورة البولشفية) .. وصولاً الى (الثورة الليبرالية) وما انطوت عليه من زحزحات في الوعي والقيم

والمزاج والقناعات ! والمصير مثل ثورة (التقنية / الانفو ميدية / المعلوماتية / الرقمية) واطارها (الكيوسي = الفوضوي) الذي نعيشه اليوم جميعاً .

نعم ، ونعم ، ونعم ! ما هو مصير السؤال التنويري الكانطي ، من وجهة نظر العقلانيين النقديين المعاصرين ؟ في زمن العولمة او ما بعد الحداثة او قل (الحداثة الثالثة) ؟ اسئلة سنقف عندها بعد حين ! واذا كان قانون (الحوار الفلسفي) و (التراكم المعرفي) و (الاستنارة العلمية) هو الذي ينظم (العلاقات) فيما بين الشمال والجنوب ؛ فما هي قنوات ذلك الحوار والياته ونتائجه ؟ اسئلة نحاول فحصها في اطار من (جدل التنوير) المركب الذي يستجيب لسلسلة من المعاملات الفكرية والحضارية المتناسلة جيلاً بعد جيل والعقل الانساني يجاهد للامساك بزمام الامور كي لا يغوص في وحل (الفوضى والضياع والتيه والاغتراب الاخلاقي العام) تحت دواعي (النزعة الكلبية) dogmatism في عالم اليوم بعد ان اقيمت سرادقات (العزاء) لنعي (الضمير الاخلاقي) لفرط ما تعرض له الانسان من ضغوط وتحديات وخيبات امل وتشيئ ؟ انتهت به الى (هوة المصير النفسية) ام هل كتب على (البشرية) ان تدخل تجربة التيه لالف عام ثمناً (لتيه بني اسرائيل النفسي) ! ؟

ان هل نصدق مقولة من قال عن الألفية الثالثة (بداية العصر الشيطاني) كرد على (حقبة الرحمن) التي بدأت مع السيد المسيح (عليه السلام) منذ الفي عام ! متناسياً السؤال الإبراهيمي الخالد عن السر الكامن وراء المحسوس والمرئي والمتغير والفاني والجزئي والمنفعل والساكن والوقتي ! والذي لولاه لما كان هناك من معنى للحياة الانسانية المتدفقة حيوية ولا للتصورات العقلانية الكبرى عن رسالة وجود

الانسان على هذه الارض ؟ السؤال نفسه يتكرر بعد اربعين قرناً وهو نفسه الذي كرره الانبياء والمصلحون والحكماء والعلماء طوال هذه الحقب ، ووصل الى البيروني والغزالي وابن الطيب وابن رشد .. ثم الى كانط وهيجل .. الى يوم الناس هذا والى مستقبل الانسان الاتي مهما امتد ! فأين يكمن الخلل ؟ هل في الانسان ام الظروف ام المجتمع ام المؤسسات ام الدولة او القانون ؟ او قل بين الانسان وضميره وعقله من جانب وبين غاياته الاجتماعية / الانسانية والكونية والمؤسسات من جانب آخر ؟ اسئلة تتابع اسئلة والاشكالية واحدة نشأت بسبب اختزال المشكلة من اسبابها الاجتماعية والسياسية والحضارية والنفسية الى الاسباب (الجبرية) التي اريد لها ان تتملص من مسؤولية (الظلم) الذي يتعرض له الانسان ! مع ان الله سبحانه وتعالى يقول بسم الله الرحمن الرحيم .

" ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " (الرعد ١١ / ١٣) مما يعني ان جوهر المشكلات نشأ من جراء اختلال (العلاقة) بين اطراف المعادلة الحيوية كافة او قل بين عناصر الوجود الانساني والكوني وعوامله حتى بدت الاشكالية (ذرة في محيط لتعبر عن مكنون ذلك المحيط) بمناسبة مثل مئوية كانط الثانية ؟ ويبقى السؤال الذي يؤرق العقلاء ! لا عن مظاهر التنوير قبل كانط ، او معه ؟ فتلك مسألة سنقف عندها بأجتهاد متواضع في مناسبة اخرى ، لكن الاهم هو : ما هو مصير السؤال الكانطي في عالم اليوم ؟ ان كان (حداثويا غربيا ـ امريكيا) ام جنوبيا اسلاميا عربيا ؟ عندها يليق احتفائنا بالسؤال التنويري الكانطي ، بعد جميع هذه السنين وهو ينطوي على مغزي فلسفي اجتماعي ، انساني ، مدني ، مستقبلي ، تثويري ! حرصنا على إيراده هنا في إطار (مثلث الحداثة) فعسانا ان نوفق .

اولاً : التنوير او الحداثة في الفلسفة الحديثة

عد التنوير بمعنى التوجه المادي / الطبيعي / التجريبي الواقعي الحسي الرافض لكل ما هو ديني ، او ميتافيزيقي[١] فعصر الانوار في مفهوم الماديين بعامة والماركسيين على وجه الخصوص ؛ هو اساس الفكر النقدي اللاديني الذي يرفض مقولة السبق المثالي او وجود (المقدس) بل يتعامل معه على اساس انه تاريخي انساني[٢] تحت دعاوى (نقد الكنيسة) المتحالفة مع (الاقطاع) او (البرجوازية) بهدف (التخلي عن جميع الاوهام) التي تحدث عنها القديس توما الاكويني بعد ارسطو [٣]. مع ان لا جامع يجمع الفيلسوفين زمانا ومكانا او منهجا . جميع ذلك جرى تحت دوافع (النزوع العلمي) في المعرفة وامتلاك اليقين . ان الدوغمائية (الماركسية) كما قدسها بوليتزر انتهت به الى الاعلان على رؤوس الاشهاد " ان فلسفة الانوار بدحضها اللاهوت والميتافيزيقا قضت على هالة التكريس الالهي " انها حملة علمية ضد (التعصب والظلم والبربرية)[٤] لذلك يقول (في مقدورنا ان نتتبع فلسفة الانوار .. بدءا من عصر النهضة مروراً بمونتاني ، ورابيليه ووصولا الى ديكارت وباسكال)[٥] تراث ممهد لها متغافلا عن كانط لأنه (غير فرنسي) والالمان على خصومة معهم في الحرب

---

[١] جورج بولتيزر ، فلسفة الانوار ترجمة / جورج طرابيشي ، دار الطبيعة بيروت ١٩٦٤ ص ٩ _ ٧ .

[٢] ايضا ص ١٠ _ ١١ .

[٣] ايضا ص ١٣ _ ١٥ .

[٤] ايضا ص ٢٣ .

[٥] ايضا ص ٢٤ .

الثانية . فالانوار اذا فرنسية المنبع مقترنة بثورة عام ١٧٨٩ الشهيرة[٦] وينظر لها على انها حرب مستمرة على الكهنوت [٧] بهدف قطع كل صلة للغرب بالماضي الديني (المظلم)[٨] .

ومرجعية بوليتزر في ذلك ليس التراث الفلسفي العلمي الانساني انما قول انجلز حين قصد (الانوار في العلم الذي يتمرد على الكنيسة) [٩] وبالتالي فان الماركسية هي وريثة تلك المادية " وهي بذلك حاملة لراية التنوير والثورة على كل ما هو رجعي كنسي ، اقطاعي ، برجوازي "[١٠] مثالي .

هكذا " بفضل الاشتراكية العلمية حملت الماركسية الى الانسان انوار العلم لا بصدد مصائر الطبيعة فحسب ، بل ايضا بصدد مصائره بالذات كذلك تلقت مشكلة ملكوت العقل في المجتمع حلا عقلانيا ، " بدورها اذا ما تحقق " الغاء استغلال الانسان لاخيه الانسان" :[١١] انها ثورة التحرير من الاستغلال والاستبداد .

ولا نلوم بولتيزر الذي كان يتهيأ لمقاومة النازية الى حين اعدامه رمياً بالرصاص عام ١٩٤٢ ، وهو يكتب بمناسبة مرور (١٥٠) عاما على قيام الثورة الفرنسية ، بروح الاعتزاز الوطني مع ذلك يشير وهو يعيش اجواء الحرب العالمية الثانية وممهداتها إشارة خجولة التنويرية المانيا بعدها قبسا من وهج الأنوار الفرنسية قائلا عن الحركة

---

[٦] بوليترز : فلسفة الانوار ص ٣٢ ــ ٣٣ .

[٧] ايضا ص ٢٦ ــ ٣١ .

[٨] ايضا ص ٣٧ .

[٩] ايضا ص ٣٤ .

[١٠] ايضا : ص ٤٢ ــ ٤٣ .

[١١] ايضا ص ٤٦ .

التنويرية " تلك الحركة التنويرية التي تعيد الى الأذهان اكبر أسماء الفلسفة الكلاسيكية والادب في المانيا ابتداء من كانط وغوتيه وصولا الى هيجل الذي كان يرغب على الدوام في المزيد من الانوار[١٢] ويبدو ان وضع كانط في دائرة (المثالية الالمانية الكلاسيكية) كان وراء جعله تابعا للتنوير الفرنسي ، فحين تتحدث الموسوعة الفلسفية الماركسية عن جدل التناقض المادي تقول " مقولة في الجدل تعبر عن المصدر الباطني للحركة وجذر الحيوية ومبدأ التطور جميعا وادراك التناقض في اشياء وظواهر العالم الموضوعي هو ما يميز الجدل عن الميتافيزيقيا ، الجدل بمعناه الدقيق : هو دراسة التناقض في جوهر الاشياء ذاته " (وهي واحدة من قواعد عمل كانط في كتابه نقد العقل الخالص) ثم تقول الموسوعة :

" وان التناقضات الجدلية المنعكسة في الفكر والمفاهيم والنظريات يجب تمييزها عما يسمى بالتناقضات المنطقية التي هي تجليات للتشويش وعدم الاتساق في التفكر "[١٣] من غير ان تشير هذه الموسوعة الى مفاهيم مثل الحداثة والتنوير وعصر التنوير او الاستنارة لان الامر يتعلق بمؤسس المثالية النقدية المتعالية وصاحب النزعة اللا أولية ".[١٤]

وحين تتحدث هذه الموسوعة عن كانط في نقد ملكة الحكم وعلم الجمال تقول انه " قدم مبدأ القيمة الذاتية لكل فرد التي لا ينبغي ان يضحى بها لخير المجتمع ككل " وفي علم الجمال اعلن " ان الشعر هو

---

(١٢) ايضا ص ٥٢ .

(١٣) جماعة من العلماء السوفيت : الموسوعة الفلسفية باشراف م . روزنتال ، و ب يودين : ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، ط ٦ بيروت ١٩٨٧ ص ١٤٣ .

(١٤) ايضا ص ٣٨٧ ــ ٣٨٩ .

الشكل الأعلى للفن قادر على ان يصور المثل الاعلى " كما تحدث عن دور التطاحنات (الصراعات والحروب الدامية) في السيرورة التاريخية للحياة الاجتماعية ، والحاجة الى سلام دائم وعد التجارة والاتصالات الدولية ذات منافع متبادلة "[١٥] للدول مما كان له اثر بالغ في التطوير اللاحق .

مع ذلك تحدث الماركسيون عن الكانطية الجديدة وهي تسعى الى تطوير العناصر المادية والجدلية في فلسفة كانط ، لكنها تحمل في طياتها خصومة مع الماركسية من جانب ولاهتمامها بفلسفة القيم من جانب آخر ".[١٦]

وحين نفحص (الموسوعة المختصرة) نراها على الضد من ذلك تتعامل مع التنوير الكانطي بعده الرحم الذي نمت فيه بذرة الحداثة فالخبرة الأخلاقية والجمالية توجب تأكيد : مبدأ الشخص ان يكون أخلاقيا اذا تماشى مع القانون الأخلاقي ، والجمالي والقاعدة الكانطية تقول " اعمل بحيث تعامل الانسانية ممثلة بشخصك ، وفي الأشخاص الآخرين جميعا لا باعتبارها وسيلة فقط ، بل (بعدها) غاية " [١٧].

و " الانسان بما انه كائن ظاهري (فهو) خاضع للضرورة السببية ولكن بما انه كائن باطني (الشئ بذاته) فانه حر لا يعرف ماذا تكون حريته ، بيد انه يعلم مع ذلك انه حر ، والمنطقة الوسط الناشئة بين الظاهر والباطن ، او بين الضرورة والحرية كما يراها كانط تتجلى

---

[١٥] ايضا ص ٣٨٨ .

[١٦] ايضا ص ٣٨٩ .

[١٧] جماعة من الانجليز : الموسوعة الفلسفية المختصرة : ترجمة جلال العشري وجماعة بأشراف زكي نجيب محمود ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٥٣ .

في " اتساق الحرية الأخلاقية مع نظام الطبيعة)[18] واذا كانت (حرية الارادة) والضرورة تقع ضمن متناقضات العقل المحض كما يراها كانط في نقد العقل النظري ، فانه في نقد العقل العملي ونقد ملكة الحكم انما يقف مليا عند القانون الأخلاقي والشخص (الانسان) والواجب والقصد [19] بالصورة التي ستشكل اسس مقاله في التنوير (آلاتي) .

واذا كانت صيرورة التنوير الكانطي قد ربطت بين جميع الفلاسفة النقديين اللاحقين ، فأن نيتشه "[20] يمثل العلامة الاخيرة لنداء الحداثة في القرن التاسع عشر ولكن بصورته العدمية وفي القرن العشرين وجد (ماكنتير) ان ماركوز (مدرسة فرانكفورت) خلال الفترة (١٩٣٣ ــ ١٩٣٨) قد كرس كتاباته " للدفاع عما يعتبره النواة العقلانية للفلسفة الأوربية القديمة في وجه اللاعقلانية المعاصرة "[21] بعد ان وضع على رأس قائمة الفلاسفة الكبار (ارسطو وكانط وهيجل) [22] ثم يستدعي النص آلاتي لكانط الذي يقول فيه " أننا انما نتمكن من فهم العالم ومعرفة الحقائق المتعلقة به لأن العقل يستعين في فهمه بمجموعة من المقولات التي تنظم وتضبط بها ما يستوعبه من خلال الخبرة . فالخبرة لا تأتي مطلقاً بشكلها الخام ، بل من خلال ما تتركه تلك المقولات فيها من اثار ، اننا نختبر ونمارس الأشياء بوصفها

---

[18] جماعة الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٢٥٤ .

[19] ايضا ص ٢٥٢ ــ ٢٥٤ .

[20] سعاد حرب : في الفرد والحداثة عند نيتشه : مجلة اوراق فلسفية ــ العدد الأول، القاهرة ٢٠٠٠ ص ٢٠ .

[21] السدير ماكنتير : ماركوز ، ترجمة عدنان الكيالي ، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ٢ بيروت ١٩٦٢ ص ٩ .

[22] ايضا ص ١٠ .

ذات صفات وعلاقات مقررة ومحددة لان البنية المفهومية التي يفرضها الفكر (العقل) على العالم أن يعطي اطارا محدداً لما يكون .

أضف الى ذلك العالم ان مقولات الفهم تثبت وتحدد تحديداً نهائياً ويكون العقل نفسه ذا محتوى وتركيب محدد غير قابل للتغير " [٢٣] ووافقه هيجل في مسألة (البصيرة المركزية) لكنه خالفه فيما بعد من زاويتين الأولى : كون كانط طلب التمييز بين الواقع كما نعيه (ندركه = نستوعبه = نتصوره) والواقع كما هو بالفعل (حقيقة موضوعية / خارجية) والحقيقة أننا لا نعرف من الواقع الا الذي نعرفه .

اما الثانية فان هيجل يهاجم المقولات ومتناقضاتها لأنها مجردة من عنصر الزمن وانها غير قابلة للتغيير وان تاريخ الفكر هو تاريخ بنى ومفاهيم متغيرة[٢٤] .

فما هي حقيقة النزعة التنويرية الكانطية ؟ ولماذا اتجه الى الانسان والدولة ؟ الجواب على ذلك السؤال سنجده في مقال التنوير الآتي :

ثانيا : الحداثة الكانطية ومشروعها التنويري

على الرغم من النعوت التي أطلقت على الفلسفة الكانطية (الانتقادية) احتلت أسئلة الإنسان والسعادة والجمال والحكم والحق والحرية ، والعقل ، موقع الصدارة عنده لكي يخرج من (جب التنظير الميتافيزيقي ، والعقل المحض والمتناقضات) الى شمس الهموم الانسانية الحيوية في حقبة لونت عصرها بالوان الثورة الامريكية في العالم الجديد والثورة الفرنسية في العالم القديم وما رافقها من صيرورات

---

[٢٣] ماكنتير : ماركوز ص ٣٥ .

[٢٤] ايضا ص ٣٥ ــ ٣٦ .

سياسية ومعرفية وحقوقية متنوعة ! ويخلص المتأمل لمقال كانط (عن ماهية عصر التنوير) الى ما يأتي :

١. الخطاب يدور حول (الانسان : الوعي والعقل والحرية) لكي يدرك ذاته وحقيقته ويعبر عن ارادته وفرادته في اطار من :

أ) فهم دوره الاجتماعي المدني وبأنه قادر على تخطي عوامل قاصريته الحيوية .

ب) التذكير بدور (العقل / البلوغ) للخلاص من قيود التبعية والاستكانة وامتلاك مقدمات (العقلانية الاجتماعية) وصولا الى (عقلنة مؤسسات المجتمع) بمعنى انه مطالب في ان يقنع الدولة ومؤسساتها ببلوغه (سن الرشد) .

ت) ادراك شرط (الحرية) الذي من غيره يتحجر الوعي داخل الافراد ويبقى الانسان سلبيا عبداً قاصراً وتابعاً ومنفعلا ومقيداً .

ث) ليقول للانسان (الجماعة) عليك ان تبادر للخلاص من قيودك (النفسية) والسياسية والانطلاق باتجاه الافق الانساني الارحب متسلحا بالعقل الحر ، وبالعلم اليقيني والتكنولوجيا الجديدة .

٢. اما أسباب هذه القاصرية فيوزعها كانط على مستويين :

ـ **الاول** : ذاتي تطبع عليه الانسان بسبب الظروف المقيدة له وبحكم التربية الاسرية والكنيسة (الدينية) والمؤسسات الرسمية .

ـ **الثاني** : موضوعي فرضته جماعة من (الاذكياء / الاقوياء) بحكم هيمنتهم على مقومات (السلطة والادارة) على اختلاف انواعها دينية وسياسية واقتصادية لفرض سطوتهم على الاخرين . ومثل هذه السطوة (غير العادلة) من جانب اصحابها كما يراها كانط :

أ) لا تدلل على عقلانية ممارسيها ، ولا على علمية (رجل الدين) الذي يمارس طقوسه في الكنيسة ، وهو على خلاف مع مضمون

رسالته الرسمية .

ب) لا تعبر عن احترام الناس للحاكم الذي يمارسها ويسوس الناس بها كما يساس القطيع في البرية .

ت) لا يعني ان القائد العسكري (الصارم) قادر على توظيف طاقات (المطيعين والقاصرين) لتحقيق الفوز في المعركة ، بسبب الغائة لإرادت المواطنين (المقاتلين) .

فمثل هذه المناخات (المقيدة) ذاتياً وموضوعياً تحول دون تحرر الطاقات الانسانية مما يحول دون التقدم "[٢٥] .

٣. ان الفرد = والجماعة ، لا قدرة لهم على دخول (عصر الانوار) الأعلى وفق اليات وادوات وشروط ، غابت من العصور المظلمة مثل :

أ) محبة العلم ، والتعلق بالعلمية والحقيقة وحق الاختيار .

ب) الشعور بما يشعر به (المواطن الراشد) القادر على التوفيق بين (حقوقه وواجباته) بامتياز واعتزازه بحريته المسؤولة وقدرته على اعلان موقفه (المختلف) عن غيره بفضل نسبية الحقيقة الحيوية ، والاعتراف للجميع بحق الاختلاف .

ت) الشعور بالانتماء الى (مجتمع مدني) تتيح مؤسساته قدرا من الحرية لمواطنيها لكي ينتزعوا من دواخلهم الخوف والسلبية والتردد ، والخطاب هنا يخص حتى اولئك المسؤولين عن الاديرة والكنائس المختلفة ممن عليهم ان يتحلوا بقدر من العقلانية والعلمية والاستقلالية والشجاعة ، بين ما يفرض عليه رسميا وبين ما يراه بعقله وضميره من حقائق أُخر . نعم عليهم ان يعلنوا رأيهم

---

[٢٥] عما نوئيل كانط : ما هو عصر التنوير ترجمة يوسف الصديق ، مجلة الكرمل (ملف كانط ـ فوكو) ص ٦٠ ـ ٦١ .

بصراحة وشجاعة وشفافية ووضوح . خارج منطق (القسر) والاملاءات والاوامر والنواهِ التي عفى عليها الزمن انها دعوة للاجتهاد الديني / العقلاني / الحر ، لكنه اجتهاد في مورد (النص) . ان كانط يرى ان (المجال الديني)(٢٦) هو الاكثر اهمية في عملية الاستنارة المنشودة للخروج من قيود العقائد التي عفى عليها الزمن . والتعلق بروح التنوير والتجديد والاصلاح ، انها دعوة الى نوع من (العقلنة) في المضمون الروحي حفاظاً على البعد الاخلاقي الذي ينشده كانط في عموم فلسفته ولعموم الناس والعصر .

٤ ــ اما أخطر معيقات التنوير عند كانط فهي دولة مستبدة ومؤسسات قمعية وحاكم جاهل . اما حين يكون (رأس الدولة) مستنيراً محباً للعلم ، عاقلا فاضلا فانه يوفر على مواطنيه الجهد والوقت لكي ينتقل بهم الى عصر الاستنارة الحقة وحرية التعبير عن ارادتهم وحث المؤسسات على ترسيخ تقاليد المجتمع المدني المتضامن والممارسة الديمقراطية الصحيحة ! وحث الناس على مواجهة الاخطاء وكشفها بشجاعة ومسؤولية وشفافية واصلاح الخلل . فمثل هذا (الملك) يسهم في انضاج شروط الدخول الى عصر العلم والمعرفة والتنوير ، ويرتقي بمجتمعه مراتب التقدم والسمو.

٥ ــ صحيح ، ان الافراد او الجماعات ، الساكنة والقاعده أي (القاصرة) ممن اعتاد على الرتابة (الجمود) اذا ما امتلكوا ارادة النهضة والتقدم سينكفئون في خطواتهم الاولى باتجاه

---

(٢٦) عما نوئيل كانط : ماهي الانوار (مع نص فوكو) تقديم جميل قاسم ، ترجمة جميل قاسم ويوسف الصديق وشربل داغر ، دار الانوار بيروت ب ت ص ٢٩ ــ ٤٦ .

الاهداف الانسانية المشروعة : لكنهم سرعان ما يتقون بانفسهم لبلوغ المزيد من الاهداف (التربوية والاقتصادية) التقدمية اذا ما اصروا على حمل مشاعل العلوم والحكمة . وانطلقوا من ارادة قوية في الانتصار على اسباب ضعفهم وامتلاك عناصر قوتهم وحيويتهم في الحياة الحرة السعيدة والكريمة .

٦ ــ وان كان كانط داعية تغيير وتطور لكنه يحذر من مخاطر النمط (الثوري) منه الذي قد ينتهي بالمجتمع والافراد الى فوضى عارمة يصعب السيطرة عليها ، تهدد مسيرة التقدم الاجتماعي ، مما يوجب اعتماد اسلوب التغييرات التدريجية المعقولة لصالح التقدم الموضوعي لتحقيق نهضة المجتمع ونضوج المناخ الانساني للاجيال المتعاقبة وللتغير . ومن اجل احكام منطق التقدم لابد من ضبط شروط التغيير هذه على الصعيدين (العام) و (الخاص) يقول كانط :

أ) " فالاستخدام العام لعقلنا (هو) الذي يقوم به المرء حين يكون عالماً في اتجاه الجمهور الذي يقرأ (المتعلم) اما الاستعمال الخاص لعقلنا ، فهو الذي يعطينا الحق في ممارسته والعمل به من موقع مدني حقوقي "[٢٧] .

ب) والحرية التي ينشدها كانط لكي ندخل بها عصر التنوير يجب ان تكون بمعناها الاكثر براءة " أي التي تقبل على استعمال علني للعقل في كل الميادين "[٢٨] على قاعدة من حسن الظن بالاخرين.

---

[٢٧] كانط : ما هو عصر التنوير ص ٦١ ثمة ضعف واضطراب في ترجمة النص من الفرنسية جعل عباراته مفككة ، مع ان المترجم من المعروفين في هذا المجال .

[٢٨] ايضا ص ٦١ .

ت) اما التنوير فـــلا يعنـــي عنـــده (الحريـــة المطلقـــة) او الســـائبة (الفوضوية) بل ذلك النمط الذي يؤول الـــى تـــوازن (الحـــق الخاص) مع (الواجب) العام على وفق القاعدة التي وضعها ملك بروسيا فردريك الثاني والقائلة : " فكروا قدر ما تشاؤون ، وفـــي ما تشاؤون ، ولكن عليكم ان تطيعوا " الاوامر[٢٩] . هذه القـــاعدة رقم واحد . وفي المشروع التنويري الكانطي تقـــول : القاعـــدة الثانية : " ما حرم على الشعب ، من باب اولي ان يبقى محرمـــا على الحاكم " . اما الثالثة فتقول على الحاكم المستنير" ان يمنـــع بعض (اقلية الشعب) من حرمان البعض الاخر (الاكثرية مـــن الشعب) بالقوة " عن ممارسة حقهم وقدراتهم وعقولهم وارادتـــهم ورغبتهم في التقدم .[٣٠]

اما القانون الذي يشترطه كانط على الجميع لتحقيق الموازنة بيـــن (العام) و (الخاص) ونعني به " احترام عقله في اللحظة التـــي يتحدث عن الواجبات والمحرمات "[٣١] وكـــي لا يظـــل الانســـان قاصراً جاهلا ، والكلام موجه الى رجال الدين العلماء حصـــراً . فيقول : " اما الادعاء القائل ان الاوصياء على الشـــعوب (فـــي الامور الدينية) لابد ان يظلوا قصراً هم انفسهم ، يعـــد ســـخافة اسهمت في تأييد السخافات الأُخر[٣٢] وترسيخ روح الجهالة والبقاء في الاقبية المظلمة للعصور الوسطى .

---

[٢٩] ايضا ص ٦٥ وهامش ٣ .

[٣٠] كانط : ما هو عصر التنوير : ص ٦٢ .

[٣١] ايضا : ص ٦٣ .

[٣٢] ايضا : ص ٦٢ .

٧ ــ ولاستيعاب الدلالة التنويرية للتاريخ وسيرورته بين الاجيال وجد كانط (وهو يراقب ايقاع القرن الثامن عشر وفي لحظة استشواقه للقرن التاسع عشر) ان منطق التواتر التاريخي يوجب تغييراً نوعياً على صعيدي (الزمان / المكان) والانسان " وذلك لانه من غير الممكن لقرن ما ان يولد اتفاقاً يقيد القرن الذي يليه ، بوضع يجعله غير قادر على توسيع معارفة .. ويحرمه من التخلص من اخطائه والتقدم بصفة عامة على (طريق) التنوير انها لجريمة في حق الانسانية التي يحملها قدرها الاصيل ، نحو هذا التقدم بالذات "[٣٣] من غير خوف او تردد او جريرة .

٨ ــ ولكي يمنح كانط هذا الاستنطاق للتاريخ والمستقبل روحه العملية والتربوية قال : انه يحق للخلف ان يرفض تماما مثل هذه القوانين (اذا ما تجاوزها منطق الزمن) وان يحتج (على ذلك) بجهل من قام بسنها (شرعها) وطيش دوافعه .

ووجد ان حجر الزاوية في كل ما يمكن تقريره لصالح الشعب واجياله المتعاقبة وبعيداً عن (منطق الوصاية) انما يلخصه المبدأ الاخلاقي الاتي " هل يقبل هذا الشعب ، ان يهب نفسه قانونا (للتخلف) كهذا القانون "[٣٤] ؟ ام انه يحرص على وجود قانون (للتقدم والرقي) ؟ قطعا سيختار الاحتمال الثاني ان كان شعبا ناضجا عاقلا .

٩ ــ العقل يقول : ان لكل حقبة قانونا يتطور بحسب تطور المجتمع ويتغير بتغير ايقاع حياة الناس سعياً وراء القانون الصالح الافضل والنظام (الاحسن) " شرط ان يترك لكل مواطن ولا سيما رجل

---

[٣٣] ايضا ص ٦٣ .

[٣٤] ايضا ص ٦٣ .

الدين العالم الحرية في صياغة الملاحظات حول العيوب التي تحتوي عليها المؤسسة الحالية بشكل صريح وعلني كتابة وتوعية ومقترحات " حتى يأتي يوم يتقدم فيه البحث في هذه الاشياء اشواطاً بعيدة تجعله يتأكد بما فيه الكفاية " فيرفع مشروع الاصلاح الى رئيس الدولة (الملك) مدعما بموافقة اغلبية اصوات المواطنين ؟ المتفقين على :ـ

أ) حماية المجموعات المتضامنة (مهنياً وفكريا وعقيديا وسياسيا) كل بحسب وجهة نظره من اية مخاطر او سياسات مستبدة .

ب) الرغبة في تغيير (اداء) المؤسسة الدينية دون الزام المؤمنين بثباتها بالتنازل عن حقهم او اقناعهم معنى (حق الاختلاف العقيدي) .

ت) الاتفاق على دستور دائم (موثوق ومصان) شرط ان يأتي في (مدة معقولة) لكي يستمر لصالح الانسان ، وكل تأخير هو نوع من الاقصاء لحقوق الانسان والاصرار على حرمانها من حق التقدم ويلحق ضررا بالاجيال القادمة " ويبقى ما حرم على الشعب تقريره محرما من باب اولى على الحاكم ... فليسهر الحاكم (الذي يستمد سلطته من الشعب) على ابقاء الاصلاح المنجز المفترض هكذا :

١ . متفقا مع النظام المدني ، ومستجيبا لمصالح المجتمع .

٢ . يتيح الحرية لرعاياه في البحث عما يجب عليهم القيام به ليحصلوا على خلاصهم الروحي (في الاخرة) على اساس ان الدين علاقة ذاتية مطلقة .

٣ . ان يحترم وجهات نظر الكاتبين المعبرة عن حريتهم في الحياة الكريمة لكي يتجنب النقد واللوم . ويرمي عنه تهمة

الاستبداد او التعالي على ارباب القلم والكلمة[٣٥] ، اذا ما سد اذنيه دون نداءات الاصلاح والتنوير .[٣٦]

١٠ ــ ولكي يستكمل كانط (جدل القرون) التقدمي يطرح السؤال التنويري " هل نحن نعيش نهاية القرن (يقصد الثامن عشر بعده) قرناً مستنيراً ؟ " ويجيب عليه قائلا لا " ! لأننا في الواقع (نعيش) قرنا يسير نحو التنوير " بسبب غياب شروط التنوير مما حال بين الناس وبين " ممارسة تفكيرهم الخاص في الامور الدينية باحكام وقدرة ودون نجدة الاخرين "[٣٧] يقول كانط (ان ممارسة التفكير الحق) هو مكسب لو توفر الان (نهاية القرن الثامن عشر) لسرنا " في الطريق نحو عصر شامل للتنوير يخرج بالناس من حالة القصور التي يبقون هم المسؤولون عنها " الى حالة الرشاد كما هو الخروج من الظلمات الى النور . على هذا الاساس " يمكن القول ان هذا القرن هو قرن (الدخول) للتنوير وقرن الملك (فردريك الثاني) حصراً وما دام الامر هكذا :

أ) فالامير الذي لا يتردد في الاعلان عن ان من واجبه عدم اكراه الناس على شئ من الامور الدينية قادر على اعطاء كامل الحرية للناس في ذلك .

ب) والذي يجعل (التسامح) شعاره اليومي يبقى مستنيراً ويستحق من معاصريه كل اجلال ، كما يحظى باعتراف الاجيال الآتية بعرفانه .

ت) ومثل هذا (الملك) هو اول من يسعى الى اخراج الجنسي البشري من حالة القصور هذه (وليس السيد المسيح (عليه السلام) كما سيقول هيجل

---

(٣٥) كانط : ما هو عصر التنوير : ترجمة يوسف الصديق ، مجلة الكرمل ص ٦٣.

(٣٦) ايضا ص ٦٣ .

(٣٧) ايضا ص ٦٤ .

بذلك بعد حين) حين رفع بصلبه عن كاهل البشرية وطأة الخطيئة الاولى فاصبحوا احراراً .

ث) وترك لكل (شخص) الحرية في استعمال (عقله الخاص) في امور العقيدة "[٣٨] على اساس من (القناعة الشخصية) .

ج) وسمح لرجال الدين العلماء ان يصرحوا بوجهة نظرهم الخاصة (الجديدة) في (الامر الديني العام) من غير ان يحملهم مسؤولية ذلك وبما يعبر عن وعيهم الحر وارادتهم المستقلة .

ان هذا المناخ (التنويري) كما يراه كانط قد بدأ بالانتشار (خارج المانيا من غير خوف على النظام السياسي) ما دامت الحكومة قوية " فلا خشية على الحكومة والمؤسسات من الحرية[٣٩]. هذه هي القاعدة المدنية (العقلانية) التي يضعها كانط اساسا لعصر التنوير في وطنه .

١١ـ لعل صورة المشروع التنويري الكانطي تتلخص في السطور الاتية :

أ) العقلانية والحرية والشعور بالمسؤولية ذلك هو النوع من التنوير الذي يحرر الناس من (القاصرية) السائدة في المقاطعات البروسية .

ب) الدين وميدان التدين ـ الكنيسة ورجال الكنيسة ، العلماء هذا هو محور الاصلاح والا " فلا مصلحة لحكامنا في ما يخص الفنون والعلوم " .

---

(٣٨) ايضا ص ٦٤ .

(٣٩) ايضا ص ٦٤ .

ت) محور حركة ذلك الاصلاح والتنوير (رئيس الدولة) متى ما ذهب منهج تفكيره الى تشجيع التنوير .

ث) ان يعترف (الرئيس) دستوريا بأن لا خوف عليه اذا ما سمح لرعاياه باستعمالهم العلني لعقولهم لكي يقدموا للعالم افضل " ما انتجوه من افكار تشير الى بناء افضل لهذا التشريع حتى وان جاء ذلك عرضا نقديا مباشرا وصريحاً ".[٤٠]

١٢ـ مثل هذا الملك ، الحاكم ، الرئيس المستنير :

أ) لا يخش عليه من البقاء في الظل ، بفضل قوة جيشه ومنعة وطنه .

ب) شجاع ، يعلن ما لا تجرأ على اعلانه اية دولة اخرى قائلا " فكروا ما تشاءون وفي ما تشاءون وعليكم ان تطيعوا "[٤١] مما يعني التوافق الواعي بين (الحقوق والواجبات) .

ت) ولكن قد يبدو من المفارقة " الحصول على درجة اعلى من الحرية المدنية " مع تقييد " حرية الفكر عند الشعب "[٤٢] كما تحرر قشرة (الجمود) الطبيعية في (الشجرة) من قشرتها الصلبة لتتيح الفرصة لطبقة جديدة من اللحاء انها " بذرة الميل والتأهب (الاستعداد) للفكر الحر " يعتاد عليه الشعب ويصبح له فطرة واعتياد وجبله أي " يزيد الشعب شيئا فشيئا من الاستعداد للسلوك بحرية " ما يؤثر بدوره على اسس الحكم الذي سيرى فيه الحاكم من صالحه " ان يعامل الانسان كأنسان وليس آلة " .[٤٣]

---

(٤٠) ايضا ص ٦٤ .

(٤١) ايضا ص ٦٤ .

(٤٢) ايضا ص ٦٥ .

(٤٣) ايضا ص ٦٥ .

هكذا يبشر كانط بعصر حداثوي ، يعرف فيه الحاكم والمحكوم ما له وما عليه ، ويخرج من سياسة القطيع الى نظام اجتماعي يحترم العقل والحرية وارادة الانسان ويفصل المقدس عن الدنيوي ويتعامل مع الحياة على وفق جدل الذات والموضوع والحرية والضرورة .

فهل ان مثل هذه الدعوات انطلقت من لا شئ وكأن العقل الانساني قبل كانط "[٤٤] قد اصيب بالعقم الى حين وصول النوبة اليه ؟ ام ان ثمة مقدمات تاريخية وفلسفية سبقته ؟ وقبل ان نتفحص نتائج السؤال التنويري الكانطي في القرنين الاخيرين الا يستوجب البحث العلمي ان نتأمل (نستذكر) حقبة (ما قبل الحداثة) الاوربية ؟ وهو ما يسمى (بالحداثة العربية الاسلامية) ؟ المؤجلة هنا الى حين توظيف البحث لاكمال المشهد الفلسفي الانساني (الغائب) عن صورة الفكر الاوربي الحديث وسيرورته لا لننوه هنا بالحوار الفلسفي بين حضارة الغرب وحضارة العرب اعتماداً على الجديد في دائرة البحث الفلسفي والتراثي ولكن لننتقل للاجابة عن مصير السؤال التنويري الكانطي في عصر العولمة والمعلوماتية والحياة الرقمية .

ثالثاً : ما بعد الحداثة الكانطية وصولاً الى الحداثة العولمية المعاصرة:

وجدنا في المبحث الاول كيف ان الحداثة modernaty على صعيد الفلسفة قد بدأت نهاية القرن الثامن عشر ، فان اوربا تعاملت

---

[٤٤] عما نوئيل كانط : ما هو عصر الانوار / ترجمة يوسف الصديق مجلة الكرمل : يقارب مع ما هي الانوار ؟ (كانط فوكو) ترجمة جميل قاسم ويوسف الصديق ، تقديم جميل قاسم دار الانوار بيروت ت ص ٢٩ ـ ٤٦ .

معها على وفق ظروف كل بلد فيها ، وهي في اوربا غيرها في الولايات المتحدة الامريكية كجزء من نزوعها للتحرر من تبعيتها للعالم القديم وامتلاك لحظتها التاريخية . زكان الغالب على عموم الموقف الفلسفي الاوربي ، وكان التعليق بالحداثة كجزء من الاشتراك في المشروع التنويري (العقلاني ــ العلمي ــ الاجتماعي) الى حين انتقالها الى ما بعد الحداثة ، مع شيوع النزعة العدمية لنيتشه التي كشفت عن (ازمة الحداثة[٤٥] واصبحت في امريكا كجزء من مشروع المستقبليات بعد ان توزعت ايديولوجيا (الماركسية و (البراغماتية) طوال القرن العشرين ، بخلاف الفكر العربي الذي بقي يعيش على بقايا (الحداثة الاولى) او قل ما قبل الحداثة الثانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين على الرغم من انفعاله السطحي بالثورات (الفرنسية ــ الامريكية ــ البلشفية) وما زلنا نفتش اليوم عن (صورة الحداثة العربية) ونحن نعيش تأثيرات (الحداثة الثالثة) كما تحدث عنها توفلر ، او كما تريدها امريكا في ظل العولمة ، وفلسفتها (الكيوسية = الفوضوية) واسلوبها (الادهوقراطي) و تعاملها على اساس قانون (الزيغ الزماني) و (جنات مال الاثرياء) والمافيا العالمية ؟

١ ــ لقد قدم لنا ما لكم برادلي وجيمس ماكفارلن خلاصة وافية لإشكالية الحداثة في الفكر الغربي (الاوربي الامريكي)[٤٦] من كانط الى

---

[٤٥] فرانك كيرمود : حركات الحداثة : مقالات حديثة : لندن ١٩٧١ بالانجليزية ومثله : جورج لوكاش : الواقعية الحديثة : لندن ١٩٦٢ (بالانجليزية) ص ١٥ ــ ٤١ وكذلك لورتوب فراي : القرن الحديث : نيويورك ــ لندن ١٩٦٧ (بالانجليزية) ص ٥٢ ــ ٢١٣ .

[٤٦] مالكم براداي وجيمس ماكفارلن : الحداثة ١٨٩٠ ــ ١٩٣٠ ترجمة مؤيد حسن فوزي ، دار المأمون للترجمة والنشر بغداد ١٩٨٧ ص ١٥ ــ ٢٦٤ .

توفلر . ان الارتقاء من الحداثة الى ما بعد الحداثة Postmodrnism يعنى الوصول الى " ذلك النمط من وعي الانسان المعاصر لاهمية اللحاق بركب الزمن "[٤٧] الى ان وصل بها فيلسوف الحداثة (فلوبير الى القول عنها " كل ما اريد ان افعله هو ان انتج كتابا جميلا حول لا شئ وغير مترابط الا مع نفسه ، وليس مع عوالم خارجية يفرض نفسه بحكم اسلوبية "[٤٨] ايا كانت حركته معبرة عن (فن التحديث) او فن الادب التكنولوجي ، فما جاءت الا " لتحطيم الشخصية الفردية وتغليب الفوضى وفن الفن على الرغم من انها تعنى " فن اللا فن " وذلك هو مال الحداثة الاخير او ما بعدها بعد سلسلة الازاحات والحروب التي عصفت بالمجتمعات الغربية الى يوم الناس هذا بهدف تبني رغبات الانسان الفوضوية "[٤٩] وتغيير النظرة الى الدين والاخلاق والجمال والسياسة والادب "[٥٠] حتى جرى الانتقال الى فن الصدفة واللامعقول واللا قصد والأ إرادية واللا أصالة وشيوعها في كل مكان لتفصح عن معنى (التورط والغربة والعدمية واللا نظام واليأس والفوضى) انها مزيج مخيف من العقل وفوق العقل ، لابل تعنى (هلوسة ما هو عقلاني وتغريب ما هو مألوف وتحويل كل ما هو غريب الاطوار الى شئ تقليدي) وعقلنة العواطف وعلمنة

---

[٤٧] براد بري ومكفارلن : الحداثة : ص ٢٣ .

[٤٨] ايضا ص ٢٥ .

[٤٩] ايضا ص ٢٨ ـ ٣٠ .

[٥٠] ايضا ص ٣٣ و ٣٤ ـ ٣٥ .

الروحانيات وتحويل المكان الى زمان .. ثم النظر الى اللا حقيقة بعدها الحقيقة الاولى والاخيرة و (إهمال منطق التاريخ والتشبث باللحظة والخلط بين (الرفض والقبول والحياة والموت والرجل والمرأة والارهاب والسعادة والجريمة والعبادة والشيطان والاله[٥١] .

٢ ـ هذا ما انتقل من اوربا الى امريكا في القرن العشرين ، امريكا التي تحولت بمرور السنين ومع تراجع (منطق الهيمنة الاوربية) الى مشروع للهيمنة على عالم الجنوب (امام العملاق الامريكي السوبر امبريالي) الذي رفض ان يتعامل في علاقاته مع الاخرين في اطار من حوار الحضارات وتبادل المنافع والشراكة العالمية في انتاج الحضارة وقطف ثمارها وتسخير منجزات العلم والعقل والثورة المعلوماتية لصالح الانسان وتحريره من الظروف السلبية التي عصفت به خلال حربين كونيتين معلنتين وحربين (باردة) ثالثة و (ساخنة) رابعة ضد الارهاب الاسلامي "[٥٢] ! وبعد ان جعلت امريكا من نفسها " مرجعية كونية قد رأت في هذه العقلانية (الحداثوية التي سبق ونادى بها كانط) اساسا لثقافة كونية وتسويغاً لمزاعمها في تحديد القيم الكونية (او تجديدها) متى شاءت وكيفما شاءت " فالحداثة (اليوم) تحدد " قياسا على ما قبل التحديث ، والعقل قياسا على الطيش والتطير " ولترسم خارطة لتقسيم جغرافي رمزي تضع الغرب في مواجهة الشرق (او قل الشمال في مواجهة الجنوب) وتجعل حداثة الاول وعقلانيته

---

(٥١) ايضا ص ٨٦ .

(٥٢) كيفن رونيز : حرب العالمين الاولى ضد بلد عربي مسلم من العالم الثالث تحرير وترجمة صبحي الحديدي ، دار الارض للنشر ، قبرص ١٩٩١ ص ٦٦ ـ ٦٧ .

(نقيضا) لقيم الثاني وتسمه باللاعقلانية ، حتى اقام (الغرب / الشمال) احكامه عن (الشرق / الجنوب) على (اساس من الدونية والعجز والتدهور)[٥٣] ويعمم الحكم على العقائد فيقول (الاسلام المتخلف الذي يقابل بالغرب المسيحي / اليهودي المتقدم) لكنهم يخشون من تحديث (الشرق / الجنوب) لان ثقافته عندئذ ستهدد حضارة الغرب وتقنياته وحداثته (الثالثة) ما دامت (ثورته المعلوماتية) ما جاءت الا تعبيرا عن حداثته[٥٤] لهذا السبب علق (هبرماس) على قول (ستاينفلر) الذي قاس الحداثة على ما بعدها (اوربا / امريكا) قبل ان يقيس عليها الوضع المتخلف في عالم الجنوب قائلا يتخذ الصراع لما يمكن ان يعد عقلية معارضة وتتبع منطقها لتربطه بالاشكال المتنوعة للتطرف أي ايجاد علاقة بين الحداثة والعدمية (النيتشوية ــ كما ادركتها مدرسة فرانكفورت في اوربا سابقا) بين قيود الحكومة التوتاليتارية ، وبين نفقات التسليح (وتخويف الناس من خطر موهوم) بين تحرير المرأة وحقوق الشذوذ الجنسي : وتحطيم العائلة ، بين اليسار (تحت عنوان التطرف) وبين الارهاب او (مناهضته السامية) حتى يصل هبرماس الى (الحداثة الثقافية) الجديدة قائلا هي المعبرة ، عن " الاعباء غير المريحة للتحديث الرأسمالي في مجالي الاقتصاد والاجتماع "[٥٥] مشيرا الى معضلات الحياة الغربية الناجمة عن الحداثة الثالثة

---

(٥٣) ايضا ص ٦٧ .

(٥٤) ايضا ص ٦٨ ــ ٧٠ .

(٥٥) هبرماس ، جورجن : الحداثة مشروع لم يكتمل بعد : تر / غازي مسعود ، مجلة الموقف الثقافي ع ١ ــ ٢ ، بغداد ١٩٩٦ ص ٨١ .

والناشئة بسبب اختراق الثقافة الحداثوية قيم الحياة اليومية " فينجم عن اختلاط الحداثة بما بعدها ! اجتماع النقائض والمتضادات بسبب " إطلاق العنان لدوافع المتعة التي لا يمكن مصالحتها مع انضباط الحياة المهنية في المجتمع " الى جانب تناقض " الثقافة الحداثوية مع أسس السلوك في الحياة العقلانية الغائبة واثارة الكراهية ، بمعتقدات وفضائل الحياة اليومية تحت ضغط الحاجات الاقتصادية والادارية مما عبر عن (الموقف المعادي)[٥٦] او ما يعرف بروح الكراهية . لهذا السبب على ما نظن تحدث جاكوبي عن نهاية الايديولوجيا وخرافة التعددية الثقافية ، وثقافة الجماهير الفوضوية ، ليخلص منها الى بيان سمات ما بعد الحداثة في المجتمع الغربي ذاته "[٥٧]! (مجتمع التنوير) وكيف فرضت منطقها الجبري [٥٨] على الحياة ، مع انه منطق يتقاطع مع العقلانية التطبيقية[٥٩] وحفريات المعرفة[٦٠] في اوربا مما انتهى اليه بيار بورديو الى دعوته باعادة النظر بالفلسفة جملة

---

[٥٦] ايضا ص ٨٠ .

[٥٧] راسل جاكوبي : نهاية اليوتوبيا السياسية والثقافية في زمن اللامبالاة تر / فاروق عبد القادر ، عالم المعرفة ع ٢٦٩ الكويت ٢٠٠١ ص ١١ ــ ٢١٣ .

[٥٨] جيلبيربوس : مدخل الى الفلسفة ترجمة / رجب ابو دبوس ــ الدار الجماهيرية مصراته (ليبيا) ١٩٩٤ ص ١٦ ــ ٩٦ .

[٥٩] غوستون باشلار : العقلانية التطبيقية تر / بسام الهاشم ــ المؤسسة الجامعية بيروت ١٩٨٤ ص ١٢٧ .

[٦٠] ميشيل فوكو : حفريات المعرفة ترجمة / سالم يفوت ــ المركز الثقافي بيروت ١٩٨٧ ص ٢١ ــ ١٩١ .

وتفصيلا[٦١] بل بالمشروع التنويري جذريا ! بعد ان فقد شروط حياته ! كما وضعها كانط قبل قرنين من الزمن .

٣ ـ لنقل ان ما بعد الحداثة في المفهوم الامريكي هو (الحداثة الثالثة) اليوم التي ارتكزت على التجربة المعاشة والجسر الذي يربط الايديولوجيات (الشمولية) بما يسمى (نظرية العبور) او الاجتياز واستقلال النظم الفرعية ، بما يعزز فكرة (السوق) كمبدأ منفصل عن النظام الذي يحكم المجتمع سياسياً . " فالسوق هنا هو المعبر عن منطق التاريخ الاجتماعي وتطوره "[٦٢] بعد عام ١٩٩١ وتتجلى مواجهة الصورة بين المصطلح (ما بعد الحداثة او الحداثة الثالثة) والاختلاف السياسي بين الشرق والغرب ، اذا ما عرفنا " ان ظاهرة ما بعد الحداثة تشكل اعلانا لنهاية النظريات الشمولية الموحدة " وبداية ما يعرف بمرحلة ما بعد الشيوعية ، وما بعد البراغماتية ايضا حين انتهت الاولى الى (فرصة لا ارادية) وتحولت الثانية الى (كيوسية = فوضوية) في ظل العولمة حتى جرى التعبير عن (واقع الحال = سياسة الامر الواقع) بنظريات (جديدة) " تضع نهاية للحدود بين الاجيال والاجناس والعام والخاص .. " حد الاعلان عن " لا معنى للعالم الذي نعيش فيه "[٦٣] . هكذا فهم الاوربي المتغيرات في عالم (ما بعد الحداثة) انه (عالم الحيرة) بلغة جان

---

[٦١] بياربوديو : اسباب عملية : اعادة النظر بالفلسفة تر / انور مغيث الدار الجماهيرية سرت ١٩٩٥ ص ١٩ ـ ٢٨٥ .

[٦٢] سليمان الديراني : ما بعد الحداثة : العرب في لقطة فيديو ـ دار الساقي بيروت ١٩٩٢ ص ١٤ .

[٦٣] ايضا ص ١٤ ـ ١٥ نقلا عن كتاب هيرماس بالفرنسية باريس ١٩٨٤ .

بودريار ، او قل هي الفوضى (كيوس) Chaos الذي يعني ان مأزق (ما بعد الحداثة)[٦٤] يوجب على المفكر العمل للخلاص منه الى (ما بعد الحداثة) أي (الموجة الثالثة للحضارة الحداثوية)[٦٥] بلغة توفلر كناية عن مرحلة اختزال المجتمعات وعصر الشركات الاعلانية "[٦٦] .

٤ ــ واذا كنا قد بحثنا في مناسبة سابقة حقيقة (الحداثة الثالثة) من خلال ما عرف (بالمستقبليات) او صدمة المستقبل مشيرين الى الكثير من الظواهر الحداثوية الجديدة بالضد من تنويرية كانط مثل اللاعقلانية والعبثية ومنطق القوة وغياب معايير الحق والجمال"[٦٧] وتخطى عبق الروح وقضايا النفس الانسانية الى حيث الخوف والقلق والرعب والإرهاب "[٦٨] فلنذهب الى المصادر الغربية لفحص حقيقة الحداثة الثالثة .

أ) اذا كان كارل بوبر يرى ان " العقلانية لم تعد من الافكار العصرية "[٦٩] .

---

[٦٤] ايضا ص ١٥ .

[٦٥] الفين توفلر : حضارة الموجة الثالثة : ترجمة عصام الشيخ قاسم الدار الجماهيرية ط ١ بنغازي ١٩٩٠ ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥ .

[٦٦] سليمان الديراني : ما بعد الحداثة ص ١٥ .

[٦٧] دراستنا الموسومة : الخطاب الفلسفي المعاصر ومستقبليات توفلر ، من الحداثة الى العولمة ، بغداد ٢٠٠٣ ص ١ ــ ١٩ .

[٦٨] وهو ما فصلنا القول فيه ، ضمن دراستنا : الخطاب العربي الثقافي والاعلامي وجدلية الخوف ، مقدمة في الدورة (١٤) للمائدة المستديرة ــ تموز ٢٠٠٤ طرابلس ص ١ ــ ٣٩ .

[٦٩] النص اورده نبيل علي في الثقافة العربية وعصر المعلومات : عالم المعرفة شباط ، عند ٢٦٥ الكويت ٢٠٠١ ص ١٣ .

ب) فان توفلر يرى في حضارة (الموجة الثالثة) للمجتمع ما بعد الصناعي (التقني) الامريكي احتمالات تحول السلطة بين العنف والثورة والمعرفة "[٧٠] واختلاط المفاهيم وغياب الحقيقة .

ب/١: ان الثورة المعلوماتية والالياف الضوئية التي اختزلت (الجهد والمال والزمن والمسافات) بين اطراف الكرة الارضية حتى بدت وكأنها (قرية صغيرة) تخضع لسطوة امريكية تحت ما يعرف (حق الدمقرطة)[٧١] .

ب/٢: مع ذلك يتحدث توفلر عن مستقبل امريكا (الداخل) معلنا بوضوح ان الولايات المتحدة " بالرغم من انجازاتها الكبرى في الفن والعلم والفكر وفي الحياة المعنوية والسياسية فأنها امة يهرب عشرات الالوف من شبابها من الواقع بأدمان المخدرات ويتراجع ملايين (الاباء) الى ضبابية الكحول ، امة يعيش عشرات الالولف من ابنائها المسنين في خمول ويموتون وحيدين .. امة لا تجد الملايين فيها من سبيل الى ترويض قلقهم واضطرابهم الا باللجوء الى عشرات الانواع من العقاقير المهدئة ، مثل هذه الامة تعاني من صدمة المستقبل "[٧٢] .

ب/٣: كما ترتب على التقنية الرأسمالية متغيرات خطيرة مثل الحروب المفتعلة على الارهاب (العدو الغامض) وتخريب البيئة

---

(٧٠) الفين توفلر : تحول السلطة تر / فتحي بن شتوان ونبيل عثمان الدار الجماهيرية ـ مصراته ١٩٩٢ ص ٢٧٠ .

(٧١) الفين توفلر : صدمة المستقبل (المتغيرات في عالم الغد تر / محمد علي ناصيف ، تقديم احمد كمال ابو المجد ـ مطابع النهضة ـ القاهرة ١٩٩٠ ص ٣١ وما تلاها .

(٧٢) توفلر : صدمة المستقبل ص ٣٨٥ .

والعنصرية والتفاوت الفاحش بين الاغنياء والفقراء " وثورة الشباب وظهور وتفشي خطر اللاعقلانية المميت "[٧٣]مما يتطلب الهروب من مشكلات الداخل الى عدو خارجي يتوجب المقاتلة ! انه (خطر الارهاب)[٧٤] الكونفشيوسي ، والاسلامي والعربي بعد ان كان هذا الخطر (ما قبل ١٩٩١) شيوعياً احمراً ! .

ب/٤: ومنذ عام ١٩٥٠ اصبح (الحاسوب) بمثابة الدعامة المادية لما بعد الحداثة وصولا الى (الموجة الثالثة) ليؤكد مقولة بيكون (ان المعرفة هي القوة) وان المعرفة هي سرعة التغير على وفق المسخر من وسائل (ادهوقراطية) تختزل الحلقات وتتجاوز الاساليب التقليدية في التفكير والثقافة والادارة والعمل (الاداء التقاني والسياسي والاقتصادي) لا في عالم (ما بعد التكنولوجيا) فحسب بل (وفي العالم الثالث) بما ينطبق على المنظمات والاحزاب والشركات والتجمعات الفنية والادبية والايديولوجية وحتى الدينية[٧٥] والدول والثروات .

ب/٥: ان المتغيرات المادية لا بد ان تنعكس على الجوانب الاجتماعية والقيمية فتعصف بقيم المجتمع ووحدة الاسرة وتقاليد الزواج وفلسفته ، حتى يصبح الزواج السري والمؤقت والمدني والانحراف والزواج المثلي والشركات التي تسخر المرأة والرجل في عملية تبادل الادوار الحيوية والبيولوجية في اطار ما يعرف بخليط الكعكة النفسي "[٧٦] .

---

(٧٣) ايضا ص ٥١٤ ، وراجع ص ٤٢٤ بروية وتأمل .

(٧٤) علي حسين الجابري : الخطاب الفلسفي المعاصر ومستقبليات توفلر ص ٧ .

(٧٥) توفلر : صدمة المستقبل ص ٣١٣ .

(٧٦) ايضا ص ٢٣١ و ٢٤٩ ــ ٢٧٠ .

ب/٦: ان نقل النسق اللاخطي من العلوم الصرفة الى المجتمع تحت دعاوى تحرير الفرد من قيود المألوف لكي " يعيش في عالم ليس له نظام محدد يمتاز بالمرونة والحركة "[٧٧] الرجرجة والازاحة على صعيد السياسة والمجتمع والاقتصاد في عالم الجنوب اعتماداً على آلية جديدة في العمل اسمها (الادهوقراطية) تقوم على مثلث (المسؤول والفريق والحاسوب) من اجل بلوغ أكثر من عشرين هدفاً خطيراً داخل المجتمع الامريكي وخارجه "[٧٨] وصولا الى اغرب تشكيلة (للحداثة الثالثة) نشأت من (تعايش المتناقضات) بطريقة آلية على سطح واحد فالى جانب انتعاش المافيات والانحراف سينبعث التطرف الديني كما تزدهر تجارة المخدرات مع ظواهر الاستبداد في ظل الدعاوى الليبرالية والمجتمع المدني مع تفجر الحروب المبعثرة في انحاء العالم .

وتنتشر (الكيوسية) فكرا وثقافة الى جانب (الفرق السرية ، للقتل والخطف) او تأخذ شكل (جماعات تسليك) في الاقتصاد والسياسة والاعلام ، والانتقال بالتجسس والعمالة ، من النشاط الرسمي المقنن الى القطاع الخاص وبدء حقبة (الحكام المصنعين) في (مدارس خاصة)[٧٩] وشركات الدعاية والاعلان .

ب/٧: ليس من سبيل اخر امام امريكا الامة التي تعاني من تخبط حول قيمها الجنسية .. (امة) يمزقها الشك فيما يتعلق بالمال والملكية

---

[٧٧] توفلر : صدمة المستقبل ص ٢٦٠ .

[٧٨] نوهنا بها مفصلا في دراستنا الخطاب الفلسفي المعاصر ومستقبليات توفلر ص ٩ ــ ١٠ .

[٧٩] توفلر : تحول السلطة ص ٥٨٥ ــ ٥٩٠ وتدقق ص ٣٤٠ ــ ٤٠٥ .

والقانون والنظام والعناصر والديانات والله والاسرة والـذات "[٨٠]
امة تعاني من الذهول ودهشة العقل والعجز المذهل عن التكيف الذي يأتي من المستقبل ويهددها بالكثير من الامراض العقلية "[٨١]
ان هذه الثمار (الحداثوية المعاصرة) تتناقض مع جوهر الحداثة الكانطية والتنوير العقلاني الذي عبر الى أوربا النهضة من الحضارة العربية الاسلامية ثم عبر المحيط الاطلسي الى العالم الجديد .

ب/٨: وليس أدل على (تشويش الحداثة الثالثة) الامريكية من قول كبير مستشاري البيت الأبيض للشؤون المدنية دانيل ب . موينهان " ان الولايات المتحدة اليوم تبدو عليها اعراض شخص على وشك الاصابة بالانهيار العصبي وهو مرض خطير كما يقول توفلر اخذ ينعكس بشكل متزايد على ثقافتنا وفلسفتنا ومواقفنا ازاء الحقيقة "[٨٢] ليكون بذلك اكثر صراحة من هنتغتون في اعترافه بضحايا الحروب الخفية التي تجاوز اعدادها اعداد ضحايا الحرب العالمية الثانية . مما قد تنعكس آثاره المستقبلية على الولايات المتحدة الامريكية فتتشظى الى دويلات في ظل الحداثة الثالثة "[٨٣] .

---

[٨٠] ايضا ص ٣١٧ .

[٨١] مثل العصاب الوبائي والهوس والعنف والتكنوفوبيا والشك .. الخ (يراجع : توفلر : تحول السلطة ص ١١ و ١١٠) .

[٨٢] توفلر : صدمة المستقبل ص ٣٨٤ .

[٨٣] توفلر ، الحرب والحرب المضادة ، تعريب صلاح عبد الله ، الدار الجماهيرية للنشر سرت ١٩٩٥ ص ٨ و ٧٨ ــ ١٠٧ .

٣ ـ وحين نريد (تقويم) الحداثة الثالثة ومسارها التنويري الذي تبدى لنا في السطور الفائتة من وجهة نظر اوربية (عقلانية) معاصرة بعد قيام الاتحاد الاوربي نعرض للشهادات الاتية :

أ) يتحدث (نورس) عن ما بعد الحداثة الامريكية بمعنى (لا معقولية السلوك تجاه العراق في حرب غير معقولة) ولا يمكن ان يتصورها عاقل "[٨٤] وكيف انتهت الى سيرورة الحداثة وما بعدها الى نوع من التحول والمواجهة بين :

أ/١: التفكيكية وما بعد الحداثة : من كانط الى دريدا فليوتار "[٨٥] .

أ/٢: البراغماتية التقليدية والبراغماتية الجديدة او ما بعد البراغماتية ممثلة بالكيوسية بتحول العالم الحقيقي الى خرافة "[٨٦] لم ير فيها الامريكي في المرأة الا ذاته منعكسة على عالم الجنوب بطريقة مقلوبة .

أ/٣: المتسامي والعبثي على أساس المعرفة التاريخية السردية والتنويرية مما انتهى الى ظاهرة (اللا معنى واللامعقول)[٨٧] التي تسود الحياة والفن والادب والفكر والاعلام .

أ/٤: الأيديولوجيا ، وما بعدها او ما سمي بالليبرالية الجديدة والنظام العالمي (السوبر / امبريالي / التوراتي) في مرحلة ما بعد (الامبريالية)[٨٨] وصولا بالإنسانية الى نتائج (كارثية) لنمط

---

[٨٤] كريستوفرنورس : نظرية لا نقدية تر / عابد اسماعيل ، تقديم تيودور ادورنو دار الكنوز ط ١ بيروت ١٩٩٩ ص ٩ ـ ٤٠ .

[٨٥] ايضا ص ٤١ ـ ٧٠ .

[٨٦] ايضا ص ٧١ ـ ٩٨ .

[٨٧] ايضا : ص ٩٩ ـ ١٢٤ .

[٨٨] ايضا ص ١٤٤ و ١٧٠ و ١٨٣ ـ ٢٣٠ .

التغير بين (تنويرية كانط = الحداثة الأوربية) وما بعدها حسب المفاهيم الفرنسية والألمانية وبين (الحداثة الثالثة) حسب المفهوم الأمريكي او ما بعد الحداثة ممثلة في :

ـ اولاً: التشكيك بعصر الانوار والمنجز الاوربي حسب رؤية (رورتي ، هبرماس ، ادوارد سعيد) و (الماركسيون الجدد) وما بعد الحداثة . وما بعد الايديولوجيا (وما بعد الشيوعية) كما هي عند (قيس ، رورتي ، فوكوياما)[٨٩] .

ـ ثانياً: وضوح الافتراق بين الرؤية الاوربية الحداثوية وحقيقة النوايا الخفية للمشروع الامريكي (المعلولم) في الحداثة الثالثة .

ب) الفوضى العالمية التي حذر منها (جارودي)[٩٠] وهو يستقرئ السلوك الامريكي في ظل العولمة ، ووحدانية السوق التي جعلت من امريكا قائدة الانحطاط وتخريب القيم والاساءة للتجارب الاشتراكية والقومية ، وسعيها لاستعمار (اوربا الحداثة) اعتماداً على التضليل والخداع"[٩١] مما لا سبيل الى مواجهته الا بحل عقلاني تنويري جديد يأتي بمثابة الاعلان العالمي للواجبات ردا على خطط العولمة "[٩٢] والجات ، والاتفاقيات الملحقة بها .

ت) ويتجلى تفاوت الفهم الاوربي للحداثة ، مع التصور الامريكي للعولمي في الحوار المشوافي بين بيير بورديو (فرنسا) وغونتراغرس (ألمانيا) يوم ٥ / ١٢ / ١٩٩٩ جاء على لسان

---

[٨٩] ايضا ص ١٩٨ ــ ٢١٦ .

[٩٠] روجيه جارودي : امريكا طليعة الانحطاط ، تقدم كامل زهيري ، ترجمة عمرو زهيري ط ٢ ، دار الشروق من القاهرة ٢٠٠٠ ص ٢٥ ــ ٣٨ .

[٩١] ايضا ص ٣٩ ــ ١٧٠ .

[٩٢] ايضا ص ١٧١ ــ ٢٩٣ .

(غراس) " هل ان الحركة الاوربية لعصر الأنوار (الحداثة) قد فشلت " رد ! بورديو : اجل " بسبب الرؤية الليبرالية الجديدة التي أصبحت رؤية مهيمنة اليوم اعتقد ان الثورة الليبرالية الجديدة (الحداثة الثالثة) ثورة محافظة .. تعيد تشييد الماضي الذي يقدم نفسه تقدميا ، ثورة تحول التراجع الى التقدم "[٩٣] . قال غونتر غراس : " ما يطرح اليوم على انه ليبرالية جديدة (ما بعد الحداثة) = (الحداثة الثالثة) ليس سوى عودة الى وسائل ليبرالية (مدينة مانشستر) في القرن التاسع عشر . وفي السبعينات من القرن العشرين حاول الجميع في اوربا (تحضير الرأسمالية أي جعلها اكثر حضارية) وإنسانية . انا كنت انطلق من مبدأ (ان) الاشتراكية والرأسمالية ! هما الطفلان الفاشلان بجدارة لعصر الانوار (الحداثة) لانهما يملكان قدرة على التحكم (المركزية) الرأسمالية خضعت لبعض المسؤوليات وفي المانيا نسمي ذلك اقتصاد السوق الاشتراكي " ! ولكن مع بدء انهيار الشيوعية في نهاية الثمانينات " اعتقدت الرأسمالية ان كل شيء مسموح لها كما لو انها تستطيع الفرار (التملص) من كل مراقبة للقطب المعاكس (المضاد = الاشتراكية) لها بدأ خاطئا بما في ذلك الرأسماليون النادرون الذين يطالبون اليوم بالحذر لانهم انتبهوا الى ان النسق الليبرالي الجديد ، يعود ليقع في الاخطاء الشيوعية عبر اختراعه لدوغمات وبنوع من ادعاء العصمة .. انه استسلام اما الاقتصاد " ! وفي رد بورديو على هذا الرأي قال "

---

[٩٣] بيير بورديو : وغونتر غراس : حوار على شبكة الانترنت(المعلومات الدولية) منشورة ترجمتها العربية ، في جريدة العراق البغدادية يوم ٢٦ / ٢ / ٢٠٠٢ نقلا عن (المحطة الاوربية الفضائية يوم ٥ / ١٢ / ١٩٩٩) .

بأن الاوربيين وعلى الرغم خطابهم الاشتراكي الجديد ، لكن الممارسة تبقي هذه الحركة النقدية ضعيفة جداً " ثم يتساءل (ماذا نستطيع نحن المثقفين) القيام به كي نسهم في (تقوية هذه الحركة) بعد اكتشاف الحقيقة ؟ نقول " ان جميع الفتوحات الاجتماعية ، قد تم اكتسابها خلال قوة الصراع " ومنطق القوة ! " مما يضع على عاتق المثقفين مسؤولية تشكيل حركة جديدة لمواجهة قوة المسيطرين الاقتصادية والثقافية ؟ التي راحت تقتل (الأحلام الإنسانية) في الحياة الكريمة للغربيين أنفسهم ! فمسألة الاشتراكية ـ هكذا يرى غونتراغراس هي طموح انساني سابق على التجربة الشيوعية فيتوجب علينا بعد ذهابها ان نتمسك به والا سوف " نتخلى عن أنفسنا " ولا ينفع معه الاحتجاج الخجول على الخلل الذي يهدد (المجتمع الألماني / الأوربي) نفسه من جراء كثرة (نفايات التقنية) . مما يفرض علينا ضرورة تأسيس (نقابة للعاطلين عن العمل) وبناء أوربا (جديدة) اقتصاديا وفكريا . وما دام واجب المثقفين (الثوريين) هو الحافز فلا بد من " ابداع قوة مضادة لليبرالية الجديدة العالمية " أي الحداثة الأمريكية الثالثة . ولا يخفى قلقه في هذا الجانب على المثقفين قياسا على أولئك الذين يجيئون من عالم العمل الذين يعملون ضمن النقابات " . هؤلاء الناس هم اليوم من العاطلين .. ويبدو ان لا أحد بحاجة لهم اليوم " وتلك هي قوة الصدام الجديدة داخل (بنية العولمة ذاتها) أي داخل (ما بعد الحداثة = الثالثة) وعصر المعلوماتية في الغرب .

خلاصة القول :

جميع ذلك يصيب (كانط) بخيبة الامل بعد قرنين من وفاته مثلما يحزن الاجيال العربية التي ورثت الحداثة العربية الاسلامية من العلماء والفلاسفة ! الذين ظنوا خيرا بالعلم وبالمستقبل قبل الف عام واذا بهم يواجهون هذه الحالة من الفوضى في كل شيء والمشكلة عامة : ثلاث حداثات ! انتهت بالغربيين وبنا نحن ابناء العربية "[٩٤] الى ضرورة اعادة طرح الاسئلة الفلسفية عن الانسان والحق والخير والجمال والسعادة والعدالة بشيء من (الاطار الميتافيزيقي) لكي نفتح بابا لخيال الانسان "[٩٥] يستطيع به ممارسة (احلام اليقظة) ليس الا ! .

---

[٩٤] نبيل علي ، الثقافة العربية وعصر المعلومات ص ١٥ .

[٩٥] ناصيف نصار ، الفلسفة في معركة الأيديولوجية (دار الطليعة) ط ١ بيروت ١٩٨٠ ص ١٣٧ ـ ١٥٣ .

واقع المعادن المنطرقة في مشرق الدولة العربية الإسلامية حتى القرن الثالث للهجرة

أ.د. طه خضر عبيد
قسم التاريخ / كلية التربية
جامعة الموصل

الملخص

تعد المعادن المنطرقة " الفلزية " من المعادن التي كانت تمثل وعاء الحضارة بشكل عام والحضارة العربية الإسلامية بشكل خاص .

تتناول الدراسة عرضاً للمعادن المنطرقة وتوزيعها الجغرافي في مشرق الدولة العربية الإسلامية ـ مشرق الوطن العربي ـ حتى القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد ، فضلا عن أهميتها الحضارية والاقتصادية للناس والدولة ، ومصادرها المعدنية لتلبية المتطلبات ، وطرق الاستخراج ، وأخيراً موقف الشرع والفقه من تلك المعادن .

واستنتجت الدراسة ، الى أن واقع تلك الثروة المعدنية في مشرق الوطن العربي كان غنياً ومتنوعاً ، ومركزاً على سبق الحضارة الإسلامية في التعامل مع تلك الثروة المعدنية وتطويعها لخدمتها وخدمة الإنسانية .

اولاً : المقدمة :

تعد دراسة المعادن المنطرقة " الفلزية " (١) في الدولة العربية الإسلامية ، من الدراسات الحضارية ، وذلك لسببين رئيسين ؛ الأول : حضاري ، لان المعادن تشكل العمود الفقري للحضارة بشموليتها ، ولان كيفية التعامل مع خزائن الأرض والبحث عنها واستعمالها لا يحصل الا بطرق حضارية ، ويظهر هنا ، المدى الذي بلغته الحضارة العربية الإسلامية من تقدم وسبق مبكر ، فضلاً عن التعامل اللغوي والفقهي والعلمي مع تلك المعادن (٢) ، والعقول التي حولت تلك المعادن الى نقود ، وصناعات والآلات متنوعة ، غاية في الصنعة والدقة والاستعمال ، لتكون وعاءً لتلك الحضارة الراقية ، في تفوقها وخدمة الإنسانية .

ويأتي السبب الثاني ؛ الاقتصادي ، عندما وفرت دخلاً للأفراد العاملين في التعدين ، فتحسن مستواهم المعاشي ، ولأولئك المتاجرين بالمعادن ارباحاً ، وللصناع والحرفيين من صاغة وحدادين ونحاسين أعمالا دائمة ، فدرت عليهم الأموال ، وابعد من ذلك ، انها أمنت الأموال لبيت المال ، ورفعت من مستوى معيشة الأفراد ، وخدمت اقتصاد الدولة (٣) .

عرفت الأرض العربية ، على مر العصور التاريخية ، بأنها ارض المعادن المتنوعة ، شاركت حضارات وادي الرافدين ووادي النيل وغيرهما ، في اكتشاف المعادن والاستفادة منها ، واستخدامها في مجالات عديدة ، حتى سمّت عصورها باسم تلك المعادن ، وصنعوا منها ما هو ضروري (٤) .

وأمدتنا المصادر التاريخية والبلدانية بإشارات عن المهتمين والعلماء ومؤلفاتهم التي عنوا بالمعادن الفلزية ، والأقاليم التي حوت على تلك المعادن ولاسيما شبه جزيرة العرب ، والعراق وبلاد الشام ومصر ، وقد سميناها بـ " المشرق العربي الإسلامي " في البحث سواء قبل الإسلام او في العصور العربية الإسلامية ، فضلا عن تزويد الأقاليم الشرقية والغربية والتي أصبحت جزءا من الدولة العربية الإسلامية في العصرين الأموي والعباسي .

وقسم الموضوع الى المحاور الآتية (٥) :

- تحديد المعادن المنطرقة وتوزيعها الجغرافي .
- الطرق المألوفة للاستخراج .
- الأهمية الحضارية والاقتصادية .
- الأحكام الشرعية والفقهية للمعادن .

ثانياً : تحديد المعادن المنطرقة وتوزيعها الجغرافي :

تشمل المعادن المنطرقة على الحديد ، النحاس ، الرصاص ، الذهب ، الفضة ، ويسمى المعدنان الأخيران ، بالمعادن النبيلة أو الثمينة " Percioun Metals " وتقع جميعها في مجموعة " خانة " المعادن الفلزية ، وكل نوع قائم بذاته له خواصه التي تختلف عن الآخر في الكيفيات (٦) ، ويتطلب استخراجها الى جهود مضنية ، وتواجه العاملين فيها مخاطر طبيعية وبشرية ، فضلا عن ان اختلاف طرق الاستخراج ، وكمية المستخرج ، ونوعيته ، كما ان لكل معدن ميزاته الخاصة به في الخصائص والكيفية والصناعة والاستخدام والقيمة (٧) .

لم تكن المعادن المنطرقة متوافرة بصورة متساوية في كل أقاليم الدولة العربية الإسلامية ، وانما توزعت على أقاليم بعينها ، وهناك

مسالة غاية في الأهمية ، قد أحاطت بالمعادن ، هي ان الأسرار والخفايا ، قد جعلتها بعيدة عن متناول كل الناس ، ومن جهة أخرى كان البحث عن تلك المعادن وصناعتها قد ارتبط بعلمي المعادن والكيمياء ، وان وفرة تلك المعادن قد اقتصرت على المناطق الجبلية والصحاري ، وعلى ضفاف الأنهار والوديان ، ممزوجة بحجارتها وتربتها ورمالها (٨) ، وتتوزع المعادن المنطرقة على أقاليم المشرق الإسلامي على الشكل الآتي ، وهو تقسيم لغرض الدراسة :

الحديد " Iron " :

وهو سيد المعادن الفلزية ، ويكون جزءاً مهما من الصخور بأنواعها ، ويتوزع على أراضي جزيرة العرب ، ولاسيما الممتدة ما بين صعدة والحجاز ، وفي نجران (٩) ، ووجد في رغافة وهي قرية على مرحلة من صعدة ، ويسبك حديدها في خمسة عشر كيراً قرب معدنها (١٠) ، وتوافر الحديد في نقم وغمدان ، وكانت معادنها خام غير مستغلة ، فضلا عن سلوق بأرض خدير اليمنية التي اشتهرت بخبث الحديد (١١) ، وعثر على الحديد في اليمن في اكثر من موقع (١٢) ، واشتهرت الحجاز بحديدها ومن اشهر معادنها القبلية (١٣) . وعرف العراق بتوافر الحديد فيه من قديم الزمان ، واستمر استخراجه في العصور العربية الإسلامية ، ولاسيما في شمال الموصل ، فقد عثر عليه في منطقة الهيكارية من أعمال الموصل شمالها لاسيما العمادية (١٤) . وحدد العطية (١٥) ، إقليم الحديد هذا انه يمتد شمالا الى ماردين .

واشتهرت بلاد الشام بوجود معدن الحديد فيها في نواحي عديدة، فجاءت حران في مقدمتها ، فاعتمدت صناعتها المعدنية الرقيقة القائمة على الحديد المتوفر فيها (١٦) ، وكانت حاني من ديار بكر ، والواقعة في إقليم الثغور ، فقد وجد فيها معدن الحديد بوفرة ، ومنها جلب الى سائر البلدان ليدخل في صناعتها (١٧) ، وعثر على الحديد في أماكن أُخر من بلاد الشام ، مثل تدمر، وجيرود ، وحماه ، والخليل، وحول البحر الميت (١٨) ، وحوت جبال الشام على الحديد ، ولاسيما جبال لبنان " طوروس " ، والمنطقة المجاورة لبيروت ، وفي جنوب فلسطين في ايدولية (١٩) . وبحلب مغرة جيدة ، وبجبال عمان حمر مغرة اقل جودة ، وفي شمال الشام في الغزول ، دوما ، الشوبر ، مشقرة ، وفي جوار دمشق ، وفي حوران والقلمون (٢٠) ، واستغل معاوية بن أبي سفيان ٤١ ــ ٦٠ هـ / ٦٦١ ــ ٦٨٠م ، معادن الحديد المتوافر في بلاد الشام ومصر واليمن ، لعمل المسامير والمراسي والخطاطيف والفؤوس (٢١) .

وفي مصر عثر على الحديد في منطقة النوبة الجدلين (٢٢) ، ويعد الفولاذ من الحديد ، الا انه مسبوكة ، يقوم به الصناع الحاذقون، فهو مصنوع ، وليس بمعدن مستخرج بذاته (٢٣) .

النحاس " Copper " :

يظهر النحاس في الطبيعة على أربع حالات ، النحاس الخام ، والكبريتدات ، والاكاسيد ، والمركبات المعقدة التي تحوي على معادن أخر ، وهو صنفان ؛ النحاس الأحمر ليس فيه اختلاف ، والمصنوع الأصفر ، فانه يختلف حسب صناعته والأماكن التي يعمل فيها (٢٤) .

ويوجد النحاس بشكل طبيعي كمعدن نقي ، كما يتوفر على شكل مركبات متعددة ، إذ يكون ممزوجاً بمعادن أخر ، كما في صحراء مصر الشرقية ، واشتهرت الأقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب ولاسيما البحرين وعمان التي يقع فيها جبل النحاس او جبل المعدن (٢٥) . وعرفت شمام من ارض اليمن بمعدن النحاس الأصفر ، وتلازم وجوده مع الفضة ، وكان قد عمل فيه ألوف المجوس قبل الإسلام ، ولهم به بيتاً لعبادتهم (٢٦) . ووجد في اليمن في بني سيف ، وذمار القرن والبيضاء (٢٧) .

وفي بلاد الشام ، عثر على النحاس في صور ، ويشتهر الأصفر منه بقرب بيروت (٢٨) ، ويشتهر منجم ارغان او ارغاني الذي يقع في أعمال بلاد الرافدين في أعالي الجزيرة (٢٩) ، فضلا عن منطقة كيماش الواقعة في المرتفعات الواقعة جنوب كركوك ، وهي جبال حمرين (٣٠) .

الرصاص " Lead " :

الأسرب منه هو الأسود ، وأفضله ما جلب من المعدن مباشرة (٣١) ، ويكثر إنتاجه في نصيبين الواقعة في الجزيرة ، ويعد من صادراتها الرئيسة (٣٢) ، كما يتوافر في ارض إنطاكية ، والمعرة ، وفي جهات حلب وعمان ، وصافيتا وعكاز وطرابلس الشام (٣٣) . وعثر على الرصاص في اليمن ، ولاسيما في بلاد برط ، وهو من النوع الأسود وفي اكثر من موضع ، وكذلك في رابية وفيها رصاص اسود جيد ، وفي جبلة معدن الرصاص في الشعب العدني ، وفي جرشة عنس في الشعب (٣٤) .

الفضة " Silver " :

من المعادن الثمينة التي اشتهرت بها أقاليم عديدة ، وتلازم وجودها مع الذهب والتبر ، ففي اليمن ، وجد قطاع الفضة في سلوقية بأرض خدير ، وفي شمام تلازم وجودها مع الصفر " النحاس "، وكثرت الفضة في وادي الرضراض ، وينسب معدنها الى مسابكه وقرية المعدن ، والفضة هناك ، لا نظير لها في الغزر ، وقد خرب المعدن بعد مقتل محمد بن يعفر سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م ، وذلك انه كان حداً بين بني فهم من همدان ومرهبة ومراد وبلحارث وخولان العالية (٣٥) . ووجدت الفضة في معادن بين جبلين والبويب ، وكان وجودها بكميات وفيرة ووصفت " كالنبات ، ويقال أن الرياح تسفيه " (٣٦) ، وعثر على الفضة في المناطق الجبلية التي تمتد شمال بلاد الشام " من سورية الحالية " ، والتي تحتوي على منجم مشهور للفضة (٣٧) .

الذهب ، التبر (٣٨) " Gold " :

تعد بلاد اليمن والحجاز ومصر والنوبة وارض السودان ، مواطن الذهب والتبر ، وقد أمدتنا المصادر بمعلومات وافية ، فالهمداني (٣٩) ، يرى ان اليمن مشهورة بالذهب ، وتأتي سلوقية بأرض خدير في مقدمتها ، وفي الجبل المشرق ، قصر لا يزال فيه الذهب والناس يغزونه ، كما يغزون خربات الجوف ، ومعادن الجبلين وسليم ، والبقرة ، وعشم والبرام ، والبرم (٤٠) ، واما تهامة فكانت معادن الذهب موزعة في بلد قرام ، وهو غزير لا باس بتبره ، وبفران ، واما في اليمامة وديار ربيعة فقد وجد فيها ذهباً غزيراً ، ولاسيما في

الحسن ، الخفير ، الضبضب ، وثنية ابن عصام الباهلي ، العوسجة ، تباس ، بيشة ، الهجيرة وبني سليم من نجد (٤١) .

اما ارض عيذاب فهي ارض المعدن المبسوطة لا جبل فيها ، وتعد مجمع تجارات أهل العلاقي ، ومن يضيف العلاقي الى اليمامة ، ويعدها المنهل الذي يجتاز به الخليج الى عيذاب ، وأهلها يعيشون على الذهب واقامتهم في آمور (٤٢) ، وبين ينبع والمروة تتواجد مناجم الذهب المهمة (٤٣) .

ومعادن الذهب في مصر ، كثيرة وتقع في الصحراء الحارة ، شرق النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب ، وكانت اكبر مناجمها " العلاقي " التي تبعد مسيرة خمسة عشر مرحلة من أسوان (٤٤) ويشتهر جبل في صعيد مصر بذهبه (٤٥) ، وفي تنيس جبل للذهب (٤٦) ، وبين علوة والنوبة الجبلين الاحدبين " دنقلة " ، وكان ذهبها من النوع الجيد الخالص ، وفي علوة كان غزيراً ، ليس مثله من المواضع المشهورة باستعماله ، ويحدد ابن حوقل ، ان معدن الذهب قرب عيذاب ينتهي الى حد القلزم " البحر الأحمر " غربا الى الحبشة ، ومصر والنوبة ، ويأخذ الذهب من قرب أسوان ، وأمواله تعود لمصر ، وهو معدن تبر لا ذهب فيه، وكان بأيدي ربيعة المتنفذين في العلاقي (٤٧) ، وصاحب المعدن في سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٦م ، هو أبو مروان بشر بن اسحق بن ربيعة (٤٨) ، وفي جزيرة مصر ، مولى المأمون واصحابه من عاين التبر وآثار العمل فيه للروم في الجزيرة (٤٩) .

واسند الخليفة المتوكل على الله العباسي ٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦ - ٨٦١ م ولاية المعدن بمصر الى محمد بن عبد الله القمي من ولد أبي موسى الاشعري سنة ٢٤١هـ / ٨٥٢م ، واشترط على

الأهالي ، الا يمنعوا المسلمين في معدن الذهب ، وكان ذلـــك الشـــرط عليهم (٥٠) ، ويقول ابن حوقل (٥١) ، انه أتى العلاقي مع البجة ، ولم تعد الأخيرة عن وضعها الا بعد سنة ٢٤٥هـــ / ٨٥٩م ، عنـــد وفـــاه المتوكل ، فعادت الى سيطرتها بيد البجة ، والمواقع المهمــــة للذهــب كانت في السودان ، وهي بلاد التبر ، واهم مورد لمعيشة الناس هنـــاك (٥٢)، وعثر بمصر على الذهب في الصحراء الشرقية "سيناء"، وامتدت الى حدود السودان ، وهي من أغنى المناطق المصرية بالذهب (٥٣) .

ثالثاً ــ طرق الاستخراج " التعدين " :

ان التعدين ، هو العملية التي يتم بها الحصول على المعدن مـن باطن الأرض ، او صناعة استخراج المعادن ، ولا توضح المصـــادر ، طرق استخراج المعادن بشكل كاف ، ونجد ان مبعث هذا الســكوت او الجهل بطرق الاستخراج ، هو ان الأبناء يتوارثون عن الآبـــاء تلـك الأسرار عن الاستخراج ، كما ان أسرار المهنة اقتضت ألا يباح للنـلس أي أمر عنها .

ولم تزد كل طرق استخراج المعادن ، وفي مقدمتها الذهب عـن مجموعة أساليب يدوية بسيطة ، وان لم تكن تخلو من فنـــون مهنيـــة ، تطورت بتقادم الزمن ، فأصبحت حكراً لبعض الناس ، يتعلمونها منـــذ الصغر ، مما لا يجيده غيرهم ، الى جانب ذلك ظهرت أساليب اقل فنية من الأولى ، أسعفت المهرة من الناس ، من الحصول على كمية لا باس بها من حبيبات الذهب ، توازي جهدهم المبذول في البحث والتفتيش من اجل الحصول على دخول اكثر من هذا المعدن الثمين (٥٤) .

ونجد ان العاملين في مجال استخراج الذهب ، يستعملون طرقـاً عديدة للحصول عليه ، منها ؛ الالتقاط ، التعدين ، الحفر فـــي بـــاطن

الأرض ، والحفر في مجرى الأنهار (٥٥) ، وتتبع طريقة الالتقاط لاستخراج الذهب من النوبة والعلاقي ، ويقوم ملتقطو الذهب المشهورون به بالتقاطه ، وعرفت الطريقة نفسها في السودان (٥٦) ، ولهذا شبه المسعودي (٥٧) ، كثرة الذهب بالنبات " ان أرضهم تنبت الذهب " ويقوم العاملون على الحصول عليه ، بالتجوال في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، ويضعون العلامات على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً ، ويبيتون هناك ، وفي الصباح ، يحملون أكوام الرمل التي عملوها ، ثم ينقلونها الى الآبار القريبة ، فيغسلونها بالماء ، ويستخرجون التبر ، ثم يؤلقونه بالزئبق ويسكبونه (٥٨) ، ويرى المسعودي (٥٩) ، ان زيادة المعادن تكون أول الشهر القمري في جواهرها وحسن بصيصها ، وصفاتها ، ويكون الحصول على الذهب في علوة سهلاً لغزارة التبر ، فيستخرج بيسر (٦٠) ، ولأجل تصفية الذهب ، فان هناك طرقاً عديدة ، أهمها ، الغسل ، السبك ، استعمال الزئبق ، والملغمة (٦١) .

اما الطرق المشهورة في استخراج الفضة ، فكان استعمال الحرارة العالية في ارض المعدن " المنجم " واستعمال الحطب وقوداً لذلك ، وإذا انعدم الحطب ، توقف العمل في تلك المناجم (٦٢) .

اما الحديد ، فاستخراجه بالنار الحارة جداً هو المألوف ، وتشير المصادر الى استخدام الكير في صهر وسبك الحديد ، كما حصل في رغافة اليمن (٦٣) ، وكانت حرفة صهر الحديد وصناعة منتجاته ، من بين ما اشتهرت به بلاد الشام واليمن قبل الإسلام ، ثم في العصر العباسي الذي يعد عصر ازدهار التعدين في كثير من الأقاليم ، ومنها الحجاز ومصر والشمال الأفريقي (٦٤) .

والواقع ، ان استعمال كورة التسخين كان مألوفاً ، وذلك بإذابة المعدن في طبقتين ، السفلى موضع شعل النار ، والثانية ، يوضع فيها خام الحديد ، ويستدعي الحصول عليه من المركبات على ان يصهر بدرجات حرارة عالية جداً (٦٥) .

رابعاً : أهمية المعادن الاقتصادية والحضارية :

لم تكن المعادن قيّمة بذاتها ، بل ان تعدد الاستخدام والاستعمال في جوانب الحياة في الدولة العربية الإسلامية ، قد اكسبها أهمية ، ويمكن ملاحظة ذلك في جانبين :

الأول ؛ اقتصادي ، فقد كان تدفق الذهب والفضة ، فضلاً عن النحاس ، عاملاً ينطوي على إمكانات واسعة لضرب النقود ، وكان العرب قبل الإسلام ، ولمدة لاحقة ، يستعملون الدراهم الفضية الساسانية ، والدنانير الذهبية " Solidus " ، في الولايات الشرقية بالعملة الفضية ، والغربية بالعملة الذهبية ، وأصبحت مقياساً لتقييم السلع والبضائع ، وتحديد ما يقابلها (٦٦) .

وقد فضل الذهب والفضة على بقية المعادن الفلزية ، كوحدتي ثمن ، لمرونة السبك والطرق والجمع والتفرقة والتشكيل ، وعدم وجود روائح رديئة كريهة منها ومحافظتها على الدفن ، ومرونتها في المعاملات التجارية ، ووضع العلامات التي تصونها ، وإمكانية تمييز الغش فيها ، وإمكانية تجزئتها بإحجام اصغر ، لذلك عدت من المال الصامت (٦٧) ، وأضيف النحاس الى الذهب والفضة ، وكانت هذه المجموعة الثلاثية من أجود جميع المطلوبات في العمليات التجارية والخزن ، ولذلك أصبحت أثماناً للمبيعات ، وقيماً للأعمال ، وعنواناً للثراء عند كل الأمم (٦٨) .

واستمر تداول النقود الأجنبية الساسانية والبيزنطية في الدولة العربية الإسلامية الى العصر الأموي ، لأسباب منها ، انشغال العرب المسلمين بالتحرير والفتح ، وقلة الاهتمام بالجانب التجاري ، ولان مواقع توافر تلك المعادن الثمينة اصبح في الأقاليم الخاضعة للعرب المسلمين ، فضلا عن أسباب أُخر ، سياسية واقتصادية ودينية ، فقد اقدم الخليفة عبد الملك بن مروان ٥٦ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥م ، في سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م على تعريب تلك النقود ، وسكها في دولته ، فعد ذلك العمل من الإنجازات الاقتصادية والسياسية المهمة في العصر الأموي ، انعكست آثاره الإيجابية على الأمويين ، وعانت الدولة البيزنطية منه الأمرين (٦٩) .

لم تقتصر عملية الحصول على الذهب والفضة على أقاليم الدولة العربية الإسلامية حصراً ، بل اتبعت إجراءات اقتصادية ، ، جاء في مقدمتها فرض الضرائب على المعادن المستخرجة ، وعلى السلع والبضائع التجارية للحصول على كميات كبيرة من تلك المعادن (٧٠) . مما انعكس على الميزان التجاري والنقدي ، فشارك في ازدهار الحياة الاقتصادية وقتذاك ، وبدأت عملية واسعة رافقت تلك الإجراءات ، هي فحص وتمييز العملة من الدراهم والدنانير ، ومعرفة المزيفة والمغشوشة منها ، ومراقبة ذلك بشدة (٧١) .

اما الجانب الحضاري ، فقد استخدمت المعادن الفلزية المنطرقة ، في كل مفردات الحضارة العربية الإسلامية ، بدءاً بالصناعات ، فكانت المواد الخام من الحديد والنحاس والرصاص ، قد دخلت في بناء الأساطيل العربية الإسلامية في نهاية العصر الراشدي وبداية الأموي ، ثم تطورت اكثر في العصر العباسي ، فقد استغل

معاوية بن أبي سفيان ، معدن الحديد المتوفر في مصر وبلاد الشام واليمن في بناء نواة الأسطول العربي الإسلامي (٧٢) . واعتمدت على تلك المعادن ، صناعة السلاح ، كالنشاب والفؤوس والسيوف ورؤوس الرماح والأسنة والدروع ، فمدت الجيش العربي الإسلامي بأسلحة متطورة جداً ، كما اشتهرت مدناً عديدة كواسط ، البصرة ، الكوفة ، ومدن الشام (٧٣) ، فنالت القيانة والقرداحة وصناعة السلاح في بلاد الشام شهرة واسعة ، فضلاً عن صناعة السلاح في اليمن لاسيما السيوف والدروع السلوقية ، نسبة الى سلوق من ارض خدير اليمنية (٧٤) . واشتهرت حران بصناعة الإسطرلاب والصناعات المعدنية الرقيقة (٧٥) .

واستخدمت المعادن المنطرقة في مجالات البناء والآلات الزراعية والأثاث فكانت صناعة السكاكين والفؤوس والمحاريث والمعاول والمطارق والمذاري والمناجل ، والأبواب الحديدية والكراسي والموازين الرقيقة ، وأواني الطبخ والقدور النحاسية ، والقناديل ، والسلاسل والأقفال ولجام الخيول كلها مصنوعة من تلك المعادن (٧٦) .

اما المعادن الثمينة من الذهب والفضة ، فكانت مادة لصناعة الحلي ، واشتهر العراق وبلاد الشام ومصر واليمن بهذه الصناعة ، فكانت القلائد والخواتم والأساور والمراود والمحاجل والقراريط ، وكل الحلي الأخرى ، مثار الإعجاب والدقة والصنعة ، واثر علم الكيمياء الى جانب التعدين في تلك الصناعات (٧٧) .

واستخدمت المعادن في تقوية وتزيين المساجد والجوامع ، واستخدامها مع الزخارف والفنون العمرانية بشكل ملحوظ ، فاستخدم

الحديد والرصاص مع الحجارة في بناء المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة لتقوية عمارته ، واستخدم الذهب في بيت المقدس (٧٨) .

ويصدق المثل القديم في مجال استغلال المعادن حضارياً : " ان الذهب للسيدات ، والفضة للعذاري ، والنحاس للصانع الماهر ، اما الحديد مجرد الحديد البارد ، فهو سيد كل المعادن عادة في الحياة العملية " (٧٩) .

وحصلت الدولة العربية الإسلامية على المعادن الثمينة وغيرها أو الاستفادة من الموارد الضرائبية المفروضة عليها من ثلاثة مصادر :

- وقوع مناجم تلك المعادن الفلزية ، تحت إشراف الدولة ، بشكل مباشر وغير مباشر ، وان كانت معظم المعادن في الواقع ، تدار من ساكني الإقليم لذلك نسب المعدن الى قوم معينين ، مثل بني سليم ، وفي البجة ينسب الى العلاقي (٨٠) ، وهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (٨١) او الى فران من بني عامر (٨٢) ، وهم أهل النفوذ في هذه الأقاليم . وقد يصل تلك المناجم أهل المطالب ، كما حصل في مصر ، وتبر أسوان عند العقيقة (٨٣) ، او ان الناس يغزون المكان الذي يتوافر فيه الحديد (٨٤) ، واتبع الخلفاء العباسيون إجراءات للاستفادة من تلك المعادن ، والإشراف عليها من العمال والولاة ، كما حصل بمصر والنوبة (٨٥) .
- كانت المعادن ولاسيما الثمينة ، تأتي عن طريق فرض الضرائب الشرعية " الزكاة والصدقات " على العاملين بتلك المعادن ، فيقدمون الى الوالي ما عليهم من ضرائب اقرها الشرع ، فتعود فائدتها للدولة والناس (٨٦) .

• أما المصدر الأخير ، فيأتي بالحصول على المعادن المستخرجة ، على شكل أموال ومعادن خام ، عن طريق التجارة كسلع ، فتصل المعادن الى المدن العربية الإسلامية ، ليقوم أصحاب الحرف والمهن بصناعتها ، حلي وآلات مدنية وحربية ، وبذلك تحولت الدولة العربية الإسلامية بمرور الزمن الى مخزن كبير للمعادن الثمينة (٨٧) . ومنها ما يجلب من معادن إقليم الخلافة ، من سلع وبضائع عن طريق التجارة أو من الدول المجاورة ، سواء كانت معادن خام أو سلع مصنعة ، فهذه البصرة مثلاً ، كانت تحصل على الحديد والنحاس والرصاص من الأقاليم الأُخر ، ولدينا قائمة من المعادن الخام والقادمة من أقاليم الخلافة الشرقية (٨٨) ولاسيما من خراسان ، واصفهان ، وكرمان واصطخر وفارس ، فأمدت الدولة العربية الإسلامية في مركزها او مدنها ، بكميات كبيرة من المعادن الثمينة (٨٩) . فضلاً عن الأقاليم الأُخر التابعة للدولة العربية الإسلامية الشرقية والغربية ، والتي أمدتها برواسب النحاس ، كقبرص مثلا (٩٠) .

خامساً : الأحكام الشرعية والفقهية للمعادن :

اختلف الفقهاء في مقدار الضريبة على المعادن ، هل تكون الخمس أو العشر ؟ . ولكن العراقيين منهم اتفقوا على ان تكون الخمس (٩١) ، وكما يقول قدامة (٩٢) لا اختلاف بين الفقهاء والكتاب في موضوع أحكام ذلك ، فهو الخمس ، بينما يختلف على ذلك مالك بن انس ، الذي يقول ، انه لا خمس في المعدن لانه ليس بركاز عند أهل الحجاز ، وانما فيه زكاة (٩٣) .

واختلف الفقهاء أيضاً في موضوع أنواع المعادن ، التي تفرض عليها هذه الضريبة ، ففي الذهب ، يقول الشافعي ، تجب الضريبة في معادن الذهب والفضة خاصة ، بينما أوجبها أبو حنيفة في كل ما ينطبع من ذهب وصفر ، واسقطها عما لا ينطبع من مائع أو حجر ، ويرى ابن حوقل ، أنها تمت في جميع الخارج منها سواء كان مما ينطبع أو لما لا ينطبع (٩٤) .

وقد اختلف في مفهوم الركاز ، فاعتبره البعض المال المدفون في خرب الجاهلية (٩٥) ، ويجده قدامة (٩٦) ، ما ركز في باطن الأرض ، ولا يؤخذ منه الخمس ، إلا إذا بلغ عشرين ديناراً أو مائتي درهم ، فان بلغ ، فعليه زكاة ، وفيه الخمس لانه معدن ركاز ، وقد تعاملت الدولة العربية الإسلامية ، مع مناجم التعدين على هذا الأساس ، عدا تلك التي كانت واقعة تحت إشراف الدولة ، ومراقبتها المباشرة ، وتحصل الاستفادة منها .

ويتفق كل من يحيى بن آدم ، وأبي يوسف وابن سلام وقدامة ، بشكل لا لبس فيه ، في كيفية التعامل مع المعادن ، " الركاز " فقد فرضوا عليه الضرائب من الصدقات والزكاة على المسلمين ، ويجمع المال الذي يؤخذ من المعادن في النواحي ، لان العمال يجمعون منها في حساباتهم المرتفعة الى الدواوين الخمس مباشرة (٩٧) .

الخاتمة :

يتضح مما سبق ، أن المعادن المنطرقة ، كانت عموداً فقرياً للحضارة العربية الإسلامية ، وانها كانت متوافرة في معظم أقاليم الدولة العربية الإسلامية في المشرق ، وتعامل معها الإنسان حضارياً مستفيداً منها مورداً ومادة خام في الصناعة ، وعنواناً لحضارته الشاملة ، فخدم نفسه وخدم الإنسانية ، ولم تغفل الشريعة الإسلامية تلك المعادن للتعامل معها بما يعم الخير والفائدة للجميع .

وهكذا كانت حضارة العرب المسلمين سباقة في التعامل مع خزائن الأرض وتطويعها بما يقدم الاقتصاد ويدعم الحضارة .

المصادر والهوامش

١.سمي المعدن بهذه اللفظة من قولهم ، عدن بالمكان إذا أقام به ، هو لازم للموضع الذي يستخرج منه . قدامة بن جعفر : الخراج وصناعة الكتابة ، تحقيق محمد حسين الزبيدي ، بغداد ، دار الرشيد ١٩٨١ ، ٢٠٥ . الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف ، مفاتيح العلوم ، القاهرة ، مطبعة الشرق ١٣٤٢هـ . ويسميها الأجساد ، ١٤٩ ، ١٤٧ ، ١٥٠ . ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، بيروت ، دار لسان العرب ، ١٩٥٦ ، مادة (عدن) .

٢.من المعاجم اللغوية : ابن منظور ، الزبيدي : تاج العروس ، القاهرة ، المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ . اما المصادر الفقهية ، أبو يوسف ، يعقوب بن إبراهيم : الخراج ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ، ١٣٠٢هـ . ابن سلام ، أبو عبيدة القاسم : كتاب الأموال ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ١٣٥٣هـ .

٣.عوض الله ، محمد فتحي : الإنسان والثروات المعدنية ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ١٩٨٠ ، ١٧٧ ــ ١٨٥ .

٤.الجادر ، وليد : صناعة التعدين في العراق القديم ، منشور في كتاب ، حضارة العراق ، تأليف نخبة من الباحثين العراقيين ، بغداد ، دار الحرية ١٩٨٥، ٢٣٩ ــ ٢٦٨ . البصيلي ، احمد مصطفى ومظفر محمد محمود : المعادن والصخور ، الموصل ، مطابع جامعة الموصل ١٩٨٠ ، ٧ .

٥. ابتعدنا عن الجوانب التي تخص صناعة المعادن ، ووزنها النوعي ، وطرق معالجتها الكيمياوية ، وكيفياتها ، التي عالجها العلماء العرب المسلمون أمثال البيروني وابن سينا وغيرهم . البيروني ، محمد بن احمد البيروني : كتاب الجماهر في معرفة الجواهر ، بيروت ، عالم الكتب ، د.ت .

٦. هذه التسمية وردت عند ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، بيروت ، دار الأندلس ، ١٩٨٢ ، ١٠١٤. وهي التي تطرق للينها ، وسميت بالفلزية ، واشتهر منها سبعة بين الناس هي " الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير والاسرب والخارصين ، الابشيهي ، شهاب الدين محمد بن احمد أبي الفتح : المستطرف في كل فن مستظرف ، تحقيق مفيد محمد قميحة ، بيروت دار الكتب العلمية ١٩٨٦ ، ٢ / ٣٠٩ . شطا ، عبده : الثروة المعدنية في الوطن العربي ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، ١٩٧٠ ، ١٠ ــ ١١ .

٧. المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الأندلس ١٩٨٢ ، ٢ / ٦١٩ . الدمشقي ، ابو الفضل جعفر بن علي : الإشارة الى محاسن التجارة ، تحقيق البشري الشوربجي ، الاسكندرية ، مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٧ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٤٨ .

٨. محرم ، محمد رضا : الثروة المعدنية العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٤ ، ٢٨ ، البصيلي . المرجع السابق ، ٢١٩ .

٩. الهمداني ، احمد بن يعقوب ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، ١٩٨٩ ، ٣١٢ .

١٠. ياقوت الحموي ، شهاب الدين بن عبد الله : معجم البلدان ، بيروت ، دار إحياء التراث ١٩٧٩ ، ٣ / ٥٣ . قدامة ، المصدر السابق ، ٨٣ .
١١. الهمداني ، المصدر السابق ، ١٤٩ ، ٣٢١ .
١٢. المقدسي ، ابو عبد الله محمد بن احمد البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، باعتناء دي خويه ، ليدن بريل ، ١٩٠٦ ، ٩٧ ، الادريسي ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس ، المأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشر دوزي ، ليدن ، بريل ١٩٦٨ ، ١٣٦ .
١٣. ابن سلام ، المصدر السابق ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
١٤. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٠ .
١٥. العطية ، موسى جعفر : " دراسة تحليلية لانشطة التحريات المعدنية عن الخامات الفلزية في حضارات وادي الرافدين " مجلة المجمع العلمي العراقي ، الجزء الأول ، المجلد (٤٧) ، لسنة ٢٠٠٠ ، ٢٢٣ .
١٦. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٥ ، التنوخي ، ابو علي الحسن بن أبي القاسم ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، تحقيق عبود الشالجي ، بيروت ١٩٧٢ ، ٨ / ٢١٦ .
١٧. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ٢ / ٢٠٨ .
١٨. البدري ، أبو البقاء عبد الله محمد من علماء القرن التاسع للهجرة : نزهة الأنام في محاسن الشام ، دمشق ، ١٩٤٠ ، ١٤٧ .
١٩. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٨٤، عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ، دمشق ١٩٢٥ ، ٣٨٨ ، احمد رمضان

احمد : المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، الإسكندرية ، ١٩٧٧ ، ١٢٨ ، حتي ، فيليب ، تاريخ سورية وفلسطين ولبنان ، بيروت ، دار الثقافة ١٩٨٢،١ / ٣٠٥ . العلي ، احمد صالح : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري ، بيروت ، دار الطليعة ١٩٦٩ ، ٢٤٦ ، هامش (١) . والمغرة الحمراء في الهيماتايت ، من معادن الحديد ، كانت متوفرة في الصحراء بلونها الاحمر ، وهو مادة اولية ملونة ، عوض الله ، المرجع السابق ، ١٢٦. شطا، المرجع السابق ، ٤٦ .

٢٠. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٨١ ، ١٨٤ ، اسكندر ، المرجع السابق ، ٣٨٨ .

٢١. الادريسي ، المصدر السابق ، ١٣٦ .

٢٢. ابن حوقل ، ابو القاسم النصيبي : صورة الأرض ، بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٧٩ ، ٦٢ . شطا . المرجع السابق ، ١٤٥ .

٢٣. الدمشقي ، المصدر السابق ، ٤٨ .

٢٤. ن . م . ٤٨ .

٢٥. المسعودي ، المصدر السابق ، ٩٦/١ عوض الله ، المرجع السابق ، ١٢٤ .

٢٦. الهمداني ، المصدر السابق ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، البيروني ، المصدر السابق ، ٢٧٠ .

٢٧. البيروني ، المصدر السابق ، ٢٧٠ .

٢٨. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٨٤ ، ١٨٩ .

٢٩. لومبارد موريس : الإسلام في مجده الأول ، ترجمة إسماعيل العربي ، الجزائر ، المؤسسة العربية للكتاب ، ١٩٧٩ ، ١٦٦ .
٣٠. الجادر ، المصدر السابق ، ٢٤٤ .
٣١. الدمشقي ، المصدر السابق ، ٤٨ ، الابشيهي ، ، المصدر السابق ، ٣١٠/٢ ، البيروني ، المصدر السابق ، ٢٦٠ ، ٢٥٨ .
٣٢. الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، بيروت ، ١٩٣٥ ، ٣٢ .
٣٣. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٨١ .
٣٤. المقدسي ، المصدر السابق ، ٩٧. البيروني ، المصدر السابق ، ٢٦٩ ــ ٢٧٠ .
٣٥. الهمداني ، المصدر السابق ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ .
٣٦. اليعقوبي ، احمد بن يعقوب بن جعفر : البلدان ، النجف ١٩٥٧ ، ١١٠ ، البيروني ، المصدر السابق ، ٢٤٢ .
٣٧. لومبارد ، المرجع السابق ، ١٦٦ .
٣٨. التبر ، تدل على الذهب الخام أو غير المصفى أو الذي لم يضرب بعد وسميت بلاد السودان ببلاد أو ارض التبر ، ابن منظور ، المصدر السابق ، ٣٠٩/١ ، بينما يقول البيروني ، المصدر السابق ، ٢٣٢ ، انه يطلقه على جميع الجواهر الذائبة قبل استعمالها ، الا انه بالذهب اعرف .
٣٩. الهمداني ، المصدر السابق ، ١٤٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٣٠٠ ، المقدسي ، المصدر السابق ، ١٠٨ .
٤٠. ابن الفقيه ، ابو بكر احمد بن محمد ، مختصر كتاب البلدان ، اعتناء دي خويه ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ ، ٣٢ .

٤١. الهمداني ، المصدر السابق ، ٢٣٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٥ .

٤٢. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٣٨ ، ١٥١ .

٤٣. المقدسي ، المصدر السابق ، ٢٠١ .

٤٤. المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ١/٣٤٦ . المقدسي ، ٢٠١ ، البيروني ، ٢٤٢ .

٤٥. اليعقوبي ، المصدر السابق ، ٨٩ .

٤٦. المقدسي ، المصدر السابق ، ٢٠٩ ، البيروني ، المصدر السابق ، ٢٤٠ . متز ، آدم : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، بيروت ١٩٦٧ ، ٢ ، ٣٢٧ .

٤٧. المقدسي ، المصدر السابق ، ٢٠١ .

٤٨. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٣ . المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ١ / ٣٤٠ . الادريسي ، المصدر السابق ، ١٩ ، ٢٧ .

٤٩. قدامة ، المصدر السابق ، ٣٥٣ .

٥٠. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٥٨ ــ ٥٩ . المسعودي ، مروج، المصدر السابق ١/٣٤٠، الادريسي، المصدر السابق، ٢٦.

٥١. المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ١/٣٠٥ . الادريسي ، المصدر السابق ، ٨ . متز ، المرجع السابق ، ٢ / ٣٢٧ .

٥٢. عوض الله ، المرجع السابق ، ١٢١ .

53. Robert, July, A History of the African propel (NewYork 1970), p.53.

٥٤. عن الالتقاط ، الادريسي ، المصدر السابق ، ٨. البيروني ــ المصدر السابق ، ٢٣٣ ، ويقول البيروني : لانه يلقط من المعدن ، قطعاً يسمى ركازاً ، إذا وجد فيه القطع ، اما الحفر في باطن الأرض، الادريسي، المصدر السابق،٢٢ .Robert,op.cit .P.153 وأخيراً من مجرى الأنهار ، البيروني ، ٢٢٤ ، ٢٣٦ .

٥٥. البيروني ، المصدر السابق ، ٢٤١ .

٥٦. المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ٣٠٥/١ .

٥٧. الادريسي ، المصدر السابق ، ٢٦ ، البيروني ، المصدر السابق ، ٢٤١ .

٥٨. التنبيه والإشراف ، بيروت ، دار التراث ، ١٩٦٥ ، ٧٩ .

٥٩. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٦٣ .

٦٠. الملغمة : تعني صهر الذهب وهو مع شوائبه في الزئبق ، ثم يصفى الناتج، كي يحصل على الذهب الصافي ، لومبارد موريس : الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة ، دمشق ، ١٩٧٩ ، ١٤٧ .

٦١. متز ، المرجع السابق ، ٢ / ٣٢٣ .

٦٢. ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ٣ / ٥٣ . فيليب حتي ، المرجع السابق ، ١ / ١٩٨ .

٦٣. عوض الله ، المرجع السابق ، ٢٥٨ .

٦٤. الجادر ، المرجع السابق، ٢٤٧. محرم ، المرجع السابق، ٢٠ .

٦٥. الماوردي ، علي بن محمد : الأحكام السلطانية ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨ ، ١٤٩ .

٦٦. الدمشقي ، المصدر السابق ، ٢٢ ، ٢٣ .

٦٧. قدامة ، المصدر السابق ، ٤٣٥ . المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي : إغاثة الامة بكشف الغمة ، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٠ ، ٨٧ .

٦٨. البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ ، ٤٦٧/١ ، المقريزي ، المصدر السابق ، ٩٥ ــ ٩٧ .

٦٩. لومبارد ، الإسلام ، المرجع السابق ، ١٦٨ .

٧٠. قدامة ، المصدر السابق ، ٥٩ .

٧١. الادريسي ، المصدر السابق ، ١٣٦ ، المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٥ .

٧٢. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٥ . الخطيب البغدادي ، أبو بكر احمد بن علي : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي د.ت. ٥٥/١ العلي ، المرجع السابق ، ٣٠٣ .

٧٣. الهمداني ، المصدر السابق ، ١٤٩ ، عيسى اسكندر ، المرجع السابق ٣٨٨ . احمد رمضان ، المرجع السابق ، ١١ .

٧٤. ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ١٣٢ . المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ٣٤٠/١ ، ٣٤٦ . المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٥ .

٧٥. المقدسي ، المصدر السابق ، ١٤٥ ، فيليب حتي ، المرجع السابق ، ١ / ٢٠٠ .

٧٦. المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ٦١٩/٢ ، الدوري ، عبد العزيز : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٩ .

٧٧. ابن الفقيه ، المصدر السابق ، ٢٤،٩٨،٩٩،١٠١،١٠٧ .

٧٨. عوض الله ، المرجع السابق ، ١٢٦ .

٧٩. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٥٥ ــ ٥٩ .

٨٠. المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ١/٣٤٠ .

٨١. الهمداني ، المصدر السابق ، ٢٥٨ .

٨٢. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ١١٧ .

٨٣. اليعقوبي ، المصدر السابق ، ٨٩ .

٨٤. الهمداني ، المصدر السابق ، ١٤٩ . المسعودي ، مروج ، المصدر السابق ، ١/٣١٧ .

٨٥. ن.م. ٣٤٢ .

٨٦. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ١٥١ . لومبارد ، الإسلام ، المرجع السابق ١٦٣ .

٨٧. ن.م. ١٦٠ .

٨٨. اليعقوبي ، المصدر السابق ،٥٢،٥١، ابن الفقيه ، المصدر السابق ٢٠٦. ابن حوقل ، المصدر السابق ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ . المقدسي ، المصدر السابق ، ٣٢٦ .

٨٩. محرم ، المرجع السابق ، ٣٥ .

٩٠. الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى : أدب الكاتب ، نشره محمد بهجة الأثري ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ ، ١٩٩ .

٩١. قدامة ، المصدر السابق ، ٢٠٢ .

٩٢. ن.م. ٢٣٨ ــ ٢٣٩ . ابن سلام ، المصدر السابق ،٣٤٢ .

٩٣. الماوردي ، المصدر السابق ، ١٦٦ . ابن سلام ، المصدر السابق ، ٣٤٢ ابو يعلى ، الفراء الحنبلي : الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٣٨ .

٩٤. الماوردي ، المصدر السابق، ١٢٦. الدوري ، المرجع السابق ، ٢٠٩ .

٩٥. قدامة ، المصدر السابق ، ٢٠٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

٩٦. ابن سلام ، المصدر السابق ، ٣٤٢ . ابو يوسف ، المصدر السابق ، قدامة ، المصدر السابق ، ٢٠٢ . يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج ، نشر جوبنبول ، ليدن ١٨٩٦م .

Modern University in Face of Public Demands and Self Autonomy

Prof.Dr. Dakhil Jerew
President of the Academy of Sciences

Abstract:

Modern University faces tremendous public demands to account for itself in carrying out its scientific and academic duty, and to justify its policies in various matters, so as to be able to raise funds for various university projects. These demands seem to hinder university autonomy and academic freedom. This paper is concerned with the examination of these topics.

The Arabism of Arabian Nights

Prof.Dr. Ahmed Matloub
Member of Academy of Sciences
The Head of Arabic Language Department

Abstract:

The (Arabian Nights) book spread out in the western world before it spreads out in the Arab and Islamic world and had been dealt with in many studies, many of them were a way from the book essence.

It turned out after getting rid of the unfair and extremist tendency, to be Arabic in all its real events and characters and represents the Arabic Islamic life in a good way. This characteristic does not prevent the mention of foreign and fairy tales, because that is known in the narritation of novels and stories both old and modern times.

Economic Conditions in Tadmur

Dr. Jawad Matter Al-Mus'awiy
College of Arts/ University of Baghdad

Abstract:

Economic studies in history are greatly important , especially the pre-Islamic Arab economy, not to mention Tadmur, for what it has an effective role in the economic activity that time, and therefore, the researcher adopted the descriptive method in presenting his material along three axes, preceded by an introduction and followed by conclusions.

In the introduction, the geographical background of Tadmur state was dealt with. This is beside exposing the influence of geographical location on economy. As for the first axe, it handled water and agriculture. Industry was focused upon in the second. The third investigated trade.

The closing part contained some important conclusions:

1- The geographical location of Tadmur has a remarkable role in the economic conditions and on water available for agriculture, and plantation.
2- Habitants of Tadmur took care of water canals and dams just for controlling water. This led to plant cereal groins and some long-lasting trees.

3- Tadmur took care of domesticating animals and the industry of animal skins and the various fabrics, and for each craft, there was a community to serve those who practice it.
4- Trade was the backbone of economy, tradesmen were masters over others. Military force was formed to guard trade relations with other states.

Agricultural and Irrigation in Al-Anbar District (Coora) in Islamic Period

Prof.Dr. Hamddan Abdul Majeed Al-Kubaiassi
College of Arts /University of Baghdad

Abstract:

Agriculture and Agricultural production had been created vitality field of Islamic state, since it is render great continuous financial resources, and many citizens depend on Agriculture and Agricultural fields in their social life.

There are vast and fertile land in Al-Anbar perforated by Euphrates, in addition of Eissa river, and raining water, which irrigated that region.

Accordingly, the agricultural activities increased in Al-Anbar district in Islamic period.

Grammatical Achievement Level of Fine Arts Institute Students

Prof.Dr. Hassan Ali Al-Azzawi
Instructor Dr. Saad Ali Zayr
Asst-instructor Iman Ismael
College of Education-Ibn Rushd/ University of Baghdad

Abstract:

This paper aims at diagnosing the grammatical achievement level of fine Arts Institute students in Baghdad.

To achieve the above aim, the researchers selected (150) students from (6) departments of fine Arts Institute in Baghdad, as the sample of this study.

Then, a test of proper scientific characteristics such as: validity, reliability and discrimination power has been made and applied to the sample of the study. It reveals that the subjects (sample of the study) made considerable errors in all grammatical items. The most prominent reasons of such errors relate to subjects' high reliance in learning grammatical rules parrot-like memorization and demonstration of these rules without understanding them, as well as their lack of practice in under investigation, believe that the topic in the Arabic language is something secondary to their field of study.

Accordingly,the researchers have recommended

Accordingly,the researchers have recommended the following:-

1- A lot of attention should be given to grammatical application and drills throughout the teaching process.
2- What is essential in grammatical view points (in matters of different views) should be considered.

Finally, the researchers put forward these suggestions:

-A similar study can be applied to other fine arts Institutes.

-A study of teachers' grammatical errors and their relations with their students' errors in fine Arts Institutes can be made.

Statistics Before The Statistics

Dr. A.H Zayni
College of Administration and Economy/ University of Baghdad

Abstract:

This paper is concerned with the statistical events that happened before the beginning of statistical science.

The Arabic term which is used for the statistics (Al-Ihsaa') means the counting operations.
The word is mentioned in the Holy Quran (11) times nearly with the same meaning.

The first Arabic book with the title of the statistics was written by Al-Farabi (10th century) titled (The statistics of sciences)

Another Arabic book of the 14th century that was not in statistics but in Geography, contained many descriptive tables and was written by Sultan Ismael in Syria.

Statistics is a modern science, but the statistical censuses are very ancient. They took place in ancient China, Europe, Egypt and Palestine (as it is in the Old Testament and the New testament). But all these statistical events do not constitute the beginnings of The Statistics. It really emerged from two types of studies: Staatenkude in Germany and political Arithmetic in England , both in the 17th century.

After that the statistical Science was developed by the efforts of many mathematicians in the field of Probability, Law of Large Numbers and the like.

Kant and the Triangle of Modernity: A Study of the Enlightenment Project and its Philosophical Actuality

Prof.Dr. Ali H. Al-Jabiri
Department of Philosophy
College of Arts /University of Mustansiriya

Abstract:

The study is comprised of an introduction which exposes enlightenment and modernity in contemporary philosophy with two sections: the first is concerned with Kantian modernity and its enlightenment project. The second one deals with post-Kantian modernity up to contemporary secularization modernity which represents what is known as the third wave civilization-like secularization, chaos philosophy, the superiority of non-causation, non-determinism, the post-quantitative geometry (quantum) and relativity theory age in which the rule perfected itself by the exception only, the system by anarchism only and the total by the particular only, despite the fact that the wholeness is larger than the sum of its parts.

In this way, the means of arriving at truth have varied and the attitudes have diversified, parallelly with diversification of chaos background.

Metallic Ores in the East of the Islamic Arab State Till the Third Century of Hegira

Prof.Dr. Taha Khuther Aubied
College of Education /Mosul University

Abstract:

Metallic ores are regarded as one of the metals that represented the vessel of civilization in general and the Arabic civilization in particular.

The study gives a review of the metallic ores and their geographical distribution in the east of the Islamic Arab state in the third century of hegira. It also handles their civilization and economic importance to man and government, their metallic sources to meet the requirements, the methods used to extract these metals, and finality the attitude of Islamic jurisprudence towards these metals. The study concludes that the reality of that wealth in the east of the Islamic Arab state and varied, concentrating on the antecedence of the Islamic Arab state in treating with that metallic wealth and use of it to serve humanity in general.

Notes on the Ibn Al-Anbari's Method in His Version and Notation of Amir bin Al-Tofail's Poetry

Dr. Mahmood Al-Jadir
College of Arts/ University of Baghdad

Abstract:

The research dealt with the scholarly and original accomplishment of Ibn Al-Anbari which is clearly seen in his version and notation of Amir bin Al-Tofail's poetry relying sometimes on documental evidences and other times on conclusive ones, through indication to some suitable sources in the book. The research follows Ibn Al-Anbari's notations (shorooh) of the poet's collection of poems (diwan). He noticed that he mainly explains the words of the poems and then relays on his experiences and on some specific texts of Koran and the classical Arabic poetry.

The research gave notes about confusion in some texts with indication to their sources where Ibn Al-Anbari sought, and processed it.